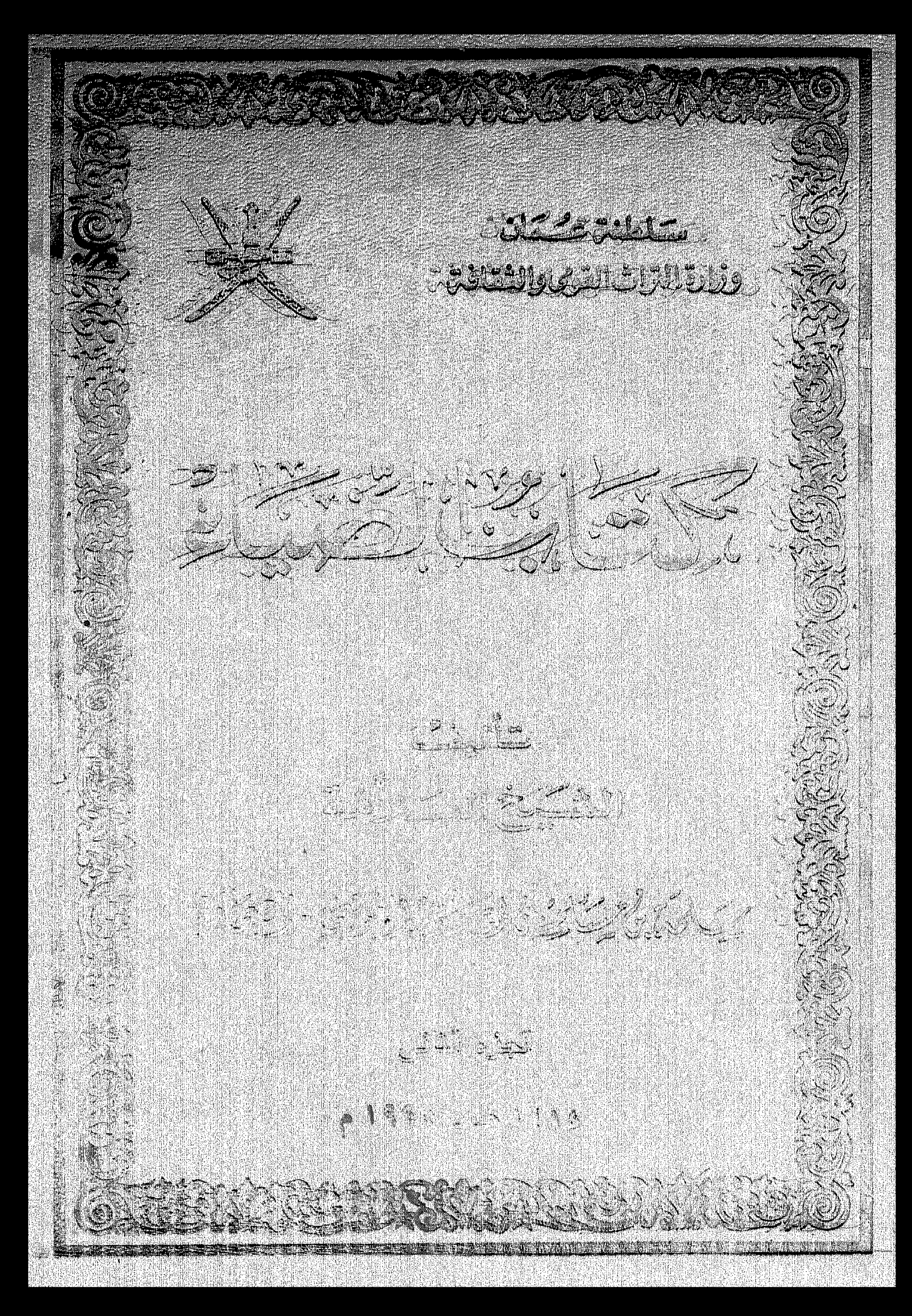


سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة

كتاب الضياء

تأليف

الشيخ [illegible]

[illegible]

الجزء الثاني

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م



سلطنة عُمان
وزارة التراث القومي والثقافة

كتاب الضياء

تأليف
الشيخ العلاّمة

سلمة بن مسلم بن ابراهيم العوتبي - الصحاري

الجزء الثاني

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

أبـواب الكتـاب

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

باب ما يجوز من الصفات حقيقة ومجازا

جائز أن يقال : لم يزل الله تعالى سميعا وهى صفة ذات ، وجائز لم يزل بصيرا وهى صفة ذات ، والمعنى بأنه عالم لأن العالم بالشيء بصير به ، وقد يكون معنى ذلك أن المبصرات إذا وجدت كان مبصرا، كما عنينا بوصفنا له بأنه لم يزل سميعاً أن المسموعات إذا كانت كان سامعا لها . والوصف له تعالى بأنه راءٍ قد يتصرف على وجهين ، فأحدهما أن يوصف بذلك ويعنى به أنه عالم. فعلى هذا المعنى جائز أن يقال لم يزل رائيا على معنى لم يزل عالماً إذا كانت الرؤية فى اللغة علما والوجه الآخر أن يعنى به أنه مبصر للمبصرات ، فلا يجوز من هذا الوجه أن يقال به لم يزل رائيا كما لم يجز أن يقال لم يزل مبصرا لأن المرئىّ المدرك لايكون مرئيا إلا وهو الموجود . وجائز أن يوصف بأنه لم يزل قاهراً ولم يزل قاهر الأشياء قبل أن يخلقها لأنه لم يزل مقتدرا عليها فاقتداره على ما لم يوجد هو قهره لذلك .

وجائز أن يوصف بأنه لم يزل باقياً ومعنى باق أنه كائن بغير حدوث وكل كائن بغير حدوث فواجب أن يوصف بأنه باق . فلما كان الله تعالى لم يزل موجوداً بغير موجد وجب أنه لم يزل باقيا . وجائز لم يزل فردا منفردا وجائز أن يوصف بأنه قريب من الخلق . والوصف له تعالى بذلك على جهة التوسع ، والمراد أنه عالم بنا وبأعمالنا، وأنه سامع لقول الخلق وراءٍ لأعمالهم وأنه لاستر بينه وبينهم

ولاحجاب ولا مسافة ، فلما كان على ذلك قيل فى سعة اللغة أنه قريب منا إذ كان لايشاهد أعمالنا أحد من المخلوقين إلا من كان منا قريباً .

* **مسألة :** فإن قال قائل : خبرونى عن تقرب العباد للّه تعالى بالطاعات أهو عندكم مجاز أو حقيقة ؟ قيل له : بل هو مجاز وتوسع ، ومعناه طلب المحبة والكرامة منه ، وإنما قيل لذلك تقرب لأنا فى المشاهد إذا أحببنا شيئا قربناه منّا وإذا بغضناه بعدناه منا ، فلهذا قيل لذلك تقرب إلى اللّه عز وجل على المجاز .

* **مسألة :** وجائز أن يقال أنه تعالى قوى على الحقيقة كما يقال أنه قادر على الحقيقة . وجائز القول بأنه عارف بالأشياء كما يقال أنه عالم بها لأن العلم هو المعرفة ، والعالم بالشىء فى الشاهد هو العارف به . وجائز أن يقال : يدرى الأشياء كما يقال أنه يعلمها وإن كان استعمال هذه اللفظة فى صفاته قليلا ، لأن الوصف للعالم فى الشاهد بأنه يدرى الأشياء بمعنى الوصف له أنه يعلمها ويعرفها . فلما كان الله تعالى عالما بالأشياء صح أنه يدرى بها ، وقد جاز ذلك فى صفاته جل وعز عند أهل اللغة . وقال بعض الشعراء « لاهمّ لاأدرى وأنت الدارى » يريد لا أعلم وأنت العالم . وجائز أن يوصف بأنه يجد الأشياء لأن العلم وجدان فى اللغة والعالم بالشىء فى اللغة واجد له ، فلما كان اللهّ تعالى بالأشياء عالماً كان لها قادراً . وقد يوصف تعالى بأنه شاهد كل نجوى ، ومعنى ذلك أنه راءٍ لها وسامع ، فقيل له من معنى الرؤية والسميع أنه شاهد على التوسع لأن المشاهد منا الشىء هو الذى يراه أو يسمعه دون الغائب منا . ويوصف بأنه تعالى مطلع على العباد وعلى أعمالهم توسعا ويراد أنه عالم بهم وبأعمالهم . وإنما قيل له مطلع على المجاز لأن المطلع منا على الشىء من فوقه يكون أعلم به وأولى بأن لا يخفى عليه شىء منه، فلما

كان اللّه تعالى بالأشياء كلها عالماً لايخفى عليه شيء منها قيل أنه مطلع عليها مجازا .

ويوصف بأنه لم يزل غنيا عن الأشياء ، ومعنى ذلك أنه لاتصل إليه المنافع والمضار ولايجوز عليه اللذات والسرور والآلام والغموم ، ولا يحتاج إلى غيره يستعين به فى أفعاله وتدبيره . بل هو بنفسه عليها قادر وبها عالم ، فوجب له أن يوصف بأنه لم يزل غنيا بنفسه عن سائر الأشياء ، ويوصف بأنه تعالى يغضب ويسخط ، ومعنى هذا الوصف له هو غير معنى الوصف لنا بهذا الفعل فى الشاهد إلا أن غضبنا وسخطنا يحلان فينا ، وغضب الله وسخطه لايحلان فيه .

* **مسألة** : فإن قال قائل : فإذا لم يجز عندكم أن يحل فيه الغضب والسخط فلم وصفتموه به وأجزتموه عليه ؟ قيل له : جاز أن نصفه بذلك بأن يفعله من غير أن يحل فيه كما جاز أن نصفه بالكلام وبالأمر والنهى بأن يفعل ذلك من غير أن يحل فيه . وقال أهل العلم أن غضبه وسخطه هو عقوبته وناره ، وأن حبه ورضاه هو ثوابه ، وجنته . ولا يجوز أن تكون العقوبة إلا محدثة لأنه لايجوز أن يحدث ذلك إلا عند ما يستحقه منه المذنب ، ولو كان لم يزل غضبانا على من لم يعصه لكان بذلك ظالما له ويعد ظالما له . وأيضا فلو كان لم يزل غضبانا لنفسه لا بحدوث أن يغضب . ويستحيل أن يقال أنه لم يزل جاهلا بنفسه ولم يزل عالماً بنفسه ولم يزل عاجزا بنفسه ولم يزل قادراً بنفسه ، فصح هذا أن الرضى والغضب وسائر ما ذكرنا هى أفعاله إذ كان موصوفا بها وبأضدادها من نحو الكراهة والإرادة والحب والبغض لأن أضداد صفاته لذاته لا تجوز عليه كما لم يجز عليه الجهل لما كان لم يزل بنفسه عالماً ولم يجز عليه العجز لما كان لم يزل بنفسه قادراً ولايجوز عليه الحدوث

لما كان لم يزل بنفسه قديماً . فصح بهذا أن ما جاز أن يوصف به وبضده أو بالقدرة على ضده من نحو الإرادة والكراهة والحب والبغض والرضى والغضب والسخط ، أن ذلك هو فعله .

* **مسألة :** إن سأل سائل فقال : هل يجوز أن يوصف الله تعالى بأنه لم يزل ساخطا على أهل النار والمثيب لأهل الجنة؟ وينظر في هذه المسألة والتي قبلها.

فصـــل

وجائز أن يوصف الله تعالى بأنه يحب ويبغض ومعنى الوصف له بالمحبة هو معنى الوصف له بالإرادة ومعنى الوصف له بالبغض هو معنى الوصف له بالكراهة . وذلك أن كل ماكره الله تعالى كونه من العباد فهو مبغض كونه منهم ، وكل ما أراد كونه من العباد فقد أحب كونه منهم ، وكل من أراد إكرامه من عباده فهو له محب ، وإرادته لإكرامه ولتعظيمه هي محبته لإكرامه ولتعظيمه، وهي محبة له. وكراهيته لإكرامه ولتعظيمه هو بغضه لإكرامه وتعظيمه ، وهو بغضه له لأنه ليس معنى حب الله للعباد إلا حبه لإكرامهم ولتعظيمهم ، وليس بغضه لهم إلا ضد ذلك ، والرضى والمحبة من الله تعالى معناهما أنهما صفة من صفات فعله ، وذلك أنه تعالى إذا رضي عن عبده وأحبه أوجب له الجزاء والثواب بفعله المرضي عنه به. وقد حكي عن بعض المفسرين أن قوماً زعموا أنه تعالى لايحب ولايبغض على الحقيقة ، لأن الحب عندهم من طبع البشر ، ولو كان الأمر على ما قالوا لنفوا عنه تعالى جميع صفاته لأن العلم إنما يكون من الخلق بمعاني معلومة وآيات

معروفة ، والله تعالى عالم بخلاف تعارف الخلق منهم فى العلم ، والله تعالى يحب عبده على الإحسان والطاعة على الحقيقة لاحب طبع ولا لهو ولا مشاكلة .

فصـــل

ويقال إن الله نور على ما قال الله تعالى ، واستعمله المسلمون. وإنما قال ذلك توسعا ومجازا وإرادته هادى أهل السموات والأرض ومبين لهم . فقال تعالى أنه نور السموات والأرض مجازا إذ كان به يهتدى أهل السموات والأرض فى دينهم ومصالحهم كما يهتدون بالنور والضياء لأن النور المعقول المستحق لهذا الاسم حقيقة إنما هو الضياء المشاهد من نحو ضوء الشمس والقمر وما أشبه ذلك . فلما لم يجز أن يكون الله تعالى ضوءا ولا من جنس الضوء والأنوار إذ كان الضوء والأنوار محدثة والله تعالى لا يشبهه شيء من أجناس المخلوقات صح أنه إنما قال أنه نور السموات والأرض مجازا لاحقيقة ، وعلى هذا السبيل قال إن القرآن نور وإن الإيمان نور . وأراد بذلك أن القرآن يهتدى به الناس فى دينهم كما يهتدون بالنور الذى هو ضياء لمصالحهم . وكذلك الإيمان فقال تعالى أنهما نور على التوسع دون الحقيقة . لأن القرآن والإيمان هما مخالفان الأنوار والضياء فى الجنس فإنما أجرى عليهما اسم الأنوار والضياء توسعا ومجازا على ما بيناه .

* **مسألة :** فإن قال قائل فما أنكرتم سمى الله تعالى نفسه نوراً على الحقيقة وإن لم يكن من جنس الأنوار والضياء؟ قيل له إن الله عز وجل لايجوز عليه أن يسمى ذلك الاسم من جهة العقول واللغة كنحو تسمية نفسه بأنه قديم وأنه واحد وأنه

عالم وأنه رحيم لأنه لو جاز أن يسمى بالأسماء على جهة التلقب لجاز أن يسمى بأنه جسم وبأنه محدث وبأنه إنسان ، فلما لم يجز أن يتسمى بذلك إذ كان خلاف ما يستحقه من الأسماء والصفات صح أنه لا يجوز أن يسمى إلا بالاسم الذى يكون مستحقا له ولمعناه من جهة العقول واللغة، وأيضا فإن الاسم إذا سمى به المسمى على جهة التلقب من غير أن يكون مستحقا له ولمعناه من جهة العقول واللغة لايجوز أن يكون وصفا للمسمى به . وذلك أنا لو سمينا صبيا بقولنا مسلم وبقولنا صالح وما أشبه هذه الأسماء على جهة التلقب والتعريف لم يجز أن يصير قولنا مسلم وصالح صفة لهذا الصبى، ولا يجوز أن يقال رأيت صبيا صالحا ولا مسلما ولو كان مستحقا للتسمية بمسلم وصالح من جهة العقول واللغة جاز أن يوصف بهذه الأسماء كما إذا سمينا المطيع لله تعالى بأنه مسلم وأنه صالح لاستحقاقه ذلك بعمله جاز أن يوصف بهذه الأسماء فيقال مررت برجل مسلم وبرجل صالح، فلما كانت أسماء الله تعالى يوصف بها علمنا أنه إنما استحقها من جهة العقول واللغة، وأنه لم يتسم بشىء من ذلك على جهة التلقب . فلما علمنا أنه لايجوز أن يكون ذلك وصفا له على الحقيقة إذ كان خلاف الأنوار والضياء وأنها لا تشبهه ولايشبهها كما لا تشبه سائره ما خلق علمنا أنه وصف نفسه بأنه نور مجاز لا حقيقة ، ولهذا نظائر فى اللغة وفى القرآن ، وذلك أنه يقال أن الله عدل كريم ، الوصف لله تعالى بأنه عدل هو توسع ومجاز لأن العدل فى الحقيقة هو المصدر فقالوا عدل هو وأرادوا أنه العادل فتوسعوا فى هذا القول إذ من يعقل عنهم ما أرادوا بذلك من الصفة بأنه عادل ومثله وصفه لنفسه تعالى بأنه السلام ، والسلام إنما هو المصدر المعقول فلما كان يعقل عنه ما أراد بوصفه لنفسه بالسلام أنه الذى تكون السلامة من قبله جاز أن يصف بذلك

نفسه توسعا . ومثل ذلك بأن الله هو الحق يصف نفسه بذلك مجازا لأن الحق مصدر فى أصل اللغة والله تعالى لا يشبه شيئا من المصادر، وأراد بذلك أن عبادة الله تعالى هى الحق وأن عبادة غيره هى الباطل .

وقد يجوز أن يعنى بقوله أن الله هو الحق أن الله هو الباقى المحيى المميت ، وأن ماتدعون من دونه هو الباطل أراد به يبطل ويذهب وأنه لا يملك لأحد ثواباً ولا عقاباً. ومن ذلك أيضا قول المسلمين ياغياث المستغيثين ، ويارجاء المستجيرين ، والغياث والرجاء هما المصدر فى حقيقة اللغة فوصف الله بهما توسعاً ومجازاً ، وأرادوا بذلك إنه المغيث للمستغيثين وأنه مرتجى الآملين .

* **مسألة :** فإن قال: افتزعمون أن قول الله عز وجل « الله نور السموات والأرض » وقوله السلام وقوله الحق ، وقول المسلمين عدل وغياث ورجاء هى أسماء وصفات له؟ قيل له ليست بأسماء له عز وجل ، ولا صفات له ، ولكن جعلت مكان أسمائه وصفاته مجازا وتوسعا ، إذ كانت تدل على أسمائه وصفاته عز وجل .

فصل

وجائز أن يوصف تعالى بأنه طالب ومدرك ، ومعنى الطالب أنه يطلب من الظالم حق المظلوم لأنه لا يضيع للمظلوم عنده حق . ومعنى المدرك أنه الذى لايفوته شيء طلبه ولايعجزه أحد ولا يمتنع عليه شيء . وليس الوصف له تعالى بأنه مدرك مثل الوصف له بأنه غالب لأن هذا الإدراك إنما هو فعل منه ، وهو إنصافه المظلوم من الظالم ، والوصف له بأنه غالب إنما هو من صفات الذات لأن

معناه أنه قاهر الأشياء مقتدر عليها .

* **مسألة** : فإن قال قائل: أليست الأشياء كلها فى قبضته وسلطانه ؟ أو ليس هو بها جميعا عالم ، قيل : بلى فإن قال فكيف يجوز منه الطلب كما هو عارف بمكانه ومقتدر عليه قيل له هو إن كان عالماً بكل شيء ومقتدرا على كل شيء فقد يسمى أخذه للظالم بحق المظلوم طلبا لحق المظلوم منه لأن هذا يسمى فى اللغة منا طلبا وإن كان مقتدرين على من نطالبه بذلك .

فصـــل

ويوصف تعالى بأنه راحم لعباده ، ومعنى راحم أنه منعم وأنه ناظر لعباده وأنه محسن إليهم. وقد بين الله تعالى ذلك ، فقال « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» فإرساله النبى ﷺ هو نعمة منه تعالى على عباده ، وهو رحمة منه لهم ، كقوله تعالى فى وصف القرآن إنه هدى ورحمة لقوم يؤمنون. والقرآن نعمة من الله تعالى على عباده فسماه رحمة لهم ، وقد أجمع أهل اللغة والمسلمون على أن الغيث رحمة والغيث أيضا هو نعمة من الله تعالى فعلمنا بهذا أن معنى الرحمة من الله عز وجل معنى النعمة .

* **مسألة** : فإن قال قائل: أفليس الرحمة من الله عز وجل معنى النعمة ومنا هى رقة القلب ؟ قيل لا ، لأن رقة القلب ليس هى فى فعل الراحم. والرحمة هى فعل الراحم منا ، وذلك لأن الرقيق القلب ربما حمل نفسه على قتل من يرق له قلبه فلا يكون راحما له إذا قتله ، وإن كان قلبه رقيقا عليه ، وإنما الرحمة له تخليته له

وإرادته له الصلاح والنجاة ، وإنما توهم قوم أن الرحمة هي رقة القلب . وسموا من كان رقيق القلب رحيما لكثرة ما توجد الرحمة من الرقيق القلب كما سمى قوم الشهوة محبة لكثرة ما توجد المحبة مع الشهوة ، والشهوة في الحقيقة خلاف المحبة .

فصــل

ويوصف الله تعالى بأنه مصلح لأن فاعل الصلاح يسمى مصلحا . ويوصف بأنه خير لأن فاعل الخير إذا كثر ذلك منه استحق أن يقال له خير ، فلما كان فعل الخير من الله تعالى موجوداً وجب أن يسمى خيرا ، ويقال أن الله أصلح لنا من غيره ، وخير لنا من غيره . وهذا القول أيضا توسع والمراد به نعمه وفضله وخيره ويقال: الله تعالى خير أفعال منك .

* **مسألة :** ويقال الله عز وجل ، قد فعل الشدائد والآلام وليست بشر على الحقيقة ، وقوله تعالى « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » وقوله عز وجل « قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه » . هو شدائد ومصائب وليس بشر على الحقيقة . وقوله إن شر مجازا وتوسعا، وأراد به ضررا وشدائد لأن الشر هو عيب وفساد وفاعله شرير إذا كثر ذلك منه ، وجميع فاعل الشر هم الأشرار والله تعالى يجل أن يكون شريرا أو أن يكون مع الأشرار فصح بهذا أن الله تعالى لايفعل الشر على الحقيقة .

* **مسألة :** فإن قال قائل خبرونا عن عذاب جهنم أشر هو أم خير قيل له : ليس هو شرا ولا خيرا ولكنه عدل وحكمة لأن الخير ما كان نفع فيه لأهله والشر هو

ما وصفنا من العيب والفساد والظلم فما لم يكن فى هذا العذاب نفع لأهله ولم يكن مع ذلك ظلما ولا فساداً لم يكن خيرا ولا شرا ، فإن قال: أفتزعمون أن الله تعالى ينفع ويضر . قيل له : نعم هو ينفع المؤمنين وغيرهم ويضر الظالمين بعقابه إياهم. فإن قال أفهو ضار لهؤلاء الظالمين بعقابه إياهم قيل له: نعم. فإن قال فإذا جاز عندكم أن يكون ضارا على ما وصفتموه فلم لايجوز أن يكون مفسداً قيل له إن الضرر قد يكون حكمة وعدلا إذا كان من فعل به مستحقا ، والفساد لا يكون حكمة ولا عدلا؛ فلهذا لا يجوز أن يكون عز وجل مفسدا ولا فاعلا للفساد . وأيضا فليس قياس الضرر قياس الفساد ، وذلك أنه لو أفسد رجل بناء لرجل أو مالاً له كان إنما أضر بذلك صاحب المال على الحقيقة ولم يكن أفسد بذلك صاحب المال والبناء . وإنما أفسد المال والبناء على الحقيقة دون صاحبهما ، فصح بهذا أنه لا يجب أن يكون الشيء فاسداً من حيث كان ضرراً إذ لم يكن فاسداً لمن هو ضر له ولا إن استحق ذلك الضرر مجازا أن يكون عقاب الله تعالى للكافرين عقاباً لهم لما بينا من الفرق .

فصل

ويوصف تعالى بأنه مختار ومعناه أنه مريد له إذا لم يكن مُلجأ إلى ما أراده ، ولا مضطر إليه، والإرادة هى الاختيار فى اللغة فى وصفنا له تعالى بذلك وفى وصفنا لغيره إذ كانت على ما وصفنا من زوال الإلجاء والاضطرار إليها .

ويقال أن اختيار الله الذى اختاره وهو غير المختار كما أن الإرادة غير المراد من الله تعالى ومن العباد ، ووجدت فى بعض الكتب أنه لا يجوز أن يقال أن الله

تعالى يختار، قال ومعنى الخيار كالذى يروى بين الشيئين فينظر أيهما يختار لجهله وقلة علمه بالأجود منهما وذلك منفى عن الله تعالى لأنه عالم بحقيقة الأشياء وبفاسدها من صحيحها . وفى القرآن ما يؤيد القول الأول وهو قوله عز وجل ، وربك يخلق ما يشاء ويختار ، قال ابن عباس : يختار من يشاء من خلقه فيجتبيه بقول يجعله نبيا رسولاً ، ما كان لهم الخيرة من أمرهم ، ما كان لهم أن يختاروا هم .

وقال المفضل: أي الخلق له فيختار منه من يجعله نبيا ومن يجعله رسولاً ومن يجعله شهيداً ، ما كان لهم الخيرة أي الاختيار .

والخير مصدر فى الاختيار والخير جميعاً فالله أعلم بالأصح من القولين .

* **مسألة :** فإن قال أفتزعمون أن اختيار الله تعالى لأنبيائه صلوا ت الله عليهم هو إرادته لهم ؟ قيل له إن اختياره تعالى للأنبياء هو اختياره لإرسالهم إلى العباد ، وذلك إرادته لإرسالهم إلى العباد فجعل اختياره لإرسالهم اختيارا لهم فى سعة اللغة. فإن قال أفتزعمون أن اصطفاء الله تعالى للأنبياء هو اختياره لهم ؟ قيل له اصطفاؤه إياهم هو اختصاصه إياهم بها وليس معنى الاصطفاء معنى الاختيار لأن جميع ما يريده الإنسان من غير أن يلجأ إليه فهو مختار له، وليس يجب أن يكون مصطفيا له كما يكون مختاراً للأكل والشرب ، ولا يكون مصطفيا لهما .

فصل

ويقال أن الإنسان يكون خليلاً لله تعالى ، ومعنى الخلة الاختصاص فمن اختصه برسالته ووحيه وأفضى إليه من ذلك بما لم يفض به إلى غيره من الناس

كان لله خليلاً ، لأن الله تعالى قد خصه بما وصفناه ولهذا كان إبراهيم ﷺ خليلاً لله إذ كان قد خصه بما لم يؤته غيره من الناس، ولهذا كان الرجلان إذا اختص بعضهما ببعض وأفضى كل واحد منهما إلى صاحبه بما لم يفض به إلى غيره سمى خليلا له فى اللغة .

ولا يجوز أن يقال: الله تعالى خليل لأحد من أنبيائه ورسله وخلقه على الحقيقة لأن الخليل فى اللغة إنما هو خاصته الذى يفضى إليه بأسراره وأموره دون غيره لأنهم لم يخصوا الله تعالى بشىء فيكون لذلك خليلاً لهم ، كما كانوا أخلاءه لما خصهم به من الوحى والرسالة .

* **مسألة** : فإن قال : أفتزعمون أن جميع الأنبياء أخلاء الله إذ كان قد خصهم بما خص به إبراهيم ﷺ ؟ قيل له : نعم قد روى عن النبى ﷺ أنه قال: إن الله قد اتخذ صاحبكم خليلاً يعنى نفسه ، ولهذا قال : لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلاً؛ لأن رسول الله ﷺ لا يختص أحدا من أمّته بشىء من الدين والعلم لا يظهره لغيره، ولا أسر بذلك لأحد لأنه قد بعث إليهم جميعاً فهو يعمهم بالإبلاغ والدعوة ، فلما لم يخص أحداً بذلك من أمته لم يكن أحد منهم خليلا له . قد يقال فى سعة اللّغة للإنسان خليل على معنى حبيب ، وهذا هو مجاز لا حقيقة لأنه لو كان الحبيب خليلا على الحقيقة لكان المؤمنون جميعاً أخلاء الله كما أنّهم أحباؤه ، وهذا غير صحيح ولا سائغ فى حقيقة اللغة ، فإن قال: أفليس قد روى عن أبى هريرة أنه قال : سمعت خليلى رسول اللّه ؟ قيل له يجوز أن يقول أبو هريرة هذا على التوسع وأما حقيقة الخلة فهى ما وصفنا وهى تأويل حديث رسول اللّه ﷺ فى أبى بكر رضى اللّه عنه .

* **مسألة :** فإن قال أفيجوز أن يتخذ الله صديقا من خلقه يكون صديقا للمؤمنين ، والمؤمنون له أصدقاء. قيل له: لا . فإن قال وما الفرق بينهما . قيل له : لأن الصديق فى اللغة بأن يصدق صاحبه صاحبه الودّ والمحبة وأن يكون ضمير كل واحد منهما لصاحبه كعلانيته فلما لم يجز أن يوصف اللّه تعالى بأن سريرته للأنبياء كعلانيته وأن ما يضمر لهم كما يظهر إذ كان الضمير والطوية لا يجوزان عليه لم يجز أن يكون صديقا لهم ، وأيضا فإن الصديق إنما هو اسم وقع فى اللغة على التوسع وذلك أنه اشتق من صدق المودة والصدق فى حقيقة اللّغة إنما هو الخبر الذى وقع مخبره على ما أخبر به المخبر ، فلما كان استعمالهم الصدق فى المودّة مجازا غير حقيقة لم يجز أن يسمّى الله تعالى به لأنه تجب التسمية له عزّ وجل ، من جهة الحقائق لا من جهة المجاز ، فلهذا لم يجب أن يقاس الصّديق على الخليل إذ كانت التّسمية بالخليل حقيقة ، والتسمية بالصديق مجازا، والمجاز لا يجب أن يقاس على الحقائق .

فصل

ويقال أن الله تعالى يمتحن عباده توسعاً ومجازا والمراد أنه يكلفهم طاعة ويأمرهم بها لأن الامتحان فى أصل اللغة إنما هو التجربة وطلب معرفة حقيقة الشيء الذى يمتحنه ، فلما كان الله سبحانه بالأشياء عالماً وبما كان من أخبارها وما يكون لم يجز عليه التجربة ولا الامتحان على الحقيقة ، وإنما قيل مجازاً وأريد به أن يكلف ويأمر ، وكذلك يقال أنه يختبر مجازا لا حقيقة لأن الاختبار هو طلب المختبر

بالشّىء الّذى يختبره والعلم به ، فلما كان اللّه سبحانه وتعالى لم يزل بالأشياء عالما لم يجز عليه أن يختبر شيئاً وأن يطلب العلم به . وكذلك يقال أنه يبتلى توسعاً ومجازاً لا حقيقة ، ويراد بذلك أنه يكلف ويأمر لأنّ الابتلاء فى حقيقة اللّغة هو الفعل الذى يطلب الفاعل أن يعرف به صبر المبتلَى وما يكون منه عند الابتلاء .

قال الشاعر :

بليت وفقدان الحبيب بلية　　　وقد يبتلى الحر الكريم فيصبر

فلما كان الله تعالى عالماً بكل شىء قبل أن يخلق عباده وقبل أن يأمرهم لم يصح أن يريد بأمره إياهم معرفة ما يكون منهم إذ كان لم يزل عالما فلم يجز أن يبتلى العباد على الحقيقة وإنما توسعوا له فى الوصف بأنه يمتحن ويختبر ويبتلى ، وأرادوا بذلك أنّه تعالى يأمر ويكلف توسعاً ومجازاً .

* **مسألة :** فإن قال أفتزعمون أنّ الله تعالى يكلف عباده طاعته على الحقيقة ؟ قيل له نعم ، فإن قال أفليس المكلف منّا فى الشاهد إنما يكلف غيره حاجته ؟ قيل له قد يجوز أن يكلف أحدنا غيره حوائجه التى يحتاج إليها . وقد يجوز أن يكلفه أيضا فعل ما يحتاج إليه المكلف وإن لم يكن للمكلف فى ذلك حاجة لأن التكليف فى الأصل إنما هو تحميل الإنسان العمل الذى يلزمه إيّاه فإذا لزمه ما يحتاج إليه الآمر منا فقد كلفه ما يحتاج إليه ، وإذا ألزمه ما يحتاج إليه المأمور دون الآمر فقد كلفه ذلك ، وإن لم يكن للآمر إليه حاجة ، فلما كان اللّه عزّ وجل غنياً عن الأشياء كلّها كان تكليفه العباد طاعته لحاجتهم إلى ذلك ولانتفاعهم به لا لحاجته هو إليه ولا لمنفعة ما له منه . وقد مر شىء من هذا فى باب التكليف .

فصل

ويقال أنّ اللّه تعالى ناصر المؤمنين ومعنى ذلك دفعه المكاره والشّدائد والهوان عنهم ليعزّهم بذلك ويكرمهم وهذا هو النصرة المعقولة بيننا فى الشاهد . ويقال أنه تعالى يخذل الكفّار والفسّاق ، ومعنى ذلك ضد النّصرة ، وهو أن لا ينجيهم من الهوان والشّدائد وأن يفعل ما يتقون معه فى الشدائد والهوان . ويقال أن اللّه تعالى يهدى المؤمنين ، والهدى على ثلاثة أوجه، فوجه منه هو الدلالة لأن كل دلالة إلى شيء فهى هدى إليه فى اللغة فهذا الهدى قد هدى اللّه تعالى به ، المؤمنين والكافرين جميعا إلى الدّين ، لأنه قد دلهم جميعا على الدّين ، ووجه آخر هو الإيمان لأن الإيمان هو هدى من اللّه تعالى كما أنه نعمة من اللّه ، ووجه ثالث ، وهو النجاة لأن اللّه تعالى كما أنه سيهدى المؤمنين بعد موتهم بقوله تعالى « والذين قتلوا فى سبيل اللّه فلن يضل أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم » ولا يكون الهدى بعد الموت إلاّ الثّواب والنجاة لأنه ضد الإضلال الذى يعاقب اللّه به الكافرين ، وذلك الهلاك، فضده من الهدى هو النجاة ، فعلى هذه الثلاثة الأوجه يصرّف معنى القول أن اللّه تعالى يهدى المؤمنين .

* **مسألة :** فإن قال فما معنى قوله عزّ وجل « ويضل الله الظّالمين » قيل له: معنى ذلك أنه يهلكهم ويعاقبهم لأن الضلال فى اللغة على وجهين فوجه هو الهلاك ووجه هو الذهاب عن الصواب وعن الطّريق ؛ لأن اللّه تعالى قال « أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد » يعنى هلكنا فى الأرض . وقال تعالى « الذين كفروا وصدّوا عن سبيل اللّه أضل أعمالهم » يعنى أهلكها . وقال تعالى « وضلوا عن سواء السّبيل » يعنى بذلك ذهبوا عن الحق، فلما لم يجز على اللّه تعالى أن يفعل الضّلال

الذى هو الذهاب عن الحق لأن ذلك كفر وعيب علمنا أن الضلال الذى يفعله الله هو الوجه الآخر وهو الهلاك .

* **مسألة** : فإن قال: فما معنى قوله عز وجل «من يضلل الله فلا هادى له » قيل له: من علم أنه يضل لم يكن له هاد . وكذلك قوله تعالى « من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم » من علم أنه يضل لم يهتد ومن علم أنه يهتدى لم يضل . وكذلك قوله تعالى « من يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام» الآية ، القول فى الكل واحد ، هذا عن أبى الحسن رحمه اللّه .

فصل

ويقال أنه تعالى يوفق المؤمنين لطاعته، ومعنى ذلك أنه فعل بهم فعلا اتفق لهم به فعل الإيمان . والتوفيق فى اللغة أن الشىء الذى هو توفيق له هو متفق به لصاحبه لا محالة، وذلك أنهم إذا قالوا وفق اللّه لنا لقاء فلان وهم قد لقوه وإذا لم يلقوه فإنما يقولون لم يوفق لنا لقاء فلان. ولا يجوز فى كلامهم أن يقول القائل وفق لى لقاء فلان، وهو لم يلقه، ولا أنه لم يوفق له لقاؤه وهو قد لقيه ، فصح هذا أن صفة التوفيق هى على ما وصفنا أن الفعل الذى هو توفيق له متفق لصاحبه لا محالة .

* **مسألة** : فإن قال أفتزعمون أن التوفيق يتقدم الطاعة التى هى توفيق لها. قيل له نعم، فإن قال أفتزعمون أن جميع النعم التى هى مع هذا الموفق هى توفيق. قيل له: بل لا نقول ذلك لأن كثيرا من النعم التى هى معه موجودة قبل هذه الطاعات بأوقات كبيرة فقد كان محتاجا معها إلى أن يوفقه الله تعالى لهذه

الطاعات، فعلمنا أن التوفيق الذى كان إليه محتاجاً مع هذه النعم المتقدمة هو غيرها، وهو لطف يحدث قبل الطاعات بوقت . فإن قال أفتزعمون التوفيق ثوابا قيل له لا لأن التوفيق لابد من أن يكون مجازا للطاعات، لم يجز أن يكون ثوابا، وأيضا فإن الثواب إنما هو ثواب على ما كان من الطاعات والتوفيق لا يكون توفيقا إلا للطاعات المستقبلية لأن هذا الدّاعى لا يجوز أن يقول اللهّم وفقنى لما سلف من طاعتك ، لأن هذا محال عند جماعة أهل اللغة . وإنما وجه الدّعاء عندهم فى ذلك جميعا أن يقول اللّهم تقبل منى ما سلف من طاعتك ووفقنى لطاعتك فى مستقبل عمرى . واغفر لى ما سلف فى معاصيك واعصمنى فى مستقبل عمرى من معاصيك ، والمغفرة والقبول هما الثواب لأنهما قد يوجدان بعد حال الطاعة والمعصية . والتوفيق والمعصية لا يكونان ثوابا لأن التوفيق هو توفيق للمستقبل من الطاعات والطّاعة المستقبلة تحتاج إليه . والعصمة هى عصمة من المعاصى المستقبلة ومن أجل المعاصى المستقبلة يحتاج إليها فصح أنهما لطفان من ألطاف الله تعالى وأنهما سميا باسم العصمة والتوفيق إذ كان المعلوم من شأن من يؤتاهما أنه يصلح بهما ويعتصم من معاصى الله عز وجل .

* **مسألة :** فإن قال أفليس ضد التوفيق عندكم الخذلان ، والخذلان عندكم عقوبة؟ قيل: لا، لأن الخذلان هو ضد النّصرة والنصرة من الله تعالى ثواب والخذلان عقاب . لأن الله لا ينصر الكافرين ولا يخذل المؤمنين، وأما التوفيق والعصمة فليستا من النصرة والخذلان فى شىء لأنّهما لفظتان على ما بيّنا من صفتهما . وأيضا فإن قول القائل عصم الله فلانا من معاصيه كلام صحيح ، فلو قال نصر الله فلانا من معاصيه أو على معاصيه أو على أن لا يعصيه لكان هذا

كلاماً محالاً لا معنى له ، فصح بهذا أن النصرة من اللّه تعالى غير العصمة .

فصل

ويقال أن اللّه تعالى مسدّد للمؤمنين ومرشد لهم ومصلح لهم ، ومعنى ذلك واحد إذا عنينا الصلاح الّذى هو الإيمان لأن الرشد هو الإيمان والصلاح هو الإيمان ، فإنما وصفنا اللّه تعالى بأنه أصلح المؤمن بأن أضفنا سدائده وصلاحه وإيمانه إلى اللّه تعالى إذ كان إنما نال ذلك باللّه عزّ وجل . وكذلك إنما وصفناه بأنه أرشد المؤمن بأن أضفنا إرشاده وإيمانه إلى اللّه تعالى . وكذلك وصفناه بأنه تعالى سدد المؤمن على هذه المعنى .

* **مسألة :** فإن قال فمتى تصفون اللّه تعالى بأنه أرشد ؟ قيل له نصفه تعالى بذلك فى وقت وجود هذا الرشاد ، وهذا السّداد ، وهذا الصّلاح من الإنسان ، كما إذا وصفناه من الهدى الذى هو الإيمان بأن هدى المؤمن فإنما نصفه بذلك فى حال وجود الإيمان . فإن قال: أفيجوز عندكم أن يرشد المؤمن من غير هذا المعنى الذى هو الإيمان . قيل له نعم . بأن يثيبه لأن الثواب رشاد . وقد روى لنا عن بعض فضلاء المسلمين من أصحاب رسول اللّه ﷺ أنّه قال فى شعر له

حتى يقولوا وقد مرّوا على جدثى   يا أرشد اللّه من غاز وقد رشدا

فقوله يا أرشد الله من غازٍ تدل على أنه إنما يدعو له بالثواب لأنه ميت فى القبر ، والميت لا يدعى له بأن يرزقه الله الإيمان . وقد يجوز أن يقال أن اللّه تعالى دل عباده المتعبدين إلى طاعته ، كما يقال هداهم جميعا إلى دينه ، بمعنى دلهم

على دينه، وإن كان الوجهان الأولان فى الإرشاد أوضح من هذا الوجه الثالث الّذى معناه الدّلالة . ولكن لا يقال أن اللّه تعالى يسدد المؤمن إلا على الوجه الواحد الّذى بينا لأن السّداد هو الاستقامة ، ولوجود التّوفيق من اللّه كان اللّه تعالى مسددا للمؤمن به .

فصل

ويقال إن اللّه تعالى يأبى الأشياء كما أنّه يريدها، والإباء فى اللّغة هو المنع لأن معنى قولنا أبى فلان أن يفعل أنه امتنع أن يفعل ، ومعنى قولنا أبى فلان أن يظلم معناه منع عن فلان ظلمه، وهذا موجود فى لغة العرب وأشعارهم . وقد روى عن أصحاب النبى ﷺ أنه قال يعنى الكفار :

وإن أرادوا ظلمنا أبينا

فليس يعنى بقوله أبينا كرهنا أن يظلمونا لأنه ليس فى هذا بمدح وإنما أراد إنما نمنعهم من ظلمنا إن أرادوا ذلك . ومعنى قول اللّه عزّ وجل ، يريدون أن يطفئوا نور اللّه بأفواههم ويأبي اللّه إلا أن يتم نوره ، أنّه يمنع الكفّار من إطفاء نوره فهذا معنى الآبى فى اللّغة .

وقال المفضل : يأبى اللّه إلا أن يتم نوره، أى يمتنع اللّه تعالى بقدرته إلا أن يتم نوره بإظهار الإسلام ونوره القرآن والإباء هاهنا الامتناع والعزّ . قال عبدة :

أبينا أبينا أن نصيب لماتكم على مرشفات كالظباء عواطبا

أى منعناكم من ذلك يقول منعناكم أن تسبوا نساءنا فيبتذلوهن بالنظر حتى يشتهوهن والمرشفات التى تديم النظرة ، واللمة مخففة الجماعة من الرجال والنساء.

ويقال أن اللّه تعالى ثابت كما يقال أن المقر به مثبت إلا أن هذا القول فى صفاته تعالى غير مستعمل . ومعنى ثابت أنه كائن موجود . ويقال إن للّه الملكوت والكبرياء ، ومعنى الكبرياء أنه تعالى كبير ، ومعنى الملكوت أنّه المالك. ويقال بأن اللّه تعالى وكيل علينا بمعنى أنه متول لأمورنا والقائم بحفظنا ، وتصريفنا فيما يريد، وهذا معنى الوكيل على المال منا لأنه القائم بحفظ ذلك ، ولا يجوز أن يقال أنه تعالى وكيل لنا .

* **مسألة :** فإن قال قائل: لِمَ لَمْ يجز هذا قيل له لأن معنى وكيل علينا قد بينا وجه جوازه ، ومعنى وكيل لنا غير معنى وكيل علينا . وذلك أن من كان وكيلا لنا لإقامتنا إياه فى ذلك ولأنه قام به بأمرنا فلما لم يجز أن يكون اللّه تعالى وكيلا بأمر من خلقه لم يجز أن يقال أنه وكيل لهم ، وإنما يصح أن يقال أنه وكيل عليهم كما قال اللّه تعالى ، وكان اللّه على كل شيء وكيلا ، فإن قال أفتزعمون أنكم تكونون وكلاء عليه كما تكونون متوكلين عليه قيل له: لا . لأن الوكيل ليس معناه التوكل لأن مصدر الوكيل الوكالة بمعنى الولاية. والمتوكل هو خلاف ذلك ، والمعنى فنحن نتوكل عليه ونعتمد عليه ، ومعنى ذلك واحد . وليس ذلك من معنى الوكالة فى شيء فلهذا لا يجوز أن يوصف تعالى بأنه متوكل علينا وصح له الوصف بأنه وكيل علينا . والقول بأنا نعتمد عليه ونركن إليه هو توسع لأن أصل الاعتماد هو اعتماد الرّجل على ما يعتمد عليه من شيء إذا مشى أو قام فجعلوا هذا المعنى فى معنى التوكل توسعا ، ولهذا سموا بعض الخلفاء بالمعتمد على اللّه . وكذلك الركون أصله من الاعتماد ويستعملان فى اللّه تعالى مجازا على ما بينا .

فصل

يقال أنه تعالى كفيل ومعناه أنه كفل العباد أنه ثبتهم على طاعته ومعنى أنه كفل بذلك أنه ضمنه والكفالة هي الضّمان . ويوصف بأنه راع وحارس كما وصف بأنه رقيب . وإن كان استعماله قليلا . وفي دعاء المسلمين رعاك اللّه وحرسك اللّه . فإذا كان هذا القول منهم صحيحاً فإن الاسم من رعاك راع ومن حرسك حارس . وإن كان استعماله قليلاً للاستغناء عنه بما يعرفه الناس .

ويوصف بأنه تعالى وحيد وفريد كما وصف بأنه واحد وأنه فرد لأن معناه معنى التوحيد إلا الفرد وحده فإن معناه القليل وليس معناه التوحيد ، فلا، ويدل عليه قول القائل: ما يكاد زيد بأسا إلا الفرد وهو كدأبه إلا قليلا .

* **مسألة** : اختلف النّاس في تسمية اللّه عزّ وجل أنه غيور فأجاز ذلك قوم واحتجوا بما روى عن النبي ﷺ أنه قال «ما أحد أغير من اللّه ، ومن أغير ممن حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ؟ » قالوا ومعنى قوله أغير أي أزجر من اللّه والغيرة من الله تعالى الزجر فاللّه تعالى غيور بمعنى زجور يزجر عن الحرام ويحظره ، ويتوعد عليه أشد الوعيد . ومنه ما روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « سعد ابن عبادة سيّدكم لغيور وأنا أغير منه والله أغير منّي » ، على معنى الزجر عن المعاصي . فأجاز من أجاز ذلك على هذا المعنى . ومنه ما روى أن بعض أزواج النبي ﷺ أهدت إليه شيئا في غير يومها فأخذت عائشة ذلك فنبذته وكسرت الإناء فقال ﷺ « غارت أمكم » أي زجرت عن إهداء ما أهدت . ولم يجز آخرون ذلك

وقالوا إن الصفة بذلك مجازا وتوسعاً، والمراد بذلك كراهته للفجور ، ولا تشابه لأن الغيرة هى جزع الرّجل والمرأة من أن يشارك أحدهما أحد . وهذا المعنى لا يجوز على اللّه تعالى ، يقال غار الرجل على أهله يغار غيرة . قال جرير :

أم مّن يغار على النساء حفيظة   إذ لا يثقن بغيرة الأزواج

والغار له فى الغيرة . والغيران الرجل الغيور والجمع الغير . وامرأة غيرى غيورة ، وقال :

يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غيرا   على نسائكمُ كسرى وما جمعا

فصل

ويقال أنه تعالى طاهر كما يوصف بأنه تقدس عن الأفعال القبيحة ، ويقال أنه يمكنه أن يفعل بمعنى أنّه قادر ، ويوصف بأنه بار بعباده لأن بره وفضله قد عمهم . ويوصف بأنه سار لأنه يسر أولياءه بدخول الجنة ، وبما يعطيهم من الثواب، فهو سار لهم بذلك ، وهذا هو حقيقة هذا الكلام ، أما وصف الناس لأولادهم إذا كانوا لما يريدون من الجمال أن لفلان ولداً ساراً فإن هذا لا يصح إلا مجازا لأنه ليس للولد فى ذلك فعل ، فيكون سارا على الحقيقة والسار على الحقيقة فاعل السرور فلهذا وجب أن يوصف اللّه تعالى به إذا فعل السرور بعباده .

ويوصف اللّه تعالى بالإبرام والتفضل على ما أطلق القرآن لأن إبرام الأمر هو إحكامه . والتفضل هو فضل من وصل شيئا حتى يجعله مفضلاً وهو وصف صحيح وإن كان استعماله فى صفاته تعالى قليلا ، ويقال أن الله أعرب كلامه ويقال أغفل وطبع .

ويقال: اللّهم إنى استجيرك ولا يقال اللّهم إنى أستشيرك ، ويقال أعوذ بالله ثم بك ، ولولا الله ثم فلان ، وقد اختلف فى صفة اللّه بالفراغ فقاله هلال بن عطية فى سيرته ولم يجزه أبو الحسن رحمه اللّه . ويأتى تفسير قوله تعالى « سنفرغ لكم » فى باب بعد هذا إن شاء اللّه .

ويقال رفع اللّه يده عن كذا وكذا . وسلط اللّه قوماً على قوم ، ويقال بصره فى الخلق نافذ وعلمه بهم محيط ، ويقال يسمع ويرى ، ويجوز عرف وتعرف ، ويقال بإله كل مألوه لأن المألوه هو العبد والإله هو اللّه لا إله إلا هو ، ويقال أنّه تعالى يسبب الأرزاق لعباده ، ويقال أن اللّه تعالى يعزم ثم يستثنى ، ويجوز أن يقال العزم لله ، والله المعزم على الخير. ويجوز على الله العزم الذى هو المطلع على كل شىء بعد الرؤية فيه ، وفى غيره، كما لا يجوز عليه الروية والفكرة ، وأما العزم الذى هو إيجاب فعل الشىء على غيرنا فهذا يوصف تعالى به ويستعمل فى صفاته لأنه يقال يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه ويقال: أتته عزيمة من ربه يعنى ما أوجب الله تعالى عليه ولم يرخص له في تركه ، والعزم غير الإرادة، وعن أبى الحسن رحمه اللّه فيمن قال عزم الله لنا بالخير قال لا أراه جائزا، قال بشير. يجوز أن يقال إن الله تعالى حال بين المؤمنين وبين الكفر. ومعنى ذلك أمرهم بالإيمان ونهاهم عن الكفر ، ويجوز أن يقال كل باللّه لاحق كما يقال كل إلى اللّه صائر استدلالاً بما ورد به الخبر عن الحسن أنه لما نزلت سورة النصر على النّبى ﷺ نعى الله إليه نفسه، فقال إذا كان ذلك فاعلم أنك لاحق بالله وأنك ميت ، فسبح باسم ربك. الآية ، وبما روى عن موسى أنه قال بلغنى أن جبريل أتاه ﷺ يوم الفتح فسلم عليه ثم خيره بين مفاتيح الدنيا ثوابا لما صنع أو اللّحاق باللّه إن شاء الله ،

فقال بل لحاق بالله يا جبريل ، خبر النّبى ﷺ أنه قال ، الخلق كلهم عيال الله فأحبهم إليه أحسنهم صنيعا إلى عياله ، فأخذه الشاعر فقال :

الخلق كلهم عيال الله تحت ظلاله   فأحبهم طرا إليه أبرهم بعياله

ويقال لم يزل الله سميعا ، وسامع من صفات الذات .

* **مسألة :** فإن قال قائل فلم يزل سميعا لماذا قيل له إن السّميع ليس بُعد يتعدى إلى مسموع فلا يلزمنا أن نقول أن اللّه لم يزل سميعا المسموع ، فإن قال أفتقولون إن الله لم يزل سامعا قيل له لا يجوز قول ذلك لأنه تعدى إلى مسموع والمسموع لا يكون مسموعا إلا وهو موجود، فلم يجز أن يقول لم يزل اللّه سامعا ، فإن قال فما أنكرتم أن يكون وصفكم له بأن سامعا ليس من صفات الذات إذ لم يجز أن يقولوا لم يزل سامعا قيل له لا يجوز أن يوصف بأنه سامع إلا لذاته لأنه لو وصف بذلك لسمع محدث لجاز أن يحدث المسموع ولا يحدث فلا يكون له سامعا ، فلما لم يجز ذلك صح أن الوصف له بأنه سامع إنما هو هو صفة وجبت له لذاته عند وجود المسموع ، فإن قال فلم قلتم إن سميعا لا تتعدى إلى مسموع ، وقد قال ، تعالى سميع الدعاء ، قيل له ليس معنى قولنا سميع الدعاء هو ما عنيناه بقولنا أنه سامع للدعاء مدرك له، وإنما معنى سميع الدعاء مجيب الدعاء فجعل قوله سميع مكان مجيب على التوسع ، ومنه قول المسلمين سمع الله لمن حمده ، ومعنى ذلك قبل الله منه هذا القول ، وكذلك سمع الله دعاءك ومعناه أجاب الله دعاءك . والله تعالى سامع على كل حال . أنشد أبو العباس عن ابن الأعرابى .

دعوت اللّه حتى خفت ألاّ   يكون اللّه يسمع ما أقول

معناه يجيب ما أقول ، وهذا يؤول معناه إلى القول . وأما القول فى وصف الله تعالى بأنه سميع وأنه سامع من صفات الذات فهو على ما بينا ، ويدل على أن السميع ليس يعدى إلى مسموع ، قول أهل اللغة للإنسان أنه سميع بصير، إذا لم يكن أعمى ولا أصم ، وكان إذا سمع المسموع سمعه وإذا وجد المبصر أبصره وإن لم يكن فى حال ما وصفوه بأنه سميع بصير بحضرته ما يسمعه ولا يبصره فلو كان الوصف له بأنه سميع تعدى إلى مسموع لم يكونوا يصفونه بذلك من غير أن يثبتوا له فى ذلك الوقت مسموعا .

فصل

ويوصف بأنه بصير وأنه لم يزل بصيرا وهو من صفات الذات ولا يجوز أن يقال لم يزل مبصرا لأنه لابد من أن يكون معدى إلى المبصر فلما لم يجز أن يكون المبصر إلا وهو موجود لم يجز أن يوصف الله تعالى بأنه مبصر له لأنه لا يكون مبصرا إلا وهو موجود .

* **فصل من كتاب :** ويقال ما أحسن هذا عند الله ، وما أقبح هذا عند الله والعند تأويله العلم والعند معنى غير العلم ، قال الله عز وجل « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » ما لديكم ينفد وما لديه مما أعد الله تعالى لأوليائه باق ، ويقال : قاسمت الله مالى ، ويقال جعلت هذا لله وأعطيت هذا لله . وأعطيت هذا لله أى التماس الرضى، ومعنى ذلك لولا الله ما أعطيت ومعنى أعطيت الله وأعطيت لله متقاربان ، ويقال: الله تعالى يبغض ويمقت وينتظر ويمهل ، ويستدرج ويترقب ،

قال الله تعالى: وانتظروا إنا منتظرون. وارتقبوا إنا مرتقبون ، وذلك على غير استبعاد ولا شيء يقال يبعد عليه .

ومنه يقال أنزل الله القرآن بعلمه ، بمعنى أنه أنزله وهو عالم وليس للباء هاهنا معنى ثانٍ ، وكذلك فعل بقدرته وبإرادته وبحكمه ، وأما ما كان للباء فيه معنى ثانٍ ، يقال عذبه الله بناره ، وأقام بدنه بالطعام ، فأمره بالطاعة وزجره بالقرآن فالباء فى هذا أجمع على غير استعانة وغير حاجة ، ومنه وقال الله تعالى علّم وأدّب والله تعالى معلمنا ومؤدبنا ، وفقّه. ولا أعلمهم يقولون الله المفقه ، وهذه أقرب من معلم ومودّب ، ويقال الله أقامنى وأقعدنى اللّه المقيم لى والله مقعدى ، ولا يجوز اللّه القائم لى ، ويقال الله عاصمى والعاصم لى والناصر لى ، ويقال الله تعالى جاء بى وذهب بى كما جاء الله بالمطر وجاء بالفرج وجاء بالسعة والخصب ، ويقال: لا جاء الله به . ويقال اللهم جئ به ، وكذلك جاء الله بك وذهب بك ، ويقال: الله تعالى رفع نفسه عن الظلم ، والله تعالى يجل عن هذا الأمر على ما قال عزّ وجل « وما ينبغى للرّحمن أن يتّخذ ولداً » ، ومنه ويقال لا يتعذر على الله تدبيره ، ولا أعلمهم يقولون لا يعييه شيء وليس يبعده .

وقد قال الله تعالى « أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر » وقال عزّ وجلّ « أفعيينا بالخلق الأوّل » وقال المفضل: كل ما لم يقدر عليه ولم يتوجه له فقد عيى به ، ويقال: لا يفدحه على ما قال ولا يئوده حفظهما يعنى لا يثقل عليه ، والفادح الثقيل ، وقال الطرماح .

ومثلك ناحت عليه النساء   لعظم مصيبته الفادحة

أى الثقيلة .

باب
ما لا يجوز من الصفات

ولا يجوز أن يقال إن الله تعالى متين ؛ لأن المتين فى حقيقة اللغة هو الثخين ، واللّه سبحانه وتعالى لا يوصف بالثخن ، وإنما قال إنه ذو القوة المتين توسعا ومبالغة فى وصف نفسه بالقوة. ولا يوصف بأنه شديد على الحقيقة لأن الشدة بمعنى الصلابة والله تعالى لايوصف بالصلابة ، فإن وجدت فى صفاته فى القرآن أو غيره أنه شديد فهو مجاز لكثرة استعمالهم فى القوة منا هذا القول على التوسع ولكن يجوز أن يوصف بأنه تعالى شديد العقاب وبما أشبه ذلك من صفات الأفعال لأن الشديد فى صفات الأفعال إنما هى للأفعال والشدة فى هذه الصفة هى لها لا لله عزّ وجل ..

* **مسألة :** فإن قال قائل: أفليس قد قال تعالى « أو لم يروا أنّ اللّه الذى خلقهم هو أشد منهم قوة » قيل له : بلى وهذا على التوسع والمجاز فى اللّغة ، فإن قال ولم قلتم أنه مجاز قيل له لو لم يكن مجازا لوجب أن يكون قوته شديدة وأن يكون قوته أقوى منا ولو لم يكن مجازا لأدى إلى الإحالة فصح لهذا أنه إنما ذكر هذا القول توسعا فى اللغة وأراد به أنه أقوى منهم وأقدر .

فصل

ولا يوصف تعالى بأنه موقن لأن اليقين هو العلم الذى يستدركه العالم بعد

الشك والارتياب ، أو بعد أن لم يعلم ، فيكون قد أيقن بذلك بعد أن كان فيه شاكا فلما لم يجز أن يكون الله تعالى يعلم من بعد شك لم يجز أن يقال أنه موقن ، وكذلك لا يقال أنه مستبصر لأن المستبصر فى الشىء هو من استبصر فيه بعد شك، فلما لم يجز الشك على الله تعالى لم يجز أن يقال أنه مستبصر ، وكذلك لا يقال أنه متحقق لأنه فى معنى مستبصر وموقن وهذا لا يوصف به أحد منا فى الشاهد إلا بعد أن كان شاكا فيما يحققه واستبصر فيه .

وكذلك لا يوصف بأنه يشعر بالأشياء ولا يفطن لأن من يشعر ويفطن بالأشياء هو الذى لم يكن علمها قبل ذلك والله تعالى لم يزل عالما بالأشياء فلا يجوز هذه الصفة عليه تعالى .

وكذلك لا يوصف بأنه يحس بالأشياء لأن الإحساس بالأشياء إنما هو أول ما يدرك من العلم بها فلما لم يجز على الله تعالى استدراك العلم شيئا بعد شىء إذ كان الله لم يزل عالما لم يجز عليه تعالى هذا الوصف . وكذلك لا يوصف تعالى بأنه يعقل بالأشياء كما يوصف بأنه يعلمها .

* **مسألة :** فإن قال قائل أو ليس العلم عندكم غير العقل؟ قيل له إنما سمى علمنا عقلا على التوسع تشبيها بالعقل الذى هو السد والمنع لأن علمنا بحسن الحسن وقبح القبيح هو منع لنا من ركوب القبيح وترك الحسن ، فسمى العلم علما عقلا من هذا الوجه توسعا وعلم الله سبحانه وتعالى لا يجوز أن يكون منعا له عن شىء لأنه لا يجوز على اللّه تعالى المنع كما لا يجوز أن يكون مُخلَّى لأن التخلية والمنع إنما تجوزان على من يتوق نفه إلى الأشياء فيمتنع من ذلك ويكف عنه بمثل ما

وصفنا، وهذا غير جائز على اللّه عز وجل فلم يجز أن يقال أنه عاقل .

* **مسألة** : فإن قال: فما أنكرتم أن يكون معنى هذه الصفات كلها معنى واحدا وإنما جاز أن يوصف بأنه عالم ولم يجز أن يوصف بأنه يعقل ويفطن ويحس، وإن كان معنى ذلك هو معنى العلم ، لأن الله تعالى لم يصف بذلك نفسه فى القرآن ولم يصفه بذلك رسوله ﷺ . قيل له: لو كان الأمر كذلك لوجب على أهل العقل من أهل اللغة أن يصفوه بجميع هذه الصفات من قبل أن يأتيهم الرسول ﷺ ومن قبل أن ينزل القرآن. كما كان عليهم أن يصفوه بأنه عالم بالأشياء من قبل أن يأتيهم الرّسول عليه السلام وينزل القرآن لأنهم يعرفون معانى هذه الصفات .

فصل

ولا يوصف تعالى بأنه يفهم الأشياء كما يوصف بأنه يعلمها لأن الفهم هو العلم بمعنى الكلام الذى يسمعه حتى يكون إذا سمعه لم يخف عليك معناه ، وكذلك الفقه إنما هو أن نفقه الكلام؛ ولهذا الأمر لا يوصف بالفهم إلا الكلام وحده ، وكذلك لا يوصف بالفقه إلا الكلام كما قال سبحانه وتعالى . « ووجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولا » فلما كان اللّه تعالى لم يزل عالما بالأشياء كلّها وبمعانيها لم يجز أن يوصف بأنه يعرف معنى الكلام إذا سمعه كما نوصف نحن بذلك ولا أنه يفهمه ولا أنه يفقه ولا أنه فهم ولا بأنه فقيه ولا يوصف تعالى بأنه يشم ويذوق لأن الشم هو استنشاق الجسم المشموم ودخوله فى الخياشيم ، ومماسة الخياشيم له ، والذوق هو مماسة الجسم المذوق للّسان واللهوات ، فلما لم يجز على اللّه تعالى مماسة الأجسام ولا مداخلتها إياه لم يجز عليه الشم والذوق ، ولا يوصف تعالى بأنه صبور

كما يوصف بأنه حليم لأن الصبور هو الذى يصبر على ما يؤلمه ويغمه ، وهذا معناه عندنا فى الشاهد، ولهذا كان ثواب الصبر عندنا من أعظم الثواب لأنه احتمال المكاره والصبر عليها ، فلما كان اللّه سبحانه وتعالى لا يحتاج فى أفعاله إلى احتيال تتم به أفعاله ومراده لم يجز أن يوصف عز وجل بالرِّفق ولا بالترفق ، وجاز أن يوصف العباد بذلك لحاجتهم فى أفعالهم إلى الاحتيال لها والسبب إليها ، ولا يوصف بأنه تعالى فاضل ولكنه مفضل بما يفعل من الفضل على غيره ، ولا يجوز أن يفضل هو بذلك لأنه مستغن عن الأفعال أن يفضل بها .

ولا يوصف تعالى بأنه كامل لأن الكامل منا هو الّذى تمت أبعاضه والناقص هو الذى نقصت أبعاضه عن أبعاض الكامل منا ، وكذلك الكامل فى خصاله منا نحو كمال الرجل فى علمه وعقله ورأيه وقوته وفصاحته وسماحته إنما يصير بهذه الخصال كاملاً لتكامل خصاله هذه وتمامها، ويكون ناقصاً عن حدّ الكمال بنقصان هذه الحال فلما كان اللّه سبحانه وتعالى لا يجوز أن يوصف بالأبعاض لم يجز أن يوصف بالكمال فى ذاته ولا بالنقصان ، ولما لم يجز أن يشرف بأفعاله لم يجز أن يوصف بالكمال من جهة الأفعال كما يوصف الإنسان بذلك، ولا يجوز أيضا أن يوصف تعالى بأنه تام وأنه وافر لأن تأويلهما تأويل الكامل فلهذا لم تجز هذه الصفات عليه عز وجل .

ولا يجوز عليه تعالى التبعيض ولا الكل ولا التفريق ولا التأليف. ولا يوصف تعالى بأنه شجاع لأن الشجاعة إنما هى من الجسارة على المكاره والأمور المخوفة، فلما كان الله عز وجل لا يجوز أن يخاف شيئا ولا أن يحذره لم نجز أن يوصف بالشجاعة ولا بالجراءة ولا يوصف تعالى بأنه وزير ولا مساعد لأحد من خلقه ،

ولأنهم وزراء له لأن تأويل الوزير هو أنه وازر صاحبه ، ومعنى المؤزارة أن كل واحد منهما شد إزاره مع صاحبه ليعينه على ما هو فيه ، ومن شد الإزار اشتق له اسم المؤزارة لأن العرب كانت إذا تواردت فعلت هذه الفعل وشدت على أنفسها الإزار. فلما لم يجز على الله تعالى هذا المعنى لم يجز أن يكون وزيراً لأحد من خلقه وأوليائه ولا أن يكون له وزير منهم وكذلك المساعد إنما تأويله فى اللغة هو أن يجعل ساعده ويده فى الأمر الذى جعل فيه صاحبه ساعده فقالوا لمن بايع صاحبه على الأمر ساعده من هذا المعنى فهاتان الصفتان لاتجوزان على الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا .

فكل اسم أو صفَة لم يكن من جهة الحقائق وكان من جهة المجاز ولم تجد أهل اللغة قد سموه تعالى بهما لم تجز تسميته عز وجل بهما إذ كانا لم يجوزا من جهة الحقيقة ، ولا يسمى بهما تعالى فى اللغة، ولا يقال بأنه تعالى يجرب عباده كما يمتحن عباده إذ كان معنى الامتحان فى اللغة هو معنى التجربة لأن القول بأنه يمتحن توسعا لوجود ذلك فى اللغة ، ولولا جوازه فى اللغة لم يجز القول به فكيف يجوز أن يقال أنه يجرب ولم يجز ذلك فى اللغة مجازا ولا حقيقة، والمجازات لايجوز أن يقاس عليها فى صفاته وإنما يتكلم بها فى الموضع الذى يجدها مستعملة فيه فقط، ولا يوصف تعالى بالسكوت ولا بالترك على الحقيقة لأن الترك هو كف النفس عن الفعل الذى تتركه ، وضبط النفس عن ذلك فلما كان الله سبحانه وتعالى لاتحل أفعاله فيه لم يجز أن يكف نفسه عنها ولم يجز أن يكون تاركا لها. ولا يوصف تعالى بأنه ناطق لأن النطق إنما هو الصوت لا الكلام ، ودليل ذلك قوله تعالى ، علمنا منطق الطير ، وقد علمنا أن الطير لاتتكلم لأنه لو كان نطقها كلاما

لفهمناه نحن إذا سمعناه لأنا نفهم الكلام، فلما كانت أصوات الطير بخلاف الكلام الذى نفهم صح أن منطق الطير إنما هو صوت ليس هو بكلام ، فلم نجز على الله النطق أو جاز عليه الكلام. وأيضا فإن النطق هو مثل الصياح والصراخ، وذلك لو أن رجلا ضرب فصاح وصرخ لم يقل أنه لم ينطق ولو أنه سكت فلم يصرخ ولم يصح لقيل إنه لم ينطق ، فلما لم يجز على الله الصياح ولا الصراخ إذ كان ذلك إنما يجوز على المخلوق الذى يحل صياحه وصراخه ، ولم يكن من جنس الكلام فإن وجدنا فى بعض الكلام ما يدل على أن الكلام نطق فإن ذلك محمول على المجاز دون الحقيقة. ولا يوصف تعالى بأنه فصيح لأن الفصيح فى اللغة إنما هو الكلام الذى يفصح عن المعنى ويوضحه فكلام الله فصيح وإنما وصفهم القائل بأنه فصيح وإنما هو توسع فلا يجوز أن يوصف الله تعالى بذلك لأنا لم نجده فى صفاته فنصفه به على التوسع ، ولكن كلامه بأنه فصيح على جهة الحقيقة، وربما قال القائل فلان فصيح اللسان ، وهو يريد أنه ذرب اللسان وليس من الفصاحة فى شيء لأنه رب ذرب اللسان يكون كلامه فاسدا فلا يكون فصيح الكلام، وربما كان الشاعر والمتكلم فى لسانه لكنة .

ولا يوصف تعالى بأنه بليغ ولكن يوصف كلامه بأنه بليغ لأن البلاغة إنما هى للقول على الحقيقة لا للقائل. وهو القول الذى بلغ له المخاطب من فهم معناه ماأراده القائل فلما لم يوصف القائل منا بأنه بليغ على الحقيقة ولم يجد فى صفات الله عزّ وجلّ أنه بليغ على المجاز لم يجز أن يوصف الله تعالى بأنه بليغ ، ولكن كلامه بأنه بليغ على الحقيقة، ويدل على أن البليغ هو القول على الحقيقة قوله عز ذكره « حكمة بالغة فما تغنى النذر » والبالغ هو البليغ، يقال رجل بليغ وبلغ ولا

يوصف تعالى بأنه خطيب لأن الخطيب هو الذى يخطب على من يسمع خطبته ، فلما كان هذا المعنى من الله تعالى غير موجود لم يجز أن يوصف بأنه خطيب. ولا يوصف بأنه لم يزل متكلما لأن القول بذلك إثبات الكلام قديما معه وقد أجاز ذلك بعض أصحابنا، قال أبو محمد قال أبو مالك يجوز أن يقال لم يزل المتكلم . وقال أبو محمد أن بعض المتكلمين أجاز أن يقال : لم يزل مكلما لمتكلم سيكون ، كما جاز أن يقال لم يزل إلها لمألوه سيكون ، وربا أي لمربوب ومملوك سيكون ، هذان الآخران جائزان فى قولنا . قال أبو محمد: يعجبنى ما قال فى الكلام أنه مثلهما وفيه نظر . ولا يوصف تعالى بأنه مليح ولا حسن ولا بأنه جميل .

* **مسألة** : فإن قال قائل ولم لا يوصف تعالى بذلك؟ قيل له إن الحسن الجميل هو على ضربين ، فضرب منه أن يكون حسناً جميلا فى المنظر لمن يراه والله تعالى لايجوز عليه الرؤية فلا يجوز أن يكون حسنا جميلا فى المنظر وأيضا فإن الحسن والجمال يحلان فى الشاهد فى المحسن الذى هو فى المنظر حسن وفى مكانه الذى فيه ذلك الحسن فلما لم يجز أن يحل اللّه فى الحسن والجمال ولم يكن له مكان فيحل حسنه وجماله فى مكانه لم يجز أن يوصف تعالى بأنه حسن جميل من جهة حسن المنظر ، والوجه الآخر من الحسن والجمال هو أن يكون حسنا جميلا فى العقول كما أن الحكمة والصلاح والصواب والعدل حسنة جميلة فى العقول، وأضدادها من الفساد قبيحة ، فلما كان الله عزّ وجل لا يتصور للعقول كتصور ما وصفنا من الحكمة والعدل وغيره لم يجز أن تستحسنه العقول كاستحسانها لهذه الأشياء ، فيصح بهذا أنه لا يجوز أن يوصف تعالى بالحسن ولا بالجمال، ولكن يوصف تعالى بأنه حسن الصنع إلى عباده وأنه جميل الفعل فيكون الحسن والجمال لأفعاله لا له عز وجل .

وقال الأشعرى : روى أبو سعيد عن النبى ﷺ أنه قال: إن الله جميل يحب الجمال ، قال: ومعنى جميل أى مجمل كما يقال حكيم فى معنى محكم ، والعرب كثيرا ما تخرج لفظة فعيل بمعنى مفعل فالجميل بمعنى المجمل بالشيء .

قال: ويوضح هذا ، ما روى عن أبى بكر بن عبد اللّه أنه كان يتجمل بالثياب ويتطيب فقيل له فى ذلك فقال إن اللّه تعالى جميل يحب الجمال منى . فالله أعلم بصحة الخبر وتأويله .

فصل

ولا يوصف تعالى بأنه نبيل لأن النبل عند أهل اللغة إنما هو الحسن والجمال مع صيانة النفس وتكامل الخلال المحمودة فلما كان اللّه سبحانه وتعالى لا تجوز عليه الأحوال ولم يجز أن يفضل وأن ينبل بأفعاله ولا يتكامل بالخلال كما ينبل النبيل منا لم يجز أن يوصف بأنه نبيل ، ولا يوصف بأنه حاذق لأن الحذق أصله فى اللغة القطع يقال سكين حاذق يراد أنه قاطع ، قال أبو ذؤيب :

يُرى ناصحا مما بدا فإذا خلا فذلك سكين على الخلق حاذق

وخل حاذق شديد الحموضة كأنه يقطع. وإنما يقال حذق فلان هذا الشيء يراد أنه حاذق ولا يجوز أن يقال أنه قد حذق، ولا يوصف تعالى بأنه ذكى لأن الذكاء هو حدة القلب وسرعة تقلبه، فلما لم يجز على اللّه حدة القلب إذ ليس بذى قلب. وصبى ذكى إذا كان سريع الفطنة. والعقل ذكى يذكى ذكى، ويقال ذكا يذكو ذكاء.

ولا يوصف تعالى بالذرابة لأن الذرابة هى خفة اللسان وسرعته فى التحول

للكلام كما أن الذكاء هو حدة القلب وسرعة تقلبه ، فلما لم يكن اللّه تعالى ذا لسان لم يجـز أن يوصف بالذرابة ، والذرب الحـادّ من كل شيء ، لسـان ذرب وسنان ذرب، وطعام مذروب ، وفعله ذرب ذربا وذرابة ، وقوم ذرب بينو الذّرابة .

وقيل أن أعرابيا جاء إلى النّبى ﷺ فشكا إليه امرأته ، فقال :

إليك أشكوا ذربة من الذرب   يا مالك الملك ودّيان العرب

ويقال إنى لقيت ذربة من الذرب ، يعنى سليطة من النساء ، فقال النّبىّ ﷺ ، ذلك اللّه عزّ وجل . ولا يوصف تعالى بأنه يصف الأشياء على معنى أنه يعلمها كوصفنا لأنفسنا بالحفظ لما علمناه من القرآن وغيره؛ لأن وصفنا لأنفسنا بذلك توسعا ومجازا ، ومرادنا فى ذلك أنا إذا علمنا لم يذهب عنا فلما كان الوصف لنا بالحفظ من هذا المعنى مجازا لم يجز أن يوصف اللّه تعالى فإنه حافظ للأشياء على معنى أنه يعلمها وإنما يوصف بحفظ الأشياء على معنى الحفظ المعقول فى الشاهد بأن يصرف عنا الذهاب والضرر والفساد .

ولا يوصف تعالى بأنه يضحك لأن الضحك فى اللغة هو هذا الضحك المعقول وهو الايضاح والإشراق فليس من ذلك شيء يجوز على الله تعالى ، لأن الضحك فى معنى الانفتاح هو ما روى أنه لو وهب لبعض عبيده ما ضحكت عنه أصداف البحر ، وكذلك قول الآخر .

كل يوم بأقحوان جديد   تضحك الأرض من بكاء السماء

يعنى تنفتح بالنبات بما يصيبها من المطر .

وقول الآخر :

إن السمــاء إذا لم تبـك مقلتــها   لم تضحك الأرض فى شىء من الخضر

وأنشد ابن الأعرابى :

أما ترى الأرض قد أعطتك زهرتها   بخضرة واكتسى بالنور عاريها

وللسمـــاء بكـــاء فـــى جوانبـــها   ولـلـربيـع ابتـسام فـى نواحيها

وقال آخر فى الإشراق :

يضاحك الشمس منها كوكب شرق   مـؤزر بعميـم النبت مكتــهل

يعنى يضـاحك إشراقه ونوره عند طلوع الشمس عليه، فلا يـجوز على اللّه الإشراق والنصيص والانفتـاح والضـحك الذى نعـرفه من العبـاد ، وقـد تـأول قـوم الضحك من الله تعالى على خلاف هذا الضحك المعقول من الناس ، وليس لإجازة من أجاز الضحك على اللّه تعالى معنى يجوز عليه عزّ وجل، وإنما يجوز أن يقال أنه ضحك غيره بما يفعله من الخير ولا يقال ضحك هو تعالى اللّه عن ذلك علواً كبيرا.

ولا يوصـف تعالى بالفرح على ما جاء به الخبـر عن النعمان بن بشير أن النّبى ﷺ قال « لله أفرح بتوبة العبد من العبد إذا ضلت راحلته فى أرض فلاة فى يوم قيظ وعليها زاده ومزاده » الخبر؛ لأن الفرح إنما يجوز على من يجوز عليه الغم، ومن تصل إليه المنافع والمضار ، وهذا لا يجوز على اللّه تعالى، وإنما يوصـف بذلك توسعاً والمراد به أنه مريد لتوبة عبده وكاره لإصراره على ذنوبه .

والفرح فى كلام العرب على وجوه منها ، معنى السّرور ، ومنه قوله تعالى: « وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف » أى سروا بها وهذا الوصف لا يجوز على اللّه

تعالى لأن ذلك خفة تعترى الإنسان إذا كبر قدر شيء عنده لمنفعة فيه عاجلا أو آجلا ، وكل هذا منفى عنه جلّ جلاله .

ومنه الفرح بمعنى البطر والأشر ومنه « إن الله لا يحب الفرحين » وقوله تعالى : « لفرح فخور » ومنه قول الشاعر :

ولست بمفراح إذا الدهر سر لى   ولا جازع من صرفه المتقلب

أى لست بأشر ولا بطر .

ومنه الفرح بمعنى الرضى . ومنه قوله تعالى « كل حزب بما لديهم فرحون » أى راضون ، فمعنى قوله « الله أفرح » أى أرضى والرضى من صفات اللّه عزّ وجل لأن الرضى هو القبول للشيء والفرح له ، والله تعالى قابل الإيمان فيجوز وصفه عزّ وجل بذلك ، هذا قول الأشعرى . وقال المفضل أبو عبيدة ، فى قوله تعالى « لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين » معناه لا تأشر ولا تمرح، وهو واحد ، والفرح السرور والفرح البطر .

وقال ابن أحمر :

ولا ينسينى الحدثان عرضى   ولا ألقى من الفرح الإزارا

يقول: لا أجزع من الحدثان حتى أخرج إلى ما ينكر منى ، ولا يستخفنى الفرح حتى ألقى إزارى فتظهر عورتى .

ويقال فرح به فهو فرح وفارح ، قال الفراء : الفرح الذى هو فى وقته فرح والفارح الذى يفرح فيما يستقبل مثل طمع وطامع ، وأنشد :

فما أنا من رزء وإن جل جازع   ولا بسرور بعد موتك فارح

ولا يقال إن الله تعالى عجب من كذا لأن التعجب إنما يحدث ممن لم يعلم شيئا ثم علمه فعجب عند ذلك مما علم ، والله عزّ وجلّ لم يزل عالماً بالأشياء ، فلا يجوز أن يعلم منها ما لم يكن علمه فيعجب منه ، وقد رويت أخبار كثيرة فى تعجب الله عزّ وجل فسرها الأشعرى ، منها ما روى من قوله ﷺ ثلاثة تعجب الله إليهم القوم إذا اصطفوا فى الصلاة والقوم إذا اصطفوا لقتال المشركين ، ورجل يقوم إلى الصّلاة فى جوف اللّيل .

ومنها خبر زيد بن ثابت الأنصارى ، وضيفه أبى هريرة فقال ﷺ : لقد عجب اللّه من ضيفكما البارحة وأنزل فيهما « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» قال الأشعرى إن الناس قد اختلفوا فى معنى العجب من الله عزّ وجل ، فقال معنى عجبه أى عظم ذلك عنده ، ومنه قوله تعالى « بل عجبت ويسخرون » أى بل عظم أمرهم ، وقال آخرون معنى عجب : رضى وأثاب ، فسماه عجبا وليس بعجب فى الحقيقة ، كقوله تعالى « ويمكر اللّه » وإن كان المكر منفيا عنه جلّ جلاله، وقال بعض أهل الفقه معنى قوله تعالى « بل عجبت ويسخرون » أى جاريتهم على عجبهم لأنّهم عجبوا من الحق فى غير موضع ، فقال تعالى بل عجبت أى جاريتهم على تعجبهم لأن جزاء الشىء يسمى باسمه ، كقوله تعالى «ومكروا ومكر اللّه » ويسخرون منهم سخر اللّه منهم ، والله تعالى لا يمكر ولا يسخر وإنما هو على ما يسمى العرب جزاء الشىء باسم المجازى والمجازى به ، قال شقيق: قرأت عند شرح « بل عجبت ويسخرون » فقال إن الله تعالى لا يعجب من شىء وإنما يعجب من لا يعلم ، قال فذكرت ذلك لإبراهيم فقال إن شريحا شاعر يعجبه علمه ، وعبد اللّه بن مسعود كان يقرأ « بل عجبت » ، وقال بعض البصريين بل

عجبت بالضم، ذهب إلى أن العجب لمحمّد ﷺ ، وفيه إضمار قول معناه قل يا محمّد بل عجبت أنا من قدرة الله، فأضمر القول لدلالة الكلام عليه ، وقال بعضهم هذه الأحاديث فى العجب نقلت مصحفة وإنما هو عجّب بتشديد الجيم أى عجّب ربنا تعالى ملائكته من هؤلاء الثلاثة فتعجب الملائكة من صنيعهم، وكذلك قالوا فى قوله ضحّك ربنا ملائكته من أفعالهم بتشديد الحاء وفتحها أى أضحكها من صنيع عباده، وضحك يجوز أن يجىء بمعنى أضحك لأن فعل يجىء فى لسان العرب بمعنى أفعل نحو ضاء القمر وأضاء وصبر الفرس صبرا وأصبر إصباراً إذا جمع قوائمه ووثب، وضررت الرجل وأضررت به وضربت عن الشىء وأضربت عنه إذا أعرضت عنه، وصعت الناقة وأصعت إذا استمتت الفحل، هذا كله قول الأشعرى .

ولا يقال إن الله تعالى يهجر المعاصى كما يقال يكرهها ويسخطها؛ لأن هجراننا الشىء هو الانقطاع عنه وترك الاتصال به ، وربما كان ذلك ترك الكلام لمن يهاجره وتركا لمجالسته ومقاربته ، وهذه المعانى لا تجوز على الله تعالى ، أن نفعلها بالمعاصى ، وإنما قيل أن انفصل الهجرة أن تهجر ما كره الله ، فإذا كان أصله فى النّاس توسعاً لم يجز أن يوصف الله تعالى بذلك إلا بعد أن يجد الناس قد توسعوا فى اللغة فى صفته تعالى، فأما إذا لم نجد من ذلك فى صفاته عزّ وجلّ ، فلا يجوز استعماله إذا كان لا يجب من جهة الحقيقة ، لا يقال أنه تعالى زكى لأن معناه أنه بلغ حدا لم يكن بلغه قبل ذلك، وكالزّرع وهذا لا يجوز عليه تعالى، وإنما قيل للإنسان أنه زكى لأنه بلغ مقدارا بعلمه لم يكن بلغه قبل ذلك ، ولا يقال أنه نظيف لأن النظيف هو المنظف وهو المغسول وهذا لا يجوز على الله عزّ وجل ، ولا يقال أنه عزّ وجلّ يطيق أن يفعل كذا لأن الطاقة معناها الجهد ، وذلك أنّه يقول

القائل طقت ذلك جهدى ، فلما أن كانت الطاقة استفراغ الجهد فما يطيقه الإنسان لم يجز أن يوصف عزّ وجل بذلك ، وجاز أن يوصف بغيره الذى معناه أنه قادر .

وقد اختلف القراء والمفسرون فى قوله عزّ وجلّ « هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السّماء » فقر ابن عبّاس وعائشة رحمهما اللّه « هل تستطيع ربّك » بالتاء ونصب ربك ، وروى عن عائشة رضى اللّه عنها ، أنها قالت: كانوا أعلم باللّه من أن يقولوا هل يستطيع ربك ، إنما قالوا هل تستطيع أنت ربك ، وكذا رويت عن سعيد بن جبير ، وقال: هل تستطيع أن تسأل ربك ، ورويت هذه القراءة عن علىّ ومعاذ بن جبل والكسائى ، وذكر الفراء أن معاذا قال أقرأنى رسول اللّه ﷺ ، هل تستطيع ربك بالتاء، وقرأ كثير منهم بالتاء ، قال بعضهم على أشد ما يرون ، وقال بعضهم: هل يستجيب ربك ، هل يطيعك ربك ، قال المفضل : ولم يجتمع القراء على التاء وهم على خطأ بل هم على صواب والحمد للّه .

وذلك أن الطاعة على وجهين فالطاعّة الإيصاد والزلة يقال طاع له طوعا وأطاعه يطيعه إطاعة ، والطاعة الإجابة ومنه قولهم قد أطعتك فيما سألت أى أجبتك، ومنه قوله تعالى « ائتيا طوعاً أو كرهاً » أى مجيبتين إلى ما أمرتما أو كارهتين، ومنه قوله جلّ ثناؤه « من حميم ولا شفيع يطاع » أى يجاب إذا سأل فعلى معنى الإجابة تصح القراءة بالياء أى هل يجيب ربك إذا سألته وإنما المكروه أن يتأول يستطيع على معنى يقدر. الاستطاعة هى القدرة والقوة على الشىء. ولا يقال أنه تعالى يطمئن إلى أنبيائه وملائكته ويثق بهم ويركن إليهم لأن الاطمئنان إلى الشىء والثقة به والركون إليه إنما هو بمنزلة السكون إليه ، وهو ضد النفور عنه ، والتهمة له ، فلما كان لا يجوز على اللّه عزّ وجل النفور عن الأشياء ولا التهمة لها

لأن هذا إنما يجوز على من لا يعلم ما يكون ولا يحيط بالأشياء علما، فصح أن ذلك لا يجوز على الله عزّ وجلّ ، ولا يقال أنه تعالى ذخر ولا أنه سند ، وذلك أن الذخر هو ما ذخره الإنسان والسند هو ما يسند الإنسان إليه ظهره ، والله يتعالى عن ذلك علوّا كبيراً .

فإن قيل: هذا في صفاته تعالى فإنما هو مجاز ومعناه ليس بحقيقة . وهذا لا يجب له من جهة الحقيقة إلا أن يكون قد استعمل الناس ذلك مجازا فيستعمله معهم.

فصل

لا يجوز أن يقال الله خير من كذا وكذا وهذه صفة ذات، وإن قيل الله تعالى خير أفعال منك فجائز ، قال الحسن في قوله تعالى « والله خير وأبقى » خير منك يا فرعون ثواباً وأبقى عقابا ، ولا يقال كذا وكذا دون الله بمعنى التفاضل والخيار لأن الخيار لا يقع إلا بين الأجناس ألا ترى أنه يقال فلان أحسن من فلان وخير من فلان يراد أنه أصلح منه لأنهم جنس واحد، وهذا لا يجوز على الله تعالى وعزّ ذكره ليس بذي جنس ولا هو من جنس غيره ولا يقع الخيار بينه وبين غيره .

* **مسألة** : فإن اعتل معتل بقوله عز ذكره « واتخذوا من دون الله آلهة » فقد قال بعض اتخذوا عبادة الأصنام ليعتزوا بذلك وهي دون عبادة الله تعالى كما قال عزّ وجلّ « أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير » وقد قال « اتخذوا من دون الله آلهة » قدمهم بذلك لا أنهم دونه في المسافة، هذا غير جائز على الله تعالى ، ألا ترى أنه لا يجوز أن يقال خير الشعر أو القرآن لأن القرآن؛ ليس من الشّعر في

شيء ، ولو جاز أن يقال إنما خير القرآن والشعر لجاز أن يقال إنما خير اللّه أو الشّاعر، فلما بطل الخيار بين اللّه تعالى والشّاعر فسد الخيار بين القرآن والشّعر ، واللّه تعالى ليس كمثله شيء ، ولا يشبهه شيء من خلقه ، وكذلك فعله لا يشبه شيئا من فعل خلقه ، فإن اعتل أحد بقوله « يا صاحبى السّجن أ أرباب متفرقون خيرٌ أم اللّه الواحد القهار » فالمراد فى ذلك يا صاحبى السّجن عبادتكم لغير اللّه خير أم عبادة اللّه ، ألا ترى إلى قوله تعالى « إلا أسماءً سميتموها أنتم وآباؤكم » إلى قوله تعالى « أمر ألا تعبدو إلا أياه ، ذلك الدّين القيم » فأخبر تعالى أن عبادة اللّه عزّ وجلّ خير من عبادة غيره ، فإن قال فقد قال « من جاء بالحسنة فله خير منها » قيل له إنما عنى من فعل فعلا كوفيء بأكثر مما يستحقه لا بأن يجازى بفعل غيره .

فصل

قال مجاهد: لا يقولن أحدكم: الله حيث كان، فإن حيث فى مكان معلوم، ولكنه بكل مكان .

قال أبو عبيدة رحمه اللّه: لا يقال كان الله ولا شيء ولكن يقال لم يزل اللّه ولا شيء ، وقيل إنه جائز . فالله أعلم .

ولا يقال: لم فعل ربّك كذا وكذا لأنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، ولا يجوز فيه كيف ولا ما ولا أين لأن كل ما يجوز فيه الأين فهو بمكان والمكان أقوى منه لأن المكان يحمله والحامل أقوى من المحمول .

خبر

روى أبو رزين ، قلت: يا رسول الله أين كان ربّنا قبل أن يخلق خلقه ؟ وفى خبر قبل أن يخلق السموات والأرض ، فقال ﷺ كان فى غماء، ماء تحته هواء وما فوقه هواء ثم خلق عرشه على الماء .

قال أبو عبيدة الغماء بالمد السحاب ، ويقال هو الرقيق منه ، قال الشاعر :

درعنا به سرفا يضاء جلوده　　كنجم الثريا أشرقت من غمائها

قال الأشعرى من روى هذا الخبر فى الغماء بالمد فمعناه كان القديم تعالى فوق السحاب مدبرا له وعاليا عليه ، وقوله ما فوقه هواء أى ماء فوق السحاب . وكذلك قوله ماء تحته هواء ، وقوله ﷺ كان فى غماء أى كان على السحاب أى فوقه ، كما قال « فسيحوا فى الأرض » أى على الأرض ومثله كثير. وحروف الجر يدخل بعضها فى بعض . قال عز وجل « ولأصلّبنكم فى جذوع النخل » بمعنى على جذوع النخل . قال الشاعر :

هم صلّبوا العبْدى فى جذع نخلة　　فلا عطشت شيبان إلا بأجذعا

بمعنى على جذع نخلة .

ومن روى فى عمى مقصور فهو فى الغمى بمعنى الاشتباه وأنشد ثعلب :

تمام العمى طول السكوت وإنما　　شفاء العمى يوما سؤالك من يدرى

فمعنى العمى أنه لا شيء ثابت ، وكأنه قال فى جوابه عليه السلام أنه كان تعالى قبل أن يخلق خلقه فى غير شيء ، فمحصول جوابه أنه كان عزّ وجل فى

لا شيء إذ لم يخلق شيئا بعد . وقوله كان فى عمى تشبه منه ﷺ لمن هو لا شيء، أن يعمى أمر فيه . هذا عن الأشعرى .

فصل

لا يقال: اللّه عزّ وجل مستبصر ولا متحقق ولا موقن . ولا يجوز لم يزل حليما دون أن يقال لم يزل حليما عن العصاة منذ عصوا . ولا يقال أنه عتيق كما يقال أنه قديم والفرق بينهما أن القديم المتقدم بالأشياء لا يجرى عليه الحدوث والعتيق الذى يجرى عليه الحدوث. ولا يقال أنه يعقل ولا أنه يدرى. والدراية هى العلم، وأما العقل فهو الذى يعقل الأشياء كما يعقل الناقة ، ولم يره سليمان بن عثمان. وأمّا موسى بن على ومحمد بن محبوب وكافة الفقهاء فرأوه جائزا، والدليل على العالم أنه يخلق الأشياء بكيفيتها وكمالها بإيقاعها والجاهل بالأشياء يقع منه الأفعال مختلفة، ولا يستعمل يدرى مع جوازه إلا قليلا ، وقال بعضهم: أنت السميع وأنت الدارى .

وقال الآخر :

لا هُم لا أدرى وأنت الدارى

* **مسألة :** قال أبو محمد رحمه اللّه: لا يجوز أن يقال ما أبصر الله بعباده وما أعلم الله بعباده أو ما أقدر اللّه أو ما أحكم اللّه بعباده أو نحو هذا من صفات الذات ، لا يجوز أن يقال على سبيل التعجّب .

وعن أبى محمّد حيان: أنه لا يجوز أن يقال ما أكرم الله وما ألطفه وما أحكمه وما أشبه هذا لأنه تعجب والتعجب عن الله تعالى منفى .

وفى بعض الكتب أن التعجب جائز فى الأفعال ولا يجوز فى صفات الذات ، يجوز أن يقال ما أحسن صنع اللّه وتدبيره ولا يجوز أن يقال ما أحسن علم اللّه وقدرة اللّه وعزة اللّه ، وأن اللّه لحسن العلم والعزة والقدرة ، هذا لا يجوز لأنها صفات اللّه وما أحسن فى الأفعال مدح وتعظيم وفى الذّات تصغير . واللّه أعلم بالصواب .

ويقوى هذا القول قول أبى محمّد رحمه اللّه أنه لا يجوز التعجب فى صفات الذات فاختصاصه لصفات الذات دون الأفعال دليل على إجازة التعجب فى الأفعال لأنّه لو كان لا يجوز فى الجميع لما خص صفة دون صفة ، واللّه أعلم .

وقد يوجد التعجب فى الأفعال كثيرا وهو على جهة التعظيم والتكبير ، وقد جاء عن جعفر النحوى النحاس أن أبا العبّاس زعم أن معنى قولك ما أعظم اللّه شىء فى عينى ، قال وقال أبو إسحاق: هذا عندى غلط والمعنى عندى شىء نبهنى على عظمة اللّه حتّى عظمته جلّ وعزّ .

ونظير هذا أن ينبهك الرجل على ذكر إنسان فيقول لك: اذكر فلانا ، فتقول ذكرنى فلان فلانا ، نبهنى على ذكره حتى ذكرته ، وكذلك قولك ما أعظم اللّه .. وعن على أنه مرّ برحبة القصابين فسمع رجلا يقول: والذى احتجب بسبع سموات ، فعلاه بالدرة ، وقال : ويحك إن اللّه لا يحجبه شىء عن شىء . قال أفأكفر عن يمينى يا أمير المؤمنين: قال : لا ، لأنك حلفت بغير اللّه عزّ وجل .

فصل

لا يقال فى صفة اللّه عزّ وجلّ المتعزز ولا المتجبر ولا يقال المفتخر ولا افتخر لأن الافتخار لا يكون إلا بين النظيرين المتضادين ، ولا يقال يستمع ، ولا يقال أعرض اللّه عنك ، ولا يجوز أن يقال أقبل اللّه إليك ، ولا يجوز أن يقال سأل اللّه عنك، ولا يجوز أن يقال تعالى اللّه بالعز والكبرياء ، ولا يقال إن اللّه احتجب بقدرته عن عيون الناظرين ، لأن القدرة ليس هى غيره وليس هو ممن يتوارى ويحتجب .

* **مسألة :** فإن قال قائل: فقد قال اللّه عزّ وجل . ، وما كان لبشر أن يكلّمه اللّه إلا وحياً أو من وراء حجاب ، فما هذا الحجاب ؟ قيل معنى الحجاب هو المنع لهم عن رؤيته ، وليس من دونه حجاب يستره تعالى عز وجل عن ذلك علوّا كبيراً.

قال الخليل: الحجاب اسم ما حجبت به بين شيئين وكل شيء منع شيئا فقد حجبه ، واحتجب فلان إذا اكتنّ من وراء الحجاب، وحجاب الخوف يحجب بين الفؤاد وسائر البطن ، وقول النّاس فلان محتجب عن النّاس أى ممتنع من رؤيتهم له وإن لم يكن من دونه حجاب . وكره أبو محّمد رحمه اللّه أن يقال فى صفة اللّه تعالى المحتجب قال وقد قال بعض المتكلمين ، وكره أبو عبد اللّه رحمه اللّه أن يقال جل اللّه فى ملكه لمكان فى ، ولا يجوز أن يقال لا تولنا غيرك ولا تنسنا ذكرك ولا يجوز أن يوصف تعالى بالرّأى فيقال الرأى لله لأن الرأى أن يرى الشيء

بعد الشيء ، وهو أيضا من البداء ، أن يبدو له الرأى بعد إذ لم يكن والله تعالى لا يوصف بالبداء .

فصل من كتاب

لا يقال هذا حرام فى رأى الله ولا فى اعتقاد الله كما قيل هذا حرام فى دين الله وفى علم الله، ولا يجوز أن يقال يعتقد كذا ويرى كذا ، ولا يقال له مذهب كما قيل له علم ، ولا يقال رأى الله له كما قيل نظر الله واختار له ، وكذلك فى النفى لا يقال لم ير الله له كما قيل لم ينظر الله ، ومنه ولا يجوز فى شىء من صفات الذات لم كان لا يجوز لما علم الله تعالى ولا متى علم ، وكذلك لم قدر الله ومتى قدر الله، وكذلك لم أراد الله كذا ولا متى أراد كذا وكذا غير جائز فى صفات الذات أجمع ، وأما فى الأفعال فجائز أن يقال لم أمر ولم نهى ولم تاب ولم عاقب ، فيقال: لمصالح العباد ، ولم يجز ذلك ابن محبوب رحمه الله ، فالله اعلم بالأصح .

ومنه ولا يجوز أن يقال لو قدر الله على كذا وكذا ولا لو أبصر الله ولا لو سمع الله كما قيل لو علم الله ولو شاء الله، ولا يقال يتملك كما قيل ملك وتملك ، ولا يقال يتعزز ولا يتعظم ولا يتكبر ولا يتخير ولا يتكرم ولا يتخلق وما كان فيه يتفعل فلا يجوز ، ومنه ولا يقال الله تعالى رغب كما قيل كلف وأمر وطلب منا الطّاعة ، قال صاحب الكتاب. واختلف فى طلب وسأل السّاعة (قال غيره لعله الطاعة) وقال فأما أراد منهم فجائز لأن الرغبة إنماتكون على الحاجة ألا ترى أنه أمر غير راغب فكذلك طلب واستقرض لأنه من غير عدم استعرض فلذلك لم يكن راغبا ،

والاستقراض على وجهين يكون مستقرضا لحاجة فذلك عن الله منفى ، والاستقراض لا لحاجة فهو ما ندب اللّه تعالى إليه أن يتقرب بذلك إليه . ولا يقال وهبت هذا للّه وتركته له، وأقرضت اللّه ولا يقال تصدقت كما قيل أقرضته .

واختلف فى القول بأن الله يتصدق علينا ، وقال بعض الفقهاء لا يقال الله تعالى متصدق علينا إنما يتصدق من يطلب الثواب ، وجوز ذلك بعضهم ، روى فى الأثر أن الله تعالى يتصدق على المسافر شكر الصلاة والصوم ، ولا يقال أقرضنا الله ويقال أثابنا وشكر لنا وجازانا ، ولا يقال جزانا الله ولا كافأنا اللّه ، ويقال فى ثوابه كفاه لأعمالنا ولا يقال أنه تعالى أخرج ما وهب من ملكه ، ومنه ولا يقال أن اللّه تعالى يحذر ولا يخاف ولا يخشى إلا على معنى العلم ، وقد قال تعالى « فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا » قالوا فى ذلك علمنا ، فلا يجوز إلا على هذا التفسير ، ولا يقال يظن وإن كان الظن قد يجيء فى موضع العلم ، قال المفضل قال الفراء فى قوله تعالى « فخشينا » معناه علمنا وهو مثل إلا أن يخافا ألاّ يقيما حدود اللّه ، لأن خشينا وخفنا واحد ، والخوف والظن يذهب بهما مذهب العلم، وقال دريد بنالصمة:

فقلت لهم ظنوا بألفى مدجج سراتهم فى الفارسى المسرّد

أى اعلموا ، ومثله قوله تعالى « الّذين يظنّون أنّهم ملاقو ربهم » قالوا يعلمون، فالظن يكون شكا ويكون يقينا ، فالشك لا يجوز على اللّه تعالى ، ومنه ولا يقال أنه تعالى يتقى ولا أنه يرجو لأن الرجّاء إنما قد يكون على الخوف والطمع ، وذلك عن اللّه تعالى منفى ، ولا يقال يتحنن على خلقه ولا يتلطف ولا يتودد كما يقال أنه لطيف بهم ولا يقال أشفق اللّه عليهم .

ولا يقال أنه غلظ ولا عنف على الكفار كما قيل أنه غضب عليهم ، ولا يقال شيء أبعد عليه من شيء ولا شيء أهون عليه من شيء ولا يوصف بالعجلة ، ومنه لا يجوز أن يقال رأيت اللّه تعالى حتى يصل ذلك بكلام رأيت الله أهلك عاداً وثموداً ، وقال تعالى « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » و« ألم تر إلى ربك كيف مّد الظّل » ويجوز أن يقال رأيت الله كيف مد الظل ، ورأيت الظل كيف مدّه الله لأن المعنى واحد ، وكذلك لا يجوز سمعت اللّه حتى يصل فيقول سمعت الله يقول ، ويقول وجدت اللّه تعالى صنع كذا ولا يقال أدركت الله صنع كذا ، ومنه ولا يوصف بالعناية ولا بالنصح ، ولا يقال ألزم نفسه ويقال أوجب وكتب على نفسه ، ولا يجوز أن يقال اللّه يحرك بى ويسكن بى كما جاز جاءنى ، ولا يجوز قام الله بك وسكن بك وحرك بك ، وما كان مثله فعلى قياسه .

ومنه ولا يقال ما دعا الله تعالى إلى كذا وكذا ولا ما حمله على كذا ، ولا يجوز فى شيء أن الله فيه شيء إلا أن يقول ما للّه فى العامة على الخلق فيقال الثناء والشكر ، فإذا خرج من هذا الوجه بطل القول بأن للّه فى شيء شيء ، ولا يقال أنه تعالى احتاج إليه إذ فعله ، ولا يقال ما صيره إلى هذا الفعل لأمرٍ كان لا يفعله ثم فعله ، ومنه ولا يقال فيما نفى الله عن نفسه من الظلم اعتذر لأن المعتذر الذى ليس له على ما أضيف إليه شواهد باقية ، وقد جوز بعضهم اعتذر على غير ما يفعل من اعتذار الخلق على التعظيم وإزالة التهمة فقيل كذب على اللّه وأخبر عنه بغير الخلق ما اعتذر ، ويقال تبرأ ولا يقال اعتذر ، ولا يقال فى موضع تبرأ طهر نفسه كما قيل نزه نفسه .

ومنه ولا يقال أنه تعالى مشغول لقوله عزّ وجلّ « كل يوم هو فى شأن » لأن

المشغول المانع له الشيء من غيره والله تعالى لا يمنعه كثير ما دبّر من أضعافه ، ومعنى ، كل يوم هو فى شأن ، قيل من شأنه أنه يجيب سائلاً ويشفى مريضاً ويغنى فقيراً وما يعرف من طوله وإفضاله . قال المفضل كل يوم هو فى شأن ، أى من أمور خلقه يخلق واحدا ويميت آخر ويغنى واحدا ويفقر آخر ويدبّر أمر خلقه على ما يرى عزّ وجلّ ، قال والشأن فى كلام العرب ما قصدت له يقال أقبل على شأنك أى على ما أنت قاصد له ، والله ما شأنت شأنه أى ما قصدت قصده ، قال الشاعر :

يا طالب الجود إن الجود مكرمة   لا البخل منك ولا من شأنك الجود

أى ليس من قصدك الجود . ومنه، ولا يقال أنّ اللّه فى ضيعاته ولا هذا صناعة اللّه يراد به صنعته ، ولا يقال يمسّه شيء أو يمس هو شيئا، ولا يحل هو فى شيء ، أو يحل فيه شيء، ولا يعرف هو فى شيء قرب المسافة ولا يقرب منه شيء ذلك القرب ، وكذلك فى هذا المعنى لا يقال البعد ، ومنه اللّه تعالى خالق كل شيء ومالكه ، ولا يجوز أن يقال لأجل هذا هذا ولد الله ولا زوجته ولا هؤلاء بنوه وبناته لأنه خالقهم ، كما يقال سماؤه وأرضه وخلقه ورسله وكتبه ، ولا يقال قميص اللّه ولا رداؤه ولا نعله ولا خفه وإن كان هو الخالق المالك لهذا كله ، وكذلك هو خالق جميع الجوارح، ولا يقال هذه عين اللّه ولا يده ولا رجله ولا ما أشبه هذا كله لا يجوز إضافته إليه تعالى وإن كان هو خالقه ومالكه ولا يجوز عليه تعالى ما يستقبح وإن كان محتمل المعنى لأن القول فى هذا إنما تسليم وأمور موضوعة لا على قياس وتشبيه . فلا يجوز على اللّه تعالى إلا ما أجازه العلماء وحسن من أسمائه الحسنى وصفاته العُلاَ ، والله اعلم .

ولا يوصف الله تعالى بالصّعود ولا النزول ولا يقال حواه مكان ولا خلا منه مكان ولا فارقه مكان ولا لازمه مكان سبحانه كان قبل ذلك فاستغنى ربنا عن المكان ، ولا يوصف بالقعود ولا القيام ولا الكسل ولا التّوانى ولا الخلوة ولا الفترة ولا الشهوة ولا الغفلة ولا اللّهو ولا الشك ولا الجهل ولا الندم ولا السكوت ولا النطق ، ولا يقال أفسد خلق الفساد ، بل يقال خلقه لجميع ما خلق صلاح منه لا فساد ، وعدل لا جور ، ولا يقال حاز ولا أربى ولا أزنى ولا أسرق ولا أقدر وهو تعالى خلق جميع ذلك سبحانه له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين .

فصل

ولا يوصف تعالى بالضجر لأن الضجر فى اللغة اغتمام فيه كلام . ولا يتضجر، ومنه ضجر الناقة وهى أن تكثر الرغاء ويقال أنها الضجور ، ولا يوصف تعالى بالملل والملال والسآمة وكله واحد ، ومعناه أن يمل شيئا ويعرض عنه يقال رجل ملولة وامرأة كذلك ، قال الشاعر :

أقسم ما بى من جفا ولا ملل

* **مسألة :** فإن قال قائل فقد روى عن النّبى ﷺ أنه قال: تكلّفوا من العمل ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا، فقد وصفه بالملل قيل له إن صح الخبر فقد قال الأشعرى فيه وجهان أحدهما أن الله لا يغضب عليكم ولا يقطع عنكم ثوابه حتى تتركوا العمل ، وتزهدوا فى سؤاله ، والرغبة إليه مللا وليس بملل فى الحقيقة ، والوجه الثانى أن الله تعالى لا يمل إذا مللتم ، ومثل هذا قولك فى الكلام : هذا الفرس لا يفتر حتى يفتر الخيل، لا تريد بذلك أنه يفتر إذا فترت الخيل ، ولو كان

المراد هذا ما كان له فضل عليها لأنه يفتر إذا فترت ، والمراد بهذا لا يفتر إذا فترت، وكذلك تقول الرجل البليغ فلان لا ينقطع حتى ينقطع خصومه تريد لا ينقطع إذا انقطعوا، ولو أراد أنه ينقطع إذا انقطعوا لم يكن له فى هذا القول فضل على غيره ولا أوجبت له بذلك مدحه ، وقد جاء مثل هذا بعينه فى الشعر فى ابن أخت تأبط شرا ، ويقال لخلف الأحمر ، قال:

صليت منى هذيل بحرق لا يمل الشر حتى تملوا

لم يرد به أنه يمل الشر إذا ملوه ، ولو أراد ذلك ما كان فيه مدح لأنه بمنزلتهم، وإنما أراد أنهم يملون الشر وهو لم يمله . والله أعلم. وقوله بحرق الحرق. الطريف فى سماحة ونجدة ، وقال :

وحرق يرى الكأس أكرومة يهين اللجين لها والنضارا

اللجين الفضة والنضار الذهب .

فصل

قال النقاش لا يدخل فى أسماء الله الحسنى كثير مما وصف نفسه تعالى به ، وإن كان الفعل مضافا إليه دون خلقه فليس يدعى زارعا ولا زراعا وإن كان قال «أم نحن الزّارعون » ولا يدعى مكارا ولا ماكرا ، وإن كان قال تعالى « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » ولا خادعاً ولا خداعاً وإن قال تعالى « يخادعون الله وهو خادعهم » ولا بانيا ولا بناءً ولا فارشا ولا فراشا ولا ماهدا وإن كان قال تعالى «والسماء بنيناها بأيد » « والأرض فرشناها » الآية ، ولا يدعى مستقرضا ولا مشتريا

وإن كان قال تعالى ، وأقرضوا الله قرضاً حسنا ، وقال عز وجل ، إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ، ونحو ذلك مما يكثر إحصاؤه .

* **مسألة** في العقل والعلة المانعة من تسمية الله تعالى به: إن سأل سائل فقال ما العقل قيل له هو العلم بالواجب والحسن والقبيح إذا كان العلم بالحسن يدعو العالم إلى فعل ما تنفر نفسه عنه لحسنه والعلم بالقبيح يمنع العالم به عن فعل ما تشتهيه لقبحه ، فكذلك لا يسمى أحد عاقلا إلا من عرف الواجب والحسن والقبيح ، وكان علمه يدعوه إلى فعل ما تنفر نفسه عنه وتمنعه عن فعل ما تشتهيه فيجوز أن يكون ممتنعا لأنه لا يجوز أن يقال إن الإنسان ممتنع من شرب ما لا تشتهيه كما يقال أنه ممتنع من فعل ما لا ينتفع به ، ولا يقال أيضا أنه ممنوع إلا أن يحاول فعل ما منع عنه . كما يقال أنه مانع لغيره عن فعل لم يحاوله ، وكذلك لا يسمى القديم تعالى ممتنعا من فعل شيء ولا ممنوعا منه ، وأما المتمانعان فهما اللذان لم يوجد ما حاولاه جميعا ، فإن قال لم لا يجوز أن يكون للبهائم عقل ونفس تعرف أشياء كثيرة وتشتهيها أيضا قيل لأنها لا تعلم الحسن والقبيح والواجب إن كانت مشتهية لها والعلم الذى يسمى عقلا هو العلم بالحسن إذا كانت نفس العالم تنفر عما علمه والعلم بالقبيح إذا كانت نفس العالم تشتهى ما تعلمه ، وأما غير ذلك فإنه لا يسمى عقلا وكذلك لا يجوز أن يسمى القديم تعالى عاقلا لأنه وإن كان عالما بجميع الأشياء لم يجز أن يكون مشتهيا لشيء ولا نافر النفس عنه ، وكذلك الطفل وإن كان عالما ببعض الأشياء ومشتهيا لها لم يكن عالما بالحسن والقبيح ، فإن قال ما الّذى يعرف بالعقل من الحق والباطل قيل وجوب الإنصاف وشكر المنعم ومدح المحسن وذم المسيء وقبح الكذب والظلم والجور ، ومدح المسيء وذم المحسن وما جرى مجرى ذلك مما يعلم من جهة العقل دون الشرع . والله أعلم .

باب
فى القول فى آيات قوله عزّ وجلّ
يخادعون الله وهو خادعهم

قال مقاتل: مخادعتهم بالعذاب عليها ، وكذلك استهزأ الله بهم وكذلك سخر الله منهم ، وكذلك ويمكر الله ، وكل ما فى القرآن من أشباه هذا فإنما هو من الله تعالى على المكافأة لا على ما هو فى الناس، وهو توسع ومجاز فى لغة العرب أن يسموا العقاب باسم الذنب الذى هو عقاب عليه . ومنه قوله عزّ وجل «وجزاء سيئة سيئة مثلها » والجزاء عدل ليس سيئة فسمى باسم السيئة توسعا ومجازا ، وربما سموا الذنب باسم العقاب على التوسع كقوله تعالى « الله يستهزىء بهم » فسمى عقوبته إياهم على استهزائهم استهزاء بهم مجازاً على ما قلناه ، وقد جاء فى بعض التفسير معنى يستهزئ بهم وأشباهه أنه يفتح للكفّار والمنافقين باب جهنم فيرون أنهم يخرجون منها فيزدحمون للخروج فإذا انتهوا إلى الباب ضربتهم الخزنة بمقامع النيران حتى يرجعوا ، وقال بعض: استهزاء اللّه تعالى معناه إهلاكهم وتدميرهم ، وهذا المعنى معروف فى لغة العرب ، قال عبيد :

سائل بنا حجر بن أم قطام إذ ظلت به السمر الذوابل تلعب

والسمر لا تلعب لأنها القنا واللعب قريب من الهزء وإنما معنى قوله تلعب بهم تقتلهم وتهلكهم .

* **مسألة :** إن قال قائل :ما معنى قول الله عز وجل «لعله يتذكر أو يخشى»

«ولعلهم يتقون » وكيف جاز الشك منه؟ قيل هذا ليس منه جل ثناؤه على الشك ، وإنما هذا على المجاز، وكان ابن عباس يقوله لعله يتذكر أى يتعظ عندكما، ولعل وعسى من الله تعالى واجبتان فى القرآن ،وفى أشعار العرب مثل ذلك ، قال ابن مقبل .

ظنى بهم كعسى وهم بينونه يتنازعون جوائز الأمثال

أى يقينى بهم كيقين، ولم يرد ظنى بهم كظن، وقد قيل إن فرعون قد تذكر وخشى بقوله آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل .

* **مسألة :** قوله عز وجل « فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها » الآية إن قيل كيف يكون نكالاً لما مضى قبلها من الأمم وقد مضت، قيل كان ابن عباس يقول لما بين يديها أى لما فيها من ذنوبهم وما خلفها من بعدها من بنى إسرائيل وقال المفضل قال الحسن يعنى ما بين يديها من الذنوب السالفة وما خلفها أى خلف تلك الذنوب وهو صدها . والنكال العذاب قال جرير :

إنى جعلت فلن أعافى ثعلبا للظالمين عقوبة ونكالا

* **مسألة :** فإن سأل عن قوله عز وجل «فهى كالحجارة أو أشد قسوة» فقال كيف جازت «أو» من الله تعالى وإنما هى للشك؟ قيل له قد جاء عن أهل اللغة والتفسير أن أو فى هذا الموضع ليست للشك ولا يجوز على الله سبحانه الشك ومعنى أو إذا كان بمعنى الزيادة على الشىء أو النقصان منه كان معناها بل، كقوله عز وجل «إلى مائة ألف أو يزيدون» لما كانت مائة ألف من الناس نهاية أخبر تعالى أنه بعث الله نبيه عليه السلام إلى هذا العدد العظيم عندهم ، ومن القلة والقرب قوله تعالى «فكان قاب قوسين أو أدنى» وكذلك «وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو

أقرب ، وأنشد الفراء في أو معنى بل :

بدت مثل قرن الشمس فى رونق الضحى   وبهجتها أو أنت فى العين أملح

وإذا كانت أو بمعنى إضافة الثانى إلى الأول كانت بمعنى الواو ومنه قول النابغة :

قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا   إلى حمامتنا أو نصفه فقد

أى ونصفه ، ومعنى فقد أى حسب قال توبة بن الحمير :

وقد زعمت ليلى بأنى فاجر   لنفسى تقاها أو عليها فجورها

فقوله تعالى أو هو على هذه المعانى لا على الشك تعالى الله عن الشك .

* **مسألة :** فإن سأل عن قوله عز وجل « فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين » فقال كيف جاز أن يلوم هؤلاء على ما لم يفعلوا ولم يدركوا ؟ قيل لما كانت الأبناء راضية بما صنعت الآباء من قتل الأنبياء دخلوا معهم فى الإثم وكانوا قتلة مثلهم . والله أعلم .

* **مسألة :** فإن سأل عن قوله تعالى « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » فقال أو يكون بعض القرآن خيراً من بعض قيل له قال ابن عباس وغيره هي: العمل بهذه المحدودة خير من العمل بهذه المنسوخة أو مثلها أى مثلها فى الفضل قبل أن تنسخ. وقال بعض نأت بخير منها أى أسهل عليكم فى الأمر والنهى والفرض فذلك خير لكم .

* **مسألة :** فإن سأل عن قوله عز وجل «يقول له كن فيكون» فقال كيف قال يقول له وليس ثم شيء بعد؟ قيل قد قيل يجوز أن يكون معنى يقول له يكونه فجعل

القول فعلا مثل قولك قال برأسه إذ حركه ، ولم يقل شيئا كما قال أبو النجم :

وقالت الأنساع للبطن الحق   قدما فأصت كالفنيق المحبق

الأنساع السيور والفنيق الحمل وليس ثم قول إنما المعنى لحق البطن بالظهر. ووجه آخر لما كان الشيء قد تقدم علمه تعالى فيه صار كأنه ماثل لديه فجاز أن يقول له كن فيكون ، والله أعلم .

وقال أبو الحسن رحمه الله: الأمر قد يكون قولا وغير قول فالقول ما أمر به من جميع أوامره فهو أمر بالقول وقد يكون قوله أمرنا هو إيتاء المراد لأن قوله تعالى إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أنه يأتى كما أردنا أن نقول له كن فيكون كما قال تعالى : «أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً » فقد يكون غير قول، والخطاب إنما هو على ما يتعارف فى اللغة التى نزل بها القرآن .

* **مسألة** : فإن سأل عن قوله عز وجل « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول » وقوله تعالى : « حتى نعلم المجاهدين منكم » ومثل هذا فى القرآن فقال أليس قد علم كونه فما معنى ذلك ؟ قيل له المعنى فيه أنه قد علمه قبل كونه ولكن فعل ذلك لنقرر عندكم علمنا بمن يتبع الرسول منكم وهو فى كلام كرجل قال لصاحبه النار تحرق الحطب فقال الآخر هات النار والحطب لنعلم ذلك بالفعل الذى يوجب الجزاء .

* **مسألة** :فإن سأل عن قوله عز وجل « لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم » فقال كيف جاز هذا الكلام وليس للذين ظلموا حجة قيل له قال أبو عبيدة موضع إلا هاهنا ليس موضع استثناء إنما هو موضع واو الموالاة ومجازها

لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا قال الأعشى :

إلا كناشرة المكلف نفسه   وأبى قبيضة أن أعيب وتشهدا

معناه وكناشرة وفيه غير هذا تركته لئلا يطول .

* **مسألة** : فإن سأل عن قوله « ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله » وهم مشركون قيل له قال المفسرون أى كحب المؤمنين الله، فإن قال فقوله تعالى «يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم» أى أعمال كانت لهم قيل له قد قيل بوجوه أحدها يقول أعمالهم السوء تصير حسرات عليهم وندامات هلا كانوا عملوا غيرها وهو قول ابن عباس، والوجه الآخر يقول أعمالهم التى فرضت عليهم فى الدنيا وعمل بها غيرهم فاستوجب الثواب ولم يعملوا هم بها ووجه آخر قاله المفضل : ليست هناك أعمال ترى إنما يعلمون أن أعمالهم فى الدنيا لم تنفعهم .

* **مسألة** : فإن سأل عن قوله تعالى «فما أصبرهم على النار» فقال وهل يكون عليها صبر؟ قيل له يريد مالذى جرأهم على النار يصيره استفهاماً وهو قول ابن عباس وقال أبو عبيدة ما فى هذا الموضع فى معنى الذى مجازها ماالذى صبرهم على النار ودعاهم إليها وليس بتعجب؟ وقال المفضل فيه وجهان أحدهما أن يكون ما بمعنى أى كأنه قال أى شىء صبرهم على النار ويقال أصبره على كذا وكذا وصبره بمعنى . والوجه الآخر ما أصبرهم ما أجرأهم، وقال الكسائى قال لى قاضى اليمن اختصم إلى رجلان من العرب فحلف أحدهما على حق صاحبه فقال صاحب الحق ما أصبرك على الله أى ما أجرأك عليه ، وكذا قال وكأن يقول ليس والله لأحد صبر على النار ، ولكنه بمعنى ما أجرأهم على النار بأعمالهم .

* **مسألة** : فإن سأل عن قوله عز وجل « أحل لكم ليلة الصيام » فقال تعالى ليلة وهى ليالٍ؟ قيل له هذا جائز عند العرب قال عز وجل « ثم يخرجكم طفلاً » يريد أطفالا وقال تعالى : « والملائكة بعد ذلك ظهير » يريد ظهراء، وقال عز وجل «والملك على أرجائها » يريد الملائكة . قال الغنوى :

إن تقتلوا يوماً فقد شرينا   فى حلقكم عظما قد استحينا

يريد فى حلوقكم قال العباس بن مرداس :

فقلنا أسلموا إنا أخوكم   فقد برئت من الإحن الصدور

أى إخوتكم .

* **مسألة** : فإن سأل عن قوله عز وجل «هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام » وقوله تعالى «فأتى الله بنيانهم من القواعد » و« فآتاهم الله من حيث لم يحتسبوا » . « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل » « وجاء ربك والملك صفاً » فقال كيف أخبر أنه نزول من مكان إلى مكان قيل له المعنى فى ذلك غير ما ذهب إليه وهو أنه جاء وأتى أمره وحسابه وعذابه. وكان ابن عباس يقول قدمنا إلى ما عملوا أى عمدنا فذكر نفسه وهو تعالى يريد أمره فقال «أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا» عنى بقوله استووا أى ارتفعوا إلي .

* **مسألة** : فإن قال كيف يجوز أن تقول «ثم استوى على العرش» وثم لايجرى فى اللغة إلا على معنى حادث وملكه الأشياء عندكم غير حادث؟ قيل له إن معنى قوله تعالى « ثم استوى على العرش يدبر الأمر» أراد به تدبر الأمر وهو مستو على العرش، فذكر ثم عند الاستواء توسعاً فى القول ، وهو يريد ثم يدبر

كما قال « حتى نعلم المجاهدين منكم » وحتى لا تجرى فى الكلام إلا على معنى حادث مستأنف ولا يجوز أن يعلم الله تعالى الأشياء بعلم حادث مستأنف لأنه لم يزل بالأشياء كلها عليما ، ولكن أراد بقوله عز وجل حتى نعلم المجاهدين منكم حتى يجاهد المجاهدون ، وهو عالم بهم ، فذكر حتى مع قوله تعالى نعلم توسعا فى القول ومجازا وهذا مثل قوله تعالى : « ثم استوى على العرش يدبر الأمر » .

* **مسألة** : فإن قال فما قوله تعالى : « استوى إلى السماء » قيل له أراد بذلك ثم قصد خلق السماء فذكر الاستواء وهو يريد القصد مجازا فقال المفضل قال الحسن يعنى استوى أمره وصنعه الذى صنع الأشياء إلى السماء. وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: خلق الله الأرض فى يومين قبل السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن فى يومين آخرين .

وقيل عنه رحمه الله: استوى إلى السماء أى صعد أمره إلى السماء، وقال المفضل: العرش والكرسى والسرير واحد .

* **مسألة** : فإن قال فما معنى قوله عز وجل « وإلى الله ترجع الأمور » وهى راجعة إليه الساعة، وإنما يقول القائل إلى ترجع الأمور إذا لم تكن فى يده، قيل معناه أن المسألة عن الأعمال والثواب عليها والعقاب ترجع إليه يوم القيامه لأنهم اليوم غير مسئولين عن أعمالهم ولامثابين عليها ولا معاقبين .

وكذلك قوله تعالى «وإلى الله المصير» وهو الساعة فى ملكه. فإن قال فما معنى قوله عز وجل «وسع كرسيه السموات والأرض» وقد نرى الأرض وليس نرى الكرسى قيل له: نقل عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : ياويله ، وسع

علمه السموات والأرض. وقد قيل أن الكرسى فى اللغة العلم قال الشاعر :

تحف بها بيض الوجوه وعصبة كراسى بالأحداث حين تنوب

كراسى أى علماء .

* **مسألة** : فإن قال فما معنى قوله عز وجل ، إذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ، أكان شاكا فى إحيائه الموتى؟ قيل له قد قيل فيه أقاويل وكلها تنفى عنه الشك أحدها أن يكون أراد ليطمئن قلبى فإن نفسى تنازعنى إلى مشاهدة ذلك مع العيان مع تصديقى بعينّى، والآخر ليطمئن قلبى إلى إحيائك، وأن لا تكون قد رددتنى عما طلبته وقال المفضل، ولكن ليطمئن قلبى أى يسكن إلى مشاهدة ما يرى من قدرتك فلا يختلجه فى اليقين بذلك شك ، قال : وقد قيل معنى ليطمئن قلبى لأنظر بحسى من لطائف رحمتك ما أدركه بالخبرة .

وقال ابن محبوب رحمه الله : ولكن ليطمئن قلبى بتصديق قومى أنك تحي الموتى متى أخبرتهم بذلك .

* **مسألة** : فإن قال فما معنى قوله عز وجل ، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ، الآية، كيف يجوز على الحكيم أن يعذب جلودا لم تعصه قط فقد قيل فيه بوجوه أحدها أن الجلود لاتألم وإنما تألم النفوس فهذا وجه ووجه آخر أن يعاد ذلك الجلد بعينه جديدا وقال المفضل المعنى أن تلك الجلود إذا نضجت ردت صحاحا فمعنى غيرها أى غيرها وهى محترقة لأنه تعالى أعدل وأرحم من أن يعذب من لايعصيه. وكذلك قوله عز وجل ، يوم تبدل الأرض غير الأرض ، أي

تمد فتصير أوديتها وآكامها وكل مضطرب الخلقة فيها شيئاً واحدا أرضا مستوية فهى الأرض وقد بدلت غيرها فى الصورة .

وكذلك عن أبى محمد رحمه الله قال : معنى ذلك تبدل ألوانها وأما يؤتى بغيرها فلا ، ولكن يحدث ألوان أخر لعظم ذلك اليوم .

قال: وكذلك تبدل جلود أهل النار تعاد كما كانت هى لا غيرها ، ومنهم من يقول غيرها، وأما قولنا نحن فتعاد هى وإنما المعنى فى غيرها الألوان لا لون الثانى، تبديل التى فنيت مرة بعد مرة يجوز أن تقلب بلون آخر .

* **مسألة :** فإن قال فقوله عز وجل « اليوم أكملت لكم دينكم » أكان الدين ناقصا؟ قيل له : قيل معناه أكملت الفرائض عليكم والشرائع لأنه إنما أنزل أولا فأولا ولم يعن التوحيد لأن التوحيد لم يزل تاماً .

* **مسألة :** فإن قال فقوله عز وجل : « وإذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين » الآية كيف قال وإذ، وإذ إنما تكون لما مضى والآية تدل على أنه يكون ذلك فى القيامة قيل له قال المفضل قال الكلبي عن ابن عباس معناه وإذ يقول الله ياعيسى أخبر نبيه عليه السلام أنه يقول لعيسى عليه السلام يوم القيامة، وقال الفراء وغيره : ، إنما قال عز وجل وإذ قال ولم يقع ذلك وإذ إنما يكون للماضى لأن أخبار الله عز وجل كلها لا يجوز فيها اختلاف ، وكأن ما يخبر عنه قبل وقوعه حاضر مشاهد كقوله تعالى : « ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت » لما كان كائنا لابد منه كان كالشاهد .

* **مسألة :** فإن قال فقوله تعالى : « أأنت قلت للناس » كيف يسأله عن شيء

قد علم أنه لم يقله قيل قال المفضل قال الحسن إنما يقول ذلك وإنما قد علم عز وجل أنه لم يقله ليرد عيسى ما حكى عنه عز وجل ، سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، فيكذب الذين ادعوا أن عيسى ابن اللّه على رءوس الخلائق .

* **مسألة :** فإن قال فقوله : ، رب بما أغويتنى ، ، وإن كان اللّه يريد أن يغويكم ، كيف جاز من الله عز وجل؟ قيل له: قال المفضل أغويتنى ألفيتنى غاويا، أى ضالاً بمخالفتى أمرك بالسجود لآدم عليه السلام وقال الكلبى أغويتنى أضللتنى عن الهدى بمخالفتى أمرك وقال بعض المفسرين أغويتنى سميتنى غاويا بمخالفتى أمرك وقال الحسن : أغويتنى لعنتنى، وأما إن كان اللّه يريد أن يغويكم فمعناه أن يضلكم ويمنعكم الرشد . وقال الحسن يعذبكم أى لا ينفعكم نصحى بما أدعوكم إليه من الإيمان إذا نزل بكم عذاب اللّه وآمنتم لم ينفعكم يومئذ .

* **مسألة :** فإن قال فقوله عز وجل : ، ورحمتى وسعت كل شىء ، كيف ولم تسع الكافر الذى لم يرحمه؟ قيل له قد قال المفضل قال الكلبى لما قال الله تعالى ذلك تطاول لها إبليس وقال أنا من ذلك الكل فأخرجه الله تعالى من ذلك وجنبه بقوله تعالى : «فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ، الآية فقالت اليهود فنحن منهم نحن أصحاب الكتاب والعلم القديم فأكذبهم الله تعالى فقال بل هم «الذين يتبعون الرسول النبى الأمى ، الآية، وقال غيره وأظنه ابن عباس ، ورحمتى وسعت كل شىء ، يقول فى الدنيا يعنى قد عمت الناس فأسكتبها فى الآخرة للمؤمنين ، يقول فسأجعلها لهم دون الكفار يعنى الجنة .

* **مسألة :** فإن قال فقوله : ، ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس ، وفى

موضع آخر « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » وفى موضع آخر « إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » كيف جاز أن يقول لعبادى ثم خلقت كثيرا منهم لجهنم؟ قيل له لما كان مصيرهم إليها يعلمهم كأنهم خلقوا لها ، وذلك من كلام العرب واسع كقولك للرجل إذا بعثته فى أمر فعاد إليك بضرر إنما بعثتك لتضرنى وليس لذلك بعثه ، قال سماك بن عمر العاملى :

أم سماك فلا تجزعى فللموت ما تلد الوالدة

وإنما تطلب الوالدة الولد لينفعها فلما كان مصيره إليه جعل ولادتها له ، ومثله قول الكميت :

فللموت تغذو الوالدات سخالها كما لخراب الدور تبنى المساكن

والوالدة لا تغذو أولادها للموت ولاتبنى المساكن للخراب وإنما للعمارة ، ولكن لما كانت العاقبة للموت والخراب جاز ذلك ومثله قول الأخطل :

أموالنا لذوى الميراث نجمعها ودورنا لخراب الدهر نبنيها

ولم نجمع المال للوارث ولم نبن الدور للخراب ، ولكن لنسكنها ، ومن ذلك «فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا » وليس لذلك التقطوه ، ولكن ليسروا به «وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لاتقتلوه » ولكن لما كان ذلك عاقبة أمره جاز أن يجعل الالتقاط له .

* **مسألة** : فإن قال فقوله عز وجل : « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها » الآية، ما معنى هذا والقلوب يعقل بها والأعين يبصر بها والآذان يسمع بها؟ قيل له إنه لما لم يفقهوا بقلوبهم ولم يبصروا

بأعينهم لم ينتفعوا بجوارحهم ، ومثل ذلك قول مسكين الدارمى :

أعمى إذا ما جارتى خرجت حتى يوارى جارتى الستر

وأصم عما كان بينهما سمعى وما سمعى به وقر

فجعل نفسه أعمى أصم لما لم يبصر ولم يسمع ، وقال آخر :

وكلام سيىء قد وقرت أذنى عنه وما بى من صمم

ومثل هذا كثير فى كلام العرب وأشعارها .

* **مسألة :** فإن قال فقوله عز وجل : « فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط » كيف جاءت المجادلة من إبراهيم عليه السلام ، وهو نبي؟ قيل له قال قوم معنى يجادلنا يكلمنا لأن إبراهيم عليه السلام لا يجادل الله تعالى بل يكلمه ويسأله، وقيل يجادلنا أى يجادل رسلنا، وقال المفضل يجادلنا هو من كلام الرسل قالوا لما ذهب عنه الروع يجادلنا أى يحاجنا فى قوم لوط وهو قوله حين قالوا للرسل عليهم حجارة من طين: إن فيهم لوطا وأهله كيف تفعلون بهم ذلك ؟.

* **مسألة :** فإن قال فقوله تعالى : « ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون » كيف جاز ليوسف عليه السلام أن يسرق قوما لم يسرقوا؟ قيل له قال قطرب فيه بوجهين أحدهما إنكم سارقو يوسف يوم سرقوه من أبيه ورموا به فى الجب فيكون ذلك صدقا من يوسف عليه السلام والوجه الآخر أن يكون المنادى نادى بغير أمر يوسف ، فحكى الله عز وجل ذلك عن المنادى ، ويجوز أن يكون يوسف عليه السلام أمر بوضع الصاع فى وعاء آخيه بغير علم الذى ناداهم بالسرقة فلا يكون المنادى تعمد كذبا. وقال المفضل، قال الفراء هو من مكايد الأنبياء ولعمرى إن

الأنبياء ليكيدون حتى يبلغوا مايريدون، وذلك مما يحسن ويجوز، ومنه ما روى عن النبى ﷺ أنه كان إذا أراد سفراً ورى عنه بغيره والكذب فيما يجلب منفعة أو يدفع مضرة أو أقام لله تعالى حجة لابأس به. فقد حكى الله عز وجل عن إبراهيم عليه السلام فيما أراد من كسر الأصنام فقال إنى سقيم ولم يكن سقيما فى ذلك الوقت، قال وفيه عندى وجه آخر بدون هذا وهو أنه عارضهم قول يتوهم من لايعلم معناه أنه كذب وهو حق، قال إنكم لسارقون أى فى قومكم من يسرق، وأضاف السرق إلى جميعهم، وإنما هو فى بعضهم كما يقال قتل أهل الكوفة رجلا وإنما قتله بعضهم، ومنه قوله عز وجل: « فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين » وإنما قتلهم أسلافهم، من ذلك قول جليلة بنت مرة أخت جساس بن مرة قاتل كليب وهى امرأة كليب قالت :

إننى قاتلة مقتولة   فلعل الله أن يرتاح لى

فجعلت نفسها أنها قاتله لأن أخاها قتل ومقتولة لأن زوجها قتل .

* **مسألة** : فإن قال فقوله عز وجل : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » كيف يؤمنون وهم مشركون. قيل له : قال الكلبى : يعنى أهل مكة يقول إذا سألتهم من خلقكم قالوا الله ومن يرزقكم قالوا الله وهم مشركون بالله يعبدون الأصنام فمعنى إيمانهم هاهنا الإقرار بالله عز وجل فقط لا الإيمان التام بإقامة الشرائع وأداء الفرائض. وفى تفسير ابن عباس فى هذه الآية قال كانت العرب فى الجاهلية إذا لبى أحدهم قال: لبيك اللهم لبيك لبيك لاشريك لك إلا شريك هولك تملكه وما ملك .

* **مسألة** : فإن قال فما معنى قوله عز وجل « هذا صراط علىَّ مستقيم» قيل له قد اختلف القراء فى ذلك فأكثرهم بفتح الياء من على، وروى عن زياد بن

أبى مريم وعبدالله بن كثير أنهما قرآها كذلك، وقال على هى إلى وقال ابن الكلبى هو كما تقول الطريق على وأنا على الطريق ، وقال الفراء يقول مرجعكم إلى فأجازيهم. وهو كقوله تعالى « إن ربك لبالمرصاد » وروى عن ابن سيرين وقتادة وقيس بن عباد صراط عليٌّ بإعراب الياء يجعله نعتا للصراط أى رفيع شريف .

* **مسألة :** فإن قال فقوله تعالى : « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم » ومثله « وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم » كيف جاز على الحكيم مع قوله تعالى : « ولاتزر وازرة وزر أخرى » قيل له قال قطرب فى ذلك: ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار إضلال الذين يضلونهم بغير علم وهذا شبه بقوله تعالى « واسأل القرية » أى أهل القرية وقال المفضل ليحملوا أوزارهم أى يأتوا بآثامهم فيعاقبوا عليها ومن أوزار الذين يضلونهم أى يأتوا أيضا بآثام من أضلوا فيعاقبوا عليها من غير أن ينقص من آثام أولئك شىء، وكذلك كل من أضل إنسانا كان عليه مثل وزره من غير أن ينقص من وزر ذلك شىء، وكذلك من هدى أحدا إلى خير فعمل به كان له مثل أجره من غير أن ينقص ذلك من أجره شيئا .

* **مسألة :** فإن قال فقوله تعالى : «وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها» أيأمر بالفسق وهو تعالى يقول «إن الله يأمر بالعدل والإحسان» قيل له قال قطرب وغيره المعنى أمرناهم بالطاعة ففسقوا فيها، وهى قراءة أبى عمرو بن العلاء أمرنا يخفف على الأمر ووجه آخر وهى قراءة الحسن أمرنا وهى ممدودة أى كبرنا وقراءة أبى العالية أمرنا أى سلطنا وقالوا فى معنى الكثرة أمر القوم يأمرون أمرا أى كثروا وقالوا فى مثل لهم : الشر أمر أى تام زائد ، وقال لبيد :

إن يغبطوا يهبطوا وإن أمروا   يوما يصيروا للهلك والنكد

معناه وإن كثروا يوماً ، قال زهير :

والإثم مــن شــر ما يصال به   والبــر كالغيث نبته أمرّ

أى كبير .

* **مسألة :** فإن قال فقوله تعالى : « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » أليس قد أرسل بالآيات فقال تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر*وإن يروا آية يعرضوا » وقال تعالى : « وما يأتيهم من آية من آيات ربـهم إلا كانوا عنها معرضين » قيل له قيل معنى ذلك ما منعنا أن نرسل بالآيات التى سألك قومك إلا أن كذب بها الأولون ، فأهلكناهم لما كذبوا بها ، يقول تعالى : فلو أتيناهم بآية فلم يؤمنوا أهلكتهم كما أهلكت من كان قبلهم .

* **مسألة :** فإن قال فقوله تعالى : « وننزل من القرآن ما هو شفاء » بعض شفاء دون بعض؟ قيل له قال المفضل معناه الذى ننزله إليك من القرآن أولا فأولا هو شفاء لهم دون استكماله لأنه لم ينزل جملة واحدة فأراد عز وجل أن ما ينزل منه شفاء ورحمة للمؤمنين إلى أن يستكملوا تنزيله . قال وقال قطرب : معنى من الطرح كقوله « تعالى نكفر عنكم من سيئاتكم» «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى» المعنى نكفر عنكم سيئاتكم واتخذوا مقام إبراهيم مصلى، والأول أحسن وأصح فى المعنى لأن من إنما تدخل فى الكلام التام فأما فى الناقص فلا وهذا مفصل بقوله عز وجل « ما هو شفاء ورحمة » ألا ترى أنك لو قلت ننزل القرآن ما هو شفاء لم يجز كما تقول نكفر عنكم سيئاتكم واتخذوا مقام إبراهيم مصلى يقول ذو الرمة :

تبسمن عن نور الأقاحى فى النوى   وفترن من أبصار مضروجة كحل

أراد وفترن أبصارا مضرجة أى ملطخة .

* **مسألة :** فإن قال فقوله تعالى : « كلما خبت زدناهم سعيرا » ثم قال فى آية أخرى «لايخفف عنهم من عذابها » والخبو السكون قيل له قال المفضل معنى ذلك والله أعلم أنها إذا أكلت جلودهم ولحومهم فلم يكن لها ما يلتهب فيه فلم تبق من حرها إلا ما يصل جلودهم فيستعر فيها لا أنها تطفأ عنهم ولايخفف عنهم من عذابها فقال خبت النار تخبو خبوا إذا سكن لهيبها قال القطامى :

وكنا كالحريق أصاب غابا   فتخبو ساعة وتهب ساعا

ساع جمع ساعات .

* **مسألة :** فإن قال فقوله تعالى «إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون» أليس قد عبدت الملائكة وعبد عيسى بن مريم عليه السلام فما معنى ذلك ؟ قيل له قال الكلبى عن ابن عباس إن النبىﷺ قام مما يلى الكعبة ثم قرأ هذه الآية فوجد منها أهل مكة فدخل عليهم عبدالله بن الزبعرى الشاعر ، وهم يخوضون فيها فقال لو كنت هاهنا لخصمته فلقيه فقال: يامحمد أرأيت ما قلت لقومك آنفا أخاص لهم أم عام فقال بل عام لمن عبد شيئاً من دون الله قال هذه النصارى تعبد عيسى فعيسى والنصارى فى النار واليهود تعبد عزيرا فعزير واليهود فى النار وبنو مليح من خزاعة يعبدون الملائكة فالملائكة وهم فى النار. فسكت ﷺ ولم يجبهم فقال ابن الزبعرى خصمتك، فضحكت قريش بذلك ، ونزل قوله عز وجل « ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون » أى يضحكون فأنزل الله فى جواب قولهم :

«إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون » الحسنى الجنة . يعنى عيسى ابن مريم والملائكة عليهم السلام فأخبره النبى ﷺ بذلك فقال : هلا إذ سألتك قلت هذا ولكن تذكرت إذ خلوت .

وقال قطرب: العرب إنما توقع ما فى أكثر كلامها على غير الآدميين فكأنه قال عز وجل إنكم وما تعبدون من دون اللّه من الأصنام والحجارة يعنى الحجارة التى عبدوها من دون اللّه يعذبون فى جهنم .

* **مسألة** : فإن قال لقوله عز وجل : « فإن له نار جهنم لايموت فيها ولا يحيي » فيكون شيء ليس بحى ولا ميت ؟ قيل له قال المفضل وقطرب أى لايموت فيستريح ولا يحيي حياة تنفعه .

* **مسألة** : فإن قال لقوله عز وجل : « أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم خالدون » كيف جاز أن يسميهم وارثين وإنما الميراث للحى من الميت. قيل له قال ابن عباس إنه ليس أحد من بنى آدم إلا وقد أعد الله عز وجل له أهلاً ومنزلاً فى الجنة على العمل بطاعته، فمن أطاع منهم صار إلى ذلك الأهل والمنزل الذى أعد فى الجنة ، ومن عمل منهم بمعصية اللّه صار إلى النار ، وكان ما أعدّ له لأهل الجنة إلى منازلهم التى أعدها اللّه تعالى لهم ، وذلك قوله عز وجل : « أولئك هم الوارثون » .

* **مسألة** : فإن قال فقوله عز وجل : « أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون » كيف يسبقون الخيرات ، قيل له المعنى غير ذلك كأنه قال تعالى وهم إليها سابقون، ومثله فى القرآن كثير ومنه « إنا سمعنا منادياً ينادى للإيمان » أى إلى

الإيمان ، ومثله « بأن ربك أوحى لها » أى المعنى أوحى إليها قال الأعشى :

وما عبدت من أهلها لسوائكا. ووجه آخر « وهم لها سابقون » أى من أجلها سابقون ، كقولك فعلت هذا لزيد أى من أجل زيد قال النمر بن تولب :

ما كنت أجدع للخليل بخلة   حتى يكون لى الخليل جدوعا

وقال عمر بن أبى ربيعة :

وخطة خسف يجعل الموت دونها   يقول لها للموت أهلاً ومرحبا

الخسف الضيم ، وقال آخر :

وقمير بدا ابن خمس وعشرين   له قالت القناتان قوما

أى بسبب طلوعه .

* **مسألة :** فإن قال فقوله عز وجل : « وهو أهون عليه » أيكون شىء أهون عليه من شىء ؟ قيل له قال ابن عباس وغيره يقول كل هين عليه أول خلقه إذ لم يكن شيئاً وآخره إذ لايكون شيئاً ، وذلك موجود فى الشعر وقال ذو الرمة :

أخا فقرات ذيبت فى عظامه   شقافات أعجاز الكرى فهو أخضع

يريد فهو خاضع ، والشقافات بقيات والشقا فة الباقية من كل شىء ، وأعجاز الكرى أواخره ، قال لبيد :

لعمرك ما أدرى وإنى لأوجل   على أينا تعدو المنية أول

قوله أوجل يريد وجل، ومثله كثير، قال ابن عباس لايقال هذا هين عليه وهذا شديد عليه كل ذلك هين عليه، وقال أبو عبدالله هذا التفسير يسمى المختصر،

يقول: وهو أهون عليكم أنتم يابنى آدم .

* **مسألة :** فإن قال فقوله تعالى « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض فى يوم كان مقداره ألف سنة » وفى آية أخرى « تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » ما معنى هذا الاختلاف قيل قال ابن عباس وغيره ينزل الملائكة ثم تصعد فى يوم أو بعض يوم وكان مقدار مسيرة ذلك اليوم ألف سنة مما تعدون، لأن بعد السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام لابن آدم فإذا قطعته الملائكة عليهم السلام نازلة وصاعدة في يوم واحد فقد قطعت مسيرة ألف سنة، وأما قوله في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فهو يوم القيامة قال قطرب يقول تعالى لو كان محاسبة العباد إلى غيره عز وجل لكان حاسبهم فى خمسين ألف سنة، والله تبارك وتعالى يحاسبهم فى أسرع من الطرف كما قال جل ثناؤه : « وهو سريع الحساب » قال الكلبى: مقدار ذلك اليوم عند الخلق فى فصل القضاء خمسون ألف سنة. قيل معناه تعرج إلى المكان الذى لايتولى الحكم وإنفاذ الأمور فيه إلا هو، فإن قال بماذا كان ما يصعد يقال يصعد ويعرج إليه وما ينزل لايقال أنه ينزل إليه بل يقال إنه ينزل من عنده، قيل له لأنه جعل مكان تدبيره وما ينزل من وحيه إلى الأرض وأخباره السماء وإن لم تكن السماء مكانا له، وكان ما ينزل من السماء إلى الأرض من أمره وأحكامه إنما يملك عباده الحكم فيه والقيام بإنفاذه فلهذا كان الأمر ينزل من قبله من السماء إذ كان مكان الأمر السماء وإن لم يكن السماء مكانا له، وكان ما ينزل إلى الأرض لايقال أنه ينزل إلى الله إذ كان إذا أنزله ملك عباده القيام به فلهذا كان نازلاً إليهم لا إليه ، فإذا عرج إلى السماء قيل له يعرج إليه لأنه لايملك أحد الحكم فى ذلك غيره .

* **مسألة** : فإن قال فما معنى قول الله تعالى : « من الله ذى المعارج » قيل له المعارج هى الأمكنة المرتفعة ويدل على ذلك قوله تعالى : ومعارج عليها يظهرون » يعنى أماكن مرتفعة والله خالقها نحو السماء والعرش وغير ذلك ، وإن لم يكن هذه الأماكن أماكن له لأنه لايحتاج الأماكن وهى أماكن لتدبيره ولصنعه ولمن أسكنهم فيها من ملائكته وخلقه ، فهو ذو الأماكن المرتفعة إذ كان خالقاً لها كما أنه كان خالقا للفضل العظيم الذى أنعم به على عباده، قال إنه ذو الفضل العظيم وإن كان هذا الفضل هو فضله على عباده وكان اللّه عنه غنيا، وكذلك قوله تعالى رفيع الدرجات يعنى الدرجات التى يعطيها اللّه أنبياءه وأولياءه فى الجنة لأنها درجات رفيعة، وقوله ذو العرش يعنى خالق العرش ومالك العرش وهو غنى عن العرش، وعما وصفه به المشبهة من الكون على العرش تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا .

* **مسألة** : فإن قال فما معنى قوله عز وجل « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه » قيل له إن الله تعالى جعل موضع تدبيره للأمور التى ينزلها إلى عباده السماء فأنزل إليهم الأمور من السماء مع الملائكة عليهم السلام ، وملكهم القيام بها فإذا كان يوم القيامة كانت الأمور كلها راجعة إليه لأنه لايملك إنفاذها فى الآخرة غيره، فلهذا جاز أن يقال أن الأمور راجعة إليه ، وعرجت إليه لأنها إلى المكان الذى لاينفذ الأمور فيه غيره ، وإن يكن معنى ذلك على ما تذهب إليه المشبهة من ذلك أن اللّه تعالى فى مكان مرتفع .

* **مسألة** : فإن قال فما معنى قوله عز وجل : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » قيل له معنى ذلك أنه يصعد إلى المكان الذى لايتولى الحكم وإنفاذ الأمور فيه إلا هو جل وعز. فإن قال: فما معنى الصعود به مكتوبا إلى المكان

الذى لا يتولى الحكم فيه إلا هو تعالى ؟ قيل لأنه لايحكم بين العباد يوم القيامة غيره ، وكذلك معنى قوله سبحانه وتعالى « إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون » فى المكان الذى لا يتولى الحكم فيه بينهم غيره عز وجل . فجميع ما بينا من هذا التأويل لا يقدر أحد أن يرد صحة ذلك ومجازه من جهة اللغة والله أعلم .

* **مسألة :** فإن قال فما معنى قوله عز وجل : أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ، قيل له معنى ذلك أنه حافظ عليها كسبها كقوله تعالى : « مادمت عليه قائما » حافظاً له ، وقال الشاعر :

أتيتك لامستعتبا من إساءة   يقوم بها قوم على ولاذنب

* **مسألة :** فإن قال فما معنى قوله عز وجل «وكان الله عليماً حكيماً» وعزيزا وقديراً وما أشبهه أو ليس كان لما مضى ؟ قيل قد تجيء كان على وجوه كثيرة لما مضى ولما حدث ساعته ولما لم يجيء بعد فى موضع يكون. ويكون بمعنى الوجوب فيكون دخولها وخروجها واحدا إلا أن عملها فى رفع الاسم ونصب الخبر كقوله الله عز وجل «وكان الله غفوراً رحيماً » وأشباه ذلك ليس لشيء ماض ولكنه واجب دائم أبداً ومنه «كنتم خير أمة أخرجت للناس» ومنه «نكلم من كان فى المهد صبيا» أى هو فى المهد صبياً ويكون صلة دخولها وخروجها سواء والمعنى واحد قال عز وجل « واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم » والمعنى واحد لأن المخاطبين المؤمنين قال الفرزدق:

فكيف إذا رأيت ديار قوم   وجيران لنا كانوا كرام

فألغى كان كما ترى ولواستعملها لنصب كراما، فقول الله عز وجل وكان الله عزيزاً حكيما هو فى قول بعضهم على معنى الوجوب وقول بعضهم على إلغاء كان

لأنها صلة فالمعنى « الله عزيز حكيم » ودخول كان وخروجها سواء والله أعلم .

* **مسألة** : فإن قال فما معنى قوله عز وجل : « ذق إنك أنت العزيز الكريم» كيف جاز أن يمدحه وهو معذب؟ قيل له ليس هذا بمدح إنما معناه ذق إنك أنت العزيز الكريم بزعمك، وعن ابن عباس أنه قال نزلت هذه الآية فى أبى جهل بن هشام ، وذلك أنه قال أنا أمنع أهل هذا الوادى وأعزه وأكرمه يعنى مكة فأنزل اللّه عز وجل فيه هذه الآية ، ويكون هذا القول لأبى جهل وهو فى النار توبيخا له لا مدحاً والله أعلم .

* **مسألة** : فإن قال فما معنى قوله عز وجل : « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » وقوله تعالى فى آية أخرى : « خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى » فما مجاز ذلك؟ قيل له قال المفضل والفراء وقطرب البصر هاهنا العلم تقول كنت تكذب فأنت اليوم عالم بالأمر نافذ البصر فيه ، وهذا كقول القائل فلان له بصر نافذ يعمل كذا أى هو بصير به ومثله قوله عز وجل : « أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا » أى ما أسمعهم وأبصرهم يومئذ يقول: هم سمعاء بصراء لأن الشك قد زال عنهم وأما قوله تعالى « خاشعين من الذل » الآية فهو كما قال عز ذكره .

* **مسألة** : فإن قال فما معنى قوله عز وجل : « سنفرغ لكم أيها الثقلان » أشغله شيء عن شيء؟ قيل له هذا وعيد وتهدد ليس فراغا من شغل كقولك للرجل سأفرغ لك وأنت غير مشغول ، والعرب تقول أتفرغ وأفرغ، وقرأ جماعة سيفرغ بالياء أى سيفرغ الله لكم واحتجوا بقوله تعالى «كل يوم هو فى شأن» وقال أبو عبيدة سنفرغ لكم سنحاسبكم لم يشغله شيء تبارك وتعالى، وقال ابن قتيبة سنقعد لكم

وقال ابن عباس سنفرغ لكم من محاسبتكم يوم القيامة إن الله تعالى لايشغله شيء عن شيء من خلقه .

* **مسألة :** فإن قال فما معنى قوله عز وجل «وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون» قيل له معناه ما قال ابن عباس قال وتجعلون رزقكم أى شكركم لما أنزلت عليكم أنكم تكذبون به وهى لغة، أراد تنسبونه فيما حكى الهيثم بن عدى يقال ما رزق الله فلان أى ما شكره، فإن قال فقوله عز وجل : « هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس » وجميع ما مدح به نفسه تعالى فى القرآن أليس مدح النفس مذموماً معيباً عند أهل العقل؟ قيل له قال قطرب فى ذلك إن مدح النفس إنما قبح من الآدمى الناقص فى كل ما مدح به نفسه لأنه إن قال أنا الجواد فثم بخل وإن قال شجاع ففيه جبن وإن قال غنى فثم فقر وإن قال قوى فثم ضعف والله تبارك وتعالى جائز أن يمدح نفسه من وجهين أحدهما أنه إذا قال أنا الكريم الرحيم العليم الغنى وغيرهذا من صفاته كان فيه ذلك كله لانقص ثم ولاجلد، وهو كما وصف به نفسه ومع ذلك أنه لا يريد بوصفه اجتلاب منفعة ولادفع مضرة لأنه الغنى عن خلقه وهم الفقراء إليه جميعا فلما كان جل ثناؤه وعز ذكره مباينا للمخلوقين فجميع صفاته حسن وجاز المدح منه ليعرف ذلك خلقه ليعبدون ويعظموه .

* **مسألة :** فإن قال فقوله عز وجل « وجعل القمر فيهن نوراً » أليس إنما هو نور فى السماء الدنيا وما بينها وبين الثانية خمسمائة عام وبينهما وبين الثالثة السماء الدنيا حجاب فكيف قال تعالى جعل القمر فيهن نورا قيل له قال الكلبى معنى فيهن أى معهن وليس هو من شيء فى السماء ولكنه على حده يضيء لهم بالليل والشمس سراج لهم بالنهار، قال قطرب ومثله قوله عز وجل « ولو خرجوا فيكم

مازادوكم إلا خبالاً ، أى لو خرجوا معكم وحروف الجر يدخل بعضها على بعض ، ويكون المعنى واحدا قال النابغة :

فلا تتركنى بالوعيد كأننى   إلى الناس مطلى به القار أجرب

أراد كأننى مع الناس وقال عكرمة يضيء القمر فيهن كلهن كما أنه لو أن سبع زجاجات بعضهن فوق بعض وأسفل منهن شهاب أضأن كلهن من صفائهن ، ومعنى السراج الضوء يقال أسرج سراجا إذا أضاء وأنشد الفراء وغيره :

إذا ما بدا فى الليل أسرج وجهه   لنا فى دجى الظلماء حتى تجلت

* **مسألة :** فإن قال فما معنى قوله عز وجل ، وإنه تعالى جد ربنا ، قيل له قال ابن عباس قال الكلبى تعالى ارتفع وجد ربنا عظمته ، وقال إبراهيم وقتادة والسدى أمر ربنا قال أمية بن أبى الصلت:

تعالى جد ربكم فصلوا   فليس صلاة ربكم تعاب

والجد أيضا الحظ فى كلامهم وقال :

اغزوا بنى ثعل فالغزو جدكم   وابنوا المعالى ولاتبكوا لمن قتلا

* **مسألة :** فإن قال فما معنى قوله عز وجل ، إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا ، قيل له قال الكلبى أى كلاما شديدا قال الحسن أى العمل به ثقيل إن الرجل ليتلو السورة ولكن العمل بها ثقيل ، وكذلك قال قتادة ثقيلة فرائضه وحدوده .

* **مسألة :** فإن قال فما معنى قوله عز وجل ،هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا، قيل له قال الكلبى عن ابن عباس لم يكن شيئا مذكورا أن يقال فلان فيذكر لكن كان شيئا غير مذكور ولو لم يكن شيئا ما أتى

عليه حين. قال قطرب: هذا كقول القائل: أتى على فلان دهر ولو لم يكن شيئا أى لم يكن له ذكر عند الناس وقد كان شيئا ولكنه يريد أنه لم يكن مذكورا .

* **مسألة :** فإن قال فقوله عز وجل : « أفلا ينظـرون إلى الإبل كيف خلقت» كيف خص الإبل من الحيوان وفيها ما هو أعظم خلقا منها؟ قيل له كان ابن عباس يقول أنه لاينهض بحمله وهو بارك غير البعير، وقال المفضل عجبهم تعالى من الإبل يحمل وقرها باركة فيعلمون أن لها صانعا أفردها بذلك من له لب علم أن للأشياء صانعاً يخالف بين خلقها ولو لم تكن كذلك لكانت الدواب وغيرها من الأجناس على خلق واحد .

* **مسألة :** فإن قال فما معنى قوله عز وجل : « إنا نحن نحيي الموتى » ونحن نحيي ونميت وإنا خلقناهم من طين لازب وإنا من المجرمين منتقمون وأمثال ذلك مما فى القرآن وهو سبحانه وتعالى وحده الفاعل لجميع ذلك لم يشركه فى فعله أحد سواه . فكيف يجوز أن يخبر عن نفسه على سبيل الإخبار عن الجميع وإنما أخبر هو عنه وحده؟ قيل له قد يجوز ذلك فى سعة اللغة لأن المخبر قد يجوز أن يذكر الخبر الذى مخرجه مخرج العام ويريد به الخاص إذا بين المخبر إرادة من المخصوص وأن يذكر الخبر الذى يخرجه المخبر الخاص ويريد به العموم إذا بين المخبر إرادة من العموم وذلك موجود فى كلام أهل اللغة وفى القرآن فمن ذلك قوله عز وجل «يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين» وهو يعنى به عالم أهل زمانهم ومنه قوله تعالى «إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون» وهو يعنى بهم قوماً مخصوصين من الذين كفروا لأن من الكفار من قد آمن بعد ذلك، ومنه قولهم من حارب الأبطال قتل ومن

يلق أبطال الرجال يكلم؛ لأن هذه الأخبار هى خصوص على سبيل الغالب فى مجازهم وليس يعنون به العموم لأنهم قد يجدون من يحارب الأبطال فيسلم من القتل والجراح، وقد أخرجوا مع ذلك أخبارهم مخرج الأخبار العامة فى سعة اللغة ومجازها وقد يذكر الخبر الذى مخرجه مخرج الخاص ويعنى به العموم سعة ومجازاً لها فمن ذلك قوله تبارك وتعالى «يغفر لكم من ذنوبكم» وهو يعنى يغفر لكم ذنوبكم كلها لأنهم لا يستحقون الجنة كما وعدها إلا وذنوبهم مغفورة ، وقوله عز وجل «يصبكم بعض الذى يعدكم » ولابد من أن يصيبهم كل الذى يعدهم لأن وعده تعالى لا يكون له خلف فذكر البعض وهو يريد الجميع .

وقوله تعالى « قل للمؤمنين يغضُّوا من أبصارهم » لأنه لم يبح للمؤمنين أن ينظروا إلى ما حرّمه اللّه عليهم ببعض أبصارهم دون بعض . وكذلك قول لبيد :

تراك أمكنة إذا لم أرضها   أو يعتلق بعض النّفوس حمامها

والحمام لا يعتلق البعض لأنه الموت ، والموت يأتى على جميع النّفوس ، فلما جاز فى سعة اللّغة أن يخرج الخبر الذى مخرجه مخرج الخاص ، وهو يريد العموم، وأن يذكر الخبر الذى مخرجه العام وهو يريد الخصوص جاز فى سعة اللغة أن يقول اللّه تعالى إنا خلقنا وإنا فعلنا، وإن كان يريد بذلك الإخبار عن نفسه وحده دون غيره . وقد وجدنا مثل ذلك فى كلام أهل اللّغة لأن السّيد منهم قد يقول لبعض أتباعه أكرمناك فما كافأتنا وجنيت علينا فما كافأناك وهو يعنى نفسه بهذا القول على سبيل ما بيّنا من جواز ذلك فى سعة اللّغة ، قال الشاعر :

إنا وما أعنى سواى يا بنى   شهاب بنى عجلان فى المجد ثاقب

* **مسألة** : فإن قال فما معنى قوله عزّ وجل ، نسوا اللّه فنسيهم ، قيل له : النّسيان على وجهين أحدهما نسيان إغفال وسهوة والآخر نسيان ترك . فاللّه سبحانه منفى عنه الإغفال والسّهوة ، فأما النّسيان الذى بمعنى الترك فنحو قوله تعالى ، نسوا اللّه فنسيهم ، يعنى أنهم تركوا طاعة اللّه فترك اللّه ثوابهم ، وكذلك ، فاليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ، أى نترككم من الخير والرحمة كما تركتم العمل لمعادكم وكذلك ، ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ، أى فترك أمر اللّه عز وجل .

* **مسألة** : فإن قال: فما معنى قوله عز وجل ، قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى، قيل له معناه لا أسألكم إلى ما دعوتكم إليه أجرا ولا المودة فى القربى ولا أن تودونى فى قرابتى جزاء لما أدعوكم إليه ، فيكون تلك المودة جزاء لذلك ، ومعنى الأولى قال عمر بن معدى كرب:

وكل أخ مفارقه أخوه　　لعمر أبيك إلا الفرقدان

يقول ولا الفرقدان باقيين ولابد أن يفترقا . وقال أبو عبيدة وغيره إلا الفرقدان أى والفرقدان يفترقان أيضا ، والألف فى موضع الواو .

* **مسألة** : فإن قال فما معنى قوله عز وجل ، يخرجهم من الظّلمات إلى النّور ، ، ومن النّور إلى الظّلمات ، وهم كفّار لم يكونوا فى نور قط، فكيف يخرجون مما لم يكونوا فيه ، قال قطرب : والمعنى فى ذلك كما يقول الرجل لصاحبه أو لأبيه: أخرجتنى من مالك أو من بيتك ، ولم يكن فيها قط وشبه به فى مذهبه قوله عز وجل ، ثم يرد إلى أرذل العمر ، ولم يكن فى تلك الحال قط ، وقوله عزّ وجلّ ،عاد كالعرجون القديم ، كأنه قال حتّى صار مثل ذلك ، قول الشاعر :

أطعت العرس فى الشهوات حتى　　أعادتنى عسيفا عبدَ عبدُ

ولم يكن عبدا قط ، قال امرؤ القيس :

وماء كلون البول قد عاد آجنا   كثير به الأصوات فى كلأ محلى

فقال عاد آجنا يريد صار آجنا ، وقال الغنوى :

فإن تكن الأيام أحسنّ مرة   إلىّ فقد عادت لهن ذنوب

وقال المفضل قال الحسن أخرجهم إياهم ما يأمرون به ، وهذا لا يقال له إخراج ولكن منعهم إياهم من الدخول فيه إخراج ، وهذا من كلام العرب ، أن يقول الرّجل لصاحبه: قد ضمنت القوم دم فلان أخرجتك منه، أى لم أدخلك فيه . ومثله كثير .

وقال ابن عبّاس كان المؤمنون قبل أن يسلموا فى ظلمة الشرك فلما أسلموا أخرجهم الله من ظلمة الشرك إلى نور الإيمان ، والذين كفروا يعنى اليهود أولياؤهم الطاغوت ، يعنى كعب بن الأشرف وأصحابه من الأحبار أخرجوا سفلة اليهود من نور الإسلام وكتموهم بعث محمّد ﷺ ونهوهم من اتباعه ، فقوله تعالى «يخرجونهم» من هؤلاء الأخبار من النور إلى الكفر والإنكار ، وأمروهم بلزوم اليهوديّة ومنعوهم الإسلام .

* **مسألة :** فإن قال معنى قوله عز وجل « إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك» وهو تعالى يقول « ولا تزر وازرة وزر أخرى » قيل له قال المفسّرون فى ذلك بإثمى أى بإثم قتلى وإثمك الذى تقدم ، مثل قوله تعالى « اسأل القرية » ، أى اسأل أهلها ، فإن قال: أكان يريد كون المعصية من أخيه؟ قيل له: قال المفسرون ما أراد ذلك ولا كان قوله تمنيا لذلك ، ولكنه ضعف عن الانتظار وطلب السلامة فعبر عن هذه الحال بالإرادة ، وقال قطرب: كأنه قال إن قتلتنى فأنا أريد أن يلزمك إثم قتلى ،

وقال المفضل إنما أراد ذلك لما كفر بالله ولم يطع أمره أراد قتله ليموت شهيداً ويبوء قابيل بالشرك والقتل ليكون أشد لعذابه ، وذلك من الغيظ عليه لما خالف أمر الله عز وجل ، وقال ثعلب غير هذا كله ، قال : المعنى إنّى لا أريد أن تبوء بأثمى وإثمك كقوله تعالى « يبيّن الله لكم أن تضلوا » يعنى ألا تضلّوا ، وقال المفضل فى هذه الآية أى لئلا تضلوا، ويصلح فى موضع أن لا ولئلا ولا فإذا رأيتها يصلح مكانها لئلا صلحت فيها هذه الوجوه ، وإذا صلح فى مكانها لأن لم يصلح فيها ، وقال ابن الأنبارى فى معنى هذا ، قال الله عز وجل « رواسى أن تميد بكم » معناه أن لا تميد بكم . قال الشّاعر :

رأينا ما يـرى البصـراء فيـها   فآليـنـا عليـها أن تـبـاعــا

معناه أن لا تباع . قال عمر بن كلثوم :

نزلتـم منـزل الأضيـاف منّا   فعجلـنـا القـرى أن تشتمونا

معناه أن لا تشتمونا . وقال الراعى :

أيام قومى والجماعـة كالّـذى   لـزم الرّحـالة أن تميل مميلا

معناه أن لا تميل. يقول : أيام قومى وتمسكهم بالجماعة كالذى لزم الرحالة أن تميل من النّعاسس ، والرحالة مركب للبعير من مراكب النساء ، والرحالة أيضا فى أشعار العرب السرج ويروى : أزمان قومى ، ويروى الجماعة بالنّصب فمن نصب أراد مع الجماعة ومن رفع نسقه على القوم ، رفعهما جميعا بما فى الكاف من الذكر.

* **مسألة :** فإن قال فما معنى قوله عز وجل « الآن خفف الله عنكم وعلم

أنّ فيكم ضعفا ، أعلم الله الآن وقبل ذلك لم يعلم ، قيل له ليس الأمر على ما توهمت . والمعنى فى ذلك قد علم الله أن فيكم ضعفاً فالآن خفّف اللّه عنكم ، والآن وقع على التخفيف لا على العلم ، وإن كان قدم التخفيف ثم عطف على العلم، وإنما أراد قد علم أن فيكم ضعفاً فالآن خفف الله عنكم ، وهو على التقديم والتأخير ، كقوله تعالى « الحمد للّه الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيمًا » فقدم عوجاً ثم قال قيّما ، فهذا معنى قوله تعالى وهذه مسألة : يغالط فيها الملحدون وغيرهم .

* **مسألة :** فإن قال فما معنى قوله تعالى حكاية عن إبليس لعنه اللّه « إنى أرى ما لا ترون إنى أخاف اللّه » كيف يقول إنى أخاف اللّه وهو كافر ، قيل له إنه ظن أن الوقت الذى أنظر إليه قد حضر .

* **مسألة :** فإن قال فما معنى قوله تعالى « فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ، إنما يريد اللّه ليعذّبهم بها فى الحياة الدّنيا وتزهق أنفسهم وهو كافرون » فكيف يعذبهم بها فى الحياة الدّنيا وهى ليست بعذاب عليهم إنما هى سرور ، قيل له يكون ذلك على التقديم والتأخير كأنّه قال تعالى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم فى الحياة الدّنيا إنما يريد اللّه ليعذبهم بها فى الآخرة ، وكذلك قوله « فألقه إليهم ثم تولّ عنهم فانظر ماذا يرجعون » وإنما المعنى فانظر ماذا يرجعون ، ثم تول عنهم ، وقال أوس ابن حجر :

أما حصان فلم تضرب بكلتها قد طفت فى كل هذا الناس أحوال

على امرئ سوقة ممن سمعت به أبدى وأكمل منه أى إكمال

وقد يجوز فيه وجه آخر ، إنما يريد الله ليعذبهم بها ، بما يكلفهم من فرضها وحقوقها ، ليكون ذلك عذابا عليهم للنّفاق وخبث القلوب .

* **مسألة** : فإن قال فما معنى قوله تعالى « ألم يجدك يتيما فآوى * ووجدك ضالاً فهدى » قيل له معناه والله أعلم ألم تكن يتيما فعرفك وأكرمك بالنبوة . ولا أنه كان غير واجد له ثم وجده ، هذا لا يجوز على الله تعالى ، والواجد فى اللغة هو العالم بالشىء فهذا جائز بأنه وجد الأشياء بأن علمها ، والواجد فى اللغة أيضا من يرى الشىء بعد إذ لم يره ، وأصابه أمر لم يكن أصابه قبل ذلك ، ألا ترى إلى قوله تعالى « حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده » يقول وجد ماوعده الله حقاً فوفاه حسابه ، ويقول كافأه على قدر فعله ، فهذا معنى لا يجوز على الله لايقال وجد الله الشّىء بعد إذ لم يجده كما وجد الكفار ما وعدهم الله وتوعدهم فى وقت دون وقت ، وقوله تعالى « إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أوّاب » قال بعضهم : المراد أى إنّى علمته صابرا ، وقال بعضهم إنه كان صابرا ولم يخف ذلك علينا فقدم وأخّر ، كما قال تعالى « حتى نعلم» وقوله «وليعلم الذين آمنوا منكم » والمعنى فى ذلك أن من آمن منكم ليس يخفى على الله فكذلك قوله تعالى إنا وجدناه صابراً ولم يخف ذلك على الله تعالى ، ولا يجوز أن يقال إنه يجد فى وقت دون ، كما قال « ووجدوا ما عملوا حاضراً » و دد يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا » لأن هذا وجود فجاءة تنزل عليهم ما لم يكونوا يعلمونه ولا يحسبونه ، وهذا لا يجوز على الله عز وجل ، وقوله تعالى « ووجدك ضالا فهدى » قال الفراء فهداك فحذف الكاف ، قال ابن عباس أى فى قوم ضلال فهداك لدينه ، وهذا فى كلام العام يقال فلان قاتل فلان أى من القوم الذين قتلوه ، وقالت جليلة بنت مرة أخت جساس بن

مرة ، وهى امرأة كليب ، وقتل جساس كليبا وقتل ابن كليب وهو ابنها ، فقالت :

إنـنـى قـاتـلــة مقتـولــة فلعل اللّـه أن يعطـف لــى

قاتلة أن أخاها قتل كليبا ومقتولة أن أخاها قتل، وهو كثير فى كلام العرب ، وما ضل رسول اللّه ﷺ قط وقال الحسن ووجدك ضالاً أى واقفاً لا تهتدى للنبّوة فهداك لها ، وكذلك قال الضّحاك ، قال المفضل وهذان التّفسيران عندى دالآن على أنّه ﷺ كان معصوما ما ضل قط ، ويقال: ووجدك ضالاً أى غافلاً كقوله تعالى «فعلتها إذاً وأنا من الضّالين » أى من الغافلين .

وقال اللّه عزّ وجل يصف نفسه « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » فنفى أن يشبهه شيء ، وقال تعالى « هل تعلم له سمياً » يعنى مثلا ونصيرا ، وقال عز وجل « فلا تجعلوا للّه أنداداً وأنتم تعلمون » أى أمثالاً وأشباها واحدهم ند ونديد ، قال جرير :

أتيـما تجعلـون إلــىّ نــدا وما تيـم لــذى حسـب نـديد

وقوله تعالى وأنتم تعلمون ، معناه وأنتم تعلمون أنه لا مثل له عز وجل ، وقال يخبر عن بعض الهالكين يقولون فى النار « تاللّه إن كنا لفى ضلال مبين* إذ نسوّيكم بوب العالمين » فأخبروا أنهم كانوا فى ضلال مّبين ، إذ سووا الخالق بالمخلوقين ، وشبهوا القديم بالمحدثين. وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : تفكروا فى الخلق ، ولا تفكروا فى الخالق، ألا إن التفكر فى الخلق يدل على أنه مخلوق ، وأن للمخلوق خالقاً بائنا من صفات المخلوقين ، وعن عبد اللّه بن مسعود عن النبى ﷺ أنه قال: أشد الناس عذابا المصورون . وروى عن الحسن أنه قال هم الذين صوروا

الله فى قلوبهم ، وعن عبد الله بن مسعود أنه قال ما عرف الله من شبهه بخلقه .
نافع أن عبد الله بن عمر كان جالسا فى أناس فأتى رجل فقال أيكم عبد الله فقال أنا فقال الرّجل إنى تاجر أبتغى من فضل الله وإنى قدمت هذه البلدة فإذا أنا برجل فتوسمت فيه الخير ، فقعدت إليه فحدّثنى حديثاً ضاق به صدرى ، فقال عبد الله وما هو فإنه لا إثم عليك إن حدثت عن غيرك ، قال قال إن الله تبارك لما أراد أن يخلق آدم لم يدر كيف يخلقه حتى خلق مرآة فنظر فيها إلى وجهه فخلق مثاله فقال ابن عمر تعالى الله تعالى الله لا مثل لله ، ألا إن هذا الشّيطان أراد أن يدخلك فى دينه ، ألا وإن الشيطان قد يئس منكم أن تتخذوا صنما ظاهرا فتعبدونه ، ولكنه يأتى الإنسان فيقول كيف ربك فلا يزال حتى يصف ربّه بصفة الخلق فيضل ويضل ، فإن لقيته فأخبره أن عبد الله بن عمر برىء من دينك ألا وإن نبى الله ﷺ ، سئل عن الله فقال الله عز وجلّ « قل هو الله* أحد الله الصمد » السورة ، فقولوا كما قال رسول الله ﷺ وعن معاذ بن جبل أنه قال : سيرجع أقوام من هذه الأمة عند اقتراب الساعة كفّاراً ،. فقال رجل يا عبد الرحمن أبالإحداث كفرهم أم بالجحود ، قال معاذ: لا ، ولكن بالجحود يجحدون خالقهم فيصفونه بالصورة والأعضاء والمفاصل أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولهم عذاب عظيم . قال المحبر ابن محبوب : أحب أن يسأل عن معنى الجحود .

* **مسألة :** قال المسلمون من شبه الله تعالى فهو كافر منافق وليس بمشرك، كذلك رفع عن أبى عبيدة ومحبوب ، ويوجد فى الأثر عن محمّد محبوب أنه قال : إذا قالوا أن لله تعالى يدا كيد المخلوقين فقد أشركوا والله أعلم ، وإنما لم يلحقوهم بالشرك لأنهم تأولوا آيات الله عزّ وجلّ على غير تأويلها فى اجتهاد منهم على أن

يوافقوا العدل فيها ، وهم مصدقون بتنزيل ما جهلوا تأويله ، متمسكون بما عرفوا طالبون لما لم يعرفوا .

فصل

سعيد بن جبير أنه قال: أتى رهط من يهود إلى رسول اللّه ﷺ فقالوا يا محمد هذا اللّه خلق الخلق فمن خلقه ؟ فغضب ﷺ ، حتى انتقع لونه ، ثم ثاورهم غضبا لربه ، قال فجاء جبريل صلّى اللّه عليهما فسكنه فقال خفّض عليك يا محمّد ، وجاء من اللّه جوابا لما سألوه عنه ، فقل هو اللّه أحد السورة .

وبلغنا أن عبد الله بن مسعود مّر بحلقة فيهم رجل يحدثهم فقال ما يحدثكم قالوا يحدثنا عن التّوراة وعن ربنا قال وعن ربكم بماذا؟ قالوا إنه لما خلق اللّه السموات والأرض صعد إلى السّماء من بيت المقدس فوضع رجله على الصخرة التى فيه ، وأنه ينزل إلى السّماء الدّنيا فى النصف من شعبان ، فقال ابن مسعود إنا للّه وإنا إليه راجعون ثلاث مّرات ، ثم قال لاكفر بعد إيمان ، ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ، فهلا قلتم كما قال إبراهيم خليل الرحمن ﷺ ، لا أحب الآفلين، يعنى الزائلين المنتقلين ألاّ فاتهموا اليهود والنّصارى على دينكم ، ولا تصدقوهم على ما يخالف كتابكم فإنّهم سيضلون من هذه الأمة. ألا إن ربكم ليس بزائل ألا إن من وصف اللّه زائلا فقد كفر ، ومن شبه به شيئا من الأشياء فقد كفر .

فصل

قال أبو المؤثر من خطر بباله أنّ اللّه تبارك وتعالى جسم هو أو ليس بجسم أو محدود أو غير محدود أو يعاين بالأبصار أو لا يعاين بالأبصار أو سمع يذكر هذا فعليه أن يعلم أن ليس كذلك . فإن جهل فلم يدر أجسم هو أم ليس بجسم أو محاط به أو يرى أو لا يرى فقد هلك ، وقال بشير بن محمد بن محبوب رحمهم اللّه ، إذا خطر ببالك خاطر في اللّه عز وجلّ أنه يشبه شيئا أو يشبهه شيء فانف ذلك عنه عز وجل ، فإنه تعالى يقول « ليس كمثله شيء » وإن دعاك الخاطر أن اللّه تعالى في معزل أو كيف هو ومثل ما هو أو هو نور من الأنوار ، أو ذو طول أو جسم أو مؤلف أو مماس للأشياء أو مباين لها في معزل فانف ذلك كله عنه عز وجل ، فإن هذه الأشياء لا يجوز شيء منها على اللّه عز وجل ، ومن كان فيه خصلة من هذه الخصال فهو محدث واللّه تعالى قديم لم يزل ، وإن دعاك الخاطر إلى أن اللّه تعالى يظلم أو يجور أو يأخذ أحدا بفعل أحد أو يعذب الوالد بفعل الولد أو يعذب الولد بفعل الوالد أو يعذب من لم يكن منه معصيه في الدنيا فانف ذلك عن اللّه عزّ وجل ، فإن هذه الأشياء لا يجوز شيء منها على اللّه لأن فاعلها لا يستحق أن يوصف بالحكمة والرّحمة ، واللّه عزّ وجل حكيم رحيم ، فإن دعاك الخاطر إلى أن اللّه جل ثناؤه يقول الكذب أو يخلف الميعاد أو يخبر بخبر لا يكون المخبر عنه كما أخبر فانف ذلك عن اللّه عزّ وجل ، فإنه لا يجوز عليه شيء من هذا لأن من كان منه هذا الفعل كان سفيهاً غير عالم بالغيب .

فصل

إن اللّه عز ذكره نفى عن نفسه شبه المخلوقين بجملة انتظمت نفى كل شبه آية محكمه غير متشابهة ولا منصرفة فى المعانى ، وهو إخباره أنه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، وفى هذه الآية دليل على تشابه الأشياء وتفاوتها واتفاقها والتفافها إذ مدح نفسه تعالى أنّه ليس كواحد منها ، ولم يستثن لطيفا من خليل ولا مضيئا من ظلام ولا حيا من ميت ، أشرك فى قوله الملائكة والجنّ والإنس والنور والظّلمة والشمس والقمر ، فقضى على جميعها بأنها لا تشبهه وأنه لا يشبهها فتعالى اللّه رب العالمين ، وإنما تشبه اللّه عزّ وجل من جهل اللّغة ومعانيها واتساع العرب فيها حين وجدوا ذكر النفس والوجه والعين واليد والقبضة واليمين ولكل شىء من هذا معان تبطل ما ذهبوا إليه من التشبيه ، وسنأتى ببيان ذلك بأدلة واضحة إن شاء اللّه . النّفس فى لغة العرب على معانٍ مختلفة منها ما يراد به النفس المنفوسة وهو قوله تعالى « كل نفس ذائقة الموت » ومنها ما يراد به التوكيد وهو قولهم هو الحق نفسه يريد هو الحق ، وكذلك لقيته بنفسى يريدون لقيته بنفسى ، ومنه قول موسى عليه السلام « ربّ إنّى ظلمت نفسى » أى ظلمت لا غيره ، والنفس الرأى والإرادة كقولهم نفس فلان فى كذا وكذا أى إرادته فيـــه وهو بين نفسين أى رأيين وإرادتين، ومنه قول الكميت تذكر الحمار . قال:

تذكر من أنى ومن أين شربه   يؤامر نفسيه كذى الهجمة الأبل

والنفس العين التى يصيب الإنسان ، والنفس الدم . ومنه قولهم نفست المرأة،

نفساء ، والنفس المنفوسة عن الله تعالى منفية لأنها لا تكون إلا المخلوقين ، لأنهم بها يحيون وبها يموتون ، والله تبارك وتعالى لا يشبهه شيء من خلقه تعالى عن ذلك ، فمن زعم أن لله نفسا غيره هى حالة فيه فقد أعظم على الله الفرية جلّ عما قال المبطلون .

* **مسألة :** فإن قال فما معنى قوله « تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك » وقوله عز وجل « ويحذركم الله نفسه » ، قيل له معنى ذلك فى التفسير: تعلم غيبى ولا أعلم غيبك ، ويحذركم الله عقوبته ، وقيل ولا أعلم ما نفسك أى لا أطلع على غيبك ، ويقال لا أعلم ما فى علمك ، وقال المبرد: تعلم ما أعلم ولا أعلم ما تعلم ، وقال المفضل تعلم ما عندى ولا أعلم ما عندك، وقال ويحذركم الله نفسه، أى يخوفكم الله إيّاه ، ونفس الشيء هو الشيء ، ومنه « ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم » أى ليقتل بعضهم بعضا وهو كثير فى الكلام ، قال الأعشى :

يوما بأجود نائلا منه إذا   نفس البخيل تهجمت سؤالها

المعنى إذا البخيل تهجم سؤاله ، وقوله عز وجل « كتب ربكم على نفسه الرّحمة » أى على ذاته لا على شيء سواه ومنه « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم » أى لذاتكم ولكم لا غيركم ، ومنه قول ذى الرمة حين احتضر ، قال :

يا قابض الروح من نفسى إذ احتضرت   وغافر الذنب زحزحنى عن النار

يعنى يا قابض الروح من جسدى وذاتى وجملتى لا غير ذلك ولا سواه ، وقال جرير :

وشبهت نفسك أشقى ثمود فقالوا ضللت ولم تهتدى

فى الفرزدق ، يقول شبهت أنت أشقى ثمود لا أن نفس الفرزدق غيره ، وقوله تعالى « كتب ربكم على نفسه الرحمة » ، هى مثل ذلك ، يقول حكم ربكم بالرحمة لمن أطاعه ، ولا يجوز أن يقال فرض اللّه على نفسه لأن الكتابة فرض ، ألا ترى إلى قوله تعالى «وكتبنا عليهم فيها أن النّفس بالنّفس » وقوله تعالى « كتب عليكم الصّيام»، وهذه كتابة فرض ، وقوله تعالى « لأغْلبَنَّ أنا ورسلى » يقول حكم اللّه ، والنفس أيضا القوة تقول العرب : ما له نفس أى قوة ويقال منه ، بيت امرئ القيس :

فلو أنها نفس تموت سوية ولكنها نفس تساقط أنفسا

الوجه: فى لغة العرب على معان أحدها يراد الشىء نفسه ، تقول العرب هذا وجه الأمر ووجه الرأى ووجه القوم ووجه المتاع إذا أخبرت عن الشىء بعينه ، وهذا وجه الطريق وهو الطريق نفسه ، ويقولون إنى لأكره أن أرد وجهك ، يراد به إنى لأكره أن أردك ، والمعنى الثانى يقول ما أعرض وجه فلان ولفلان وجه فى شرفه، يراد به الانبساط فى تجارته والقدر عند قومه ، والمعنى الثالث من الوجه فى الرأس، والمعنى الرابع يقال كيف وجه العمل فى هذا الأمر يراد من أى السّبل يؤتى له ، والمعنى الخامس يقال هو من وجوه قومه يراد من عظمائهم ، فكل هذه المعانى عن اللّه عز وجل منفية إلا المعنى الأول وإن وجه الشىء هو الشىء لا غيره .

* **مسألة** : فإن قال فما معنى قوله عزّ وجل « إنما نطعمكم لوجه اللّه » قيل له قال الكلبى : طلب ثواب اللّه ، وقال المفضل : أى لقصد رضى اللّه عز وجلّ. الوجه القصد إلى المعنى والعمل فيه ، وأنشد الفراء :

الحمد للّه شكرا لا انقطاع له   رب العباد إليه الوجه والعمل

قال غيره: لوجه اللّه أى للّه، وقال زيد بن عمرو بنفى الجاهلية الجهلاء قال :

أسلمت وجهى لمن أسلمت له المزن تحمل عذبا زلالا

أسلمت وجهى أى نفسى لمن انقادت له المزن . وقوله عز وجل ، فأينما تولوا فثم وجه اللّه ، فيه قولان أحدهما فثم وجه اللّه ، فثم اللّه ، والآخر فثم الوجه إلى اللّه يراد به فثم تلقاء الكعبة والوجه إلى اللّه عز وجل وقوله تعالى ، كل من عليها فانٍ* ويبقى وجه ربك ، معناه ، ويبقى ربك ذو الجلال والإكرام ، وقيل فى قوله عز وجل ، كل شىء هالك إلا وجهه ، كل الأعمال تضمحل وزائل نفعها إلاّ ما التمس به وجه اللّه عز وجل وتقرب به إليه ، وقيل كل شىء هالك إلاّ وجهه إلا اللّه عزّ وجل.

فصل منه

لا يجوز أن يكون عز وجل وجهاً على ما يعقل من وجوه الأجسام ، لأن اللّه تعالى ليس بجسم ولا يجوز عليه التبعيض، فيكون وجهه بعضه لأن من كان كذلك كان ذا تركيب وتصوير وكان تركيبه قاضيا على حدوثه، كما كان تركيب الأجسام قاضيا على حدوثها . لأن من جاز عليه الاجتماع جاز عليه الافتراق والاجتماع ، والاجتماع والافتراق هما غير المجتمع والمفترق ، فلابد من أن يكونا محدثين فلما كان اللّه عز وجل قديما لم يجز عليه الاجتماع والافتراق ، ولم يجز أن يكون ذا أبعاض ولا أن يكون جسما ولم يجز أن يكون ذا وجه على ما يعقل من وجوه الأجسام ، وكان قوله عز وجل ، كل من عليها فانٍ *ويبقى وجه ربك ، ، وكل

شيء هالك إلا وجهه ، إنما هو على جهة التّوسع والمجاز إذا كان عندهم مستعملا معروفا وهو يعنى إلا وجهه إلا هو ويبقى وجه ربّك ، مع أن بعض المشبهة من أهل الكوفة يحكى عنهم أنهم يقولون إن إلههم له وجه وأنه يعنى سائره إلا وجهه ، وفى هذا المذهب شعر مروى يذكر فيه هذا المذهب عنهم ، وإنما أتوا فى ذلك من سوء التأويل ومن جهلهم بالله جلّ وعلا ، كما أوتيت المشبهة من سوء تأويلها وجهلها بربها تعالى عمّا يقولون علوا كبيرا .

العين: فى كلام العرب على معان مختلفة كثيرة يطول بذكرها الباب وأنا ذاكر بعضها للحاجة إليه ، منها ما يراد به الجارحة وهى المركبة فى الرأس ، ومنها ما يراد به الحفظ والمشاهدة ، ومنها ما يراد به الدلالة ، ومنها ما يراد به العقوبة ، ومنها ما يراد به الجودة ، ومنها ما يراد به الجاسوس ، وغير هذا مركبة ، فالعين المركبة فى الرأس المصورة فهى عن الله تعالى منفية من قبل أن كل ذى جارحة محدود ، والله تعالى ليس بمحدود ولا مختلف ولا متغاير ولا متألف فهو قدير بذاته لا بقدرة سواه وعليم بذاته لا بعلم سواه وسميع بذاته لا بسمع سواه ، وبصير بذاته لا ببصر سواه ، وهذه صفة من ليس كمثله شيء ، وإنمّا احتجت المشبهة فى إثباتهم عينا جارحة بقوله عز وجل « ولتصنع على عينى » وبقوله تعالى « تجرى بأعيننا » وأنا ذاكر ما قاله أهل العلم فى التفسير فى ذلك وبالله التوفيق .

فأمّا ما يراد به الحفظ فهو قولهم أنت بعين الله يعنون أنت فى حفظ الله ومشاهدته ، أى أنت لست بخفى على الله هو معك يحفظك ، وأما العين التى يراد بها العقوبة فقولهم أصابتكم عين من عيون الله أى عقوبة ونقمة من نقمه ، وأما العين التى يراد به الدلالة فهو قولهم هذا عين العدوّ وهذا عين الخليفة ويريدون

بالعين هاهنا الإنسان نفسه ، وأما العين التى يراد بها الجودة ، فهو قولهم هذا عين ما لنا وإبلنا وبقرنا وغنمنا وعين السوق ، يريدون هذا خير مالنا وخير شيء في سوقنا ، ويقال أيضا لكل شيء عين ، ألا ترى أنهم يقولون عين من الأعيان مثل شيء من الأشياء .

فصل

وأما تأويل قوله عزّ وجل « ولتصنع على عينى » فقد قال ابن عبّاس: لتربى بكلاءتى ، وقال غيره علمي وحفظي ، وقال المفضل: تربى وتغذى على عينى أى بمرأى منى لا إلى غيرى يقال صنعت الصبّى والفرس إذا أحسنت غذاه حتى يستوى ، قال زهير يصف فرسا :

تميم صنعناه فأكمل صنعه   فتم وعزته يداه وكاهله

وقال أبوعبيدة: على عينى أى على ما أريد وأحب وأنشد فى صفة درع :

وقد نسجت على عينى

أى على ما أحببت وأردت ، كذلك تجرى بأعيننا ، معناه بحفظنا وعلمنا حيث لا يخفي علينا مكانها ، وكذلك فاصبر لحكم ربّك فإنك بأعيننا . كل هذا على الحفظ والمشاهدة والكلاءة. والأشياء كلها بعون الله وبنظره على الإحاطة بها لا على الجارحة ، تعالى الله علوا كبيرا .

اليد: فى كلام العرب على معان مختلفة كثيرة منها ما يراد به الشيء نفسه ، ومنها ما يراد به الملك والقدرة ، ومنها ما يراد به المنة والعطية ، فأمّا ما يراد به

الشيء نفسه فهو قوله عزّ وجل ، لما خلقت بيدى ، أى لما وليت أنا خلقه دون غيرى واليد صلة فى الكلام ، وهو مثل قوله تعالى ، ذلك بما قدمت يداك ، يريد ما قدمت أنت أيها العبد ، ويقال فى اللّغة هذا ما جنته يداك ، ومثله فبما كسبت أيديكم . وقال الشاعر:

سأبكيك للدنيا وللدين إننى　　رأيت يد المعروف بعدك شلت

وإنما يريد المعروف نفسه ، وكذلك قوله عزّ وجل ، أو لم يروا أنا خلقنا لهم ممّا عملت أيدينا أنعاماً ، ، أى خلقنا نحن، وأما اليد الّتى يراد بها الملك فقولهم المال فى يد فلان، والمال الأمر ، ونحو ذلك يريدون فلانا لذلك مالك وعليه قادر ، وأما اليد التى يراد بها المنة والعطية فهو قول القائل لى عندك يد ولك عندى مثل ذلك يعنى نعمته ومنّته ، وتصديق ذلك ، قوله عزّ وجلّ ، إنما يبايعون اللّه يد اللّه فوق أيديهم ، يعنى منة اللّه فوق منّهم ، ألا ترى إلى قوله تعالى ، قل لا تمنوا علىّ إسلامكم بل اللّه يمن عليكم ، واليد النعمة السابغة وهى الأيادى ، وأما اليد المحدودة التى هى أداة وجارحة فهى عن اللّه منفية تعالى اللّه عن صفات المحدودين .

* **مسألة :** فإن قال قائل فما معنى قوله عز وجل ، بل يداه مبسوطتان ، قيل له قال المفسرون نعمته ، وقدرته دائمتان لا يقبضهما شيء ، واليد هاهنا النعمة. وقال الحارث بن خالد المخزومى :

ولها علينا نعمة سلفت　　لسنا مع الهجران نجحدها

لو تممت أسباب نعمتها　　تمت بذلك عندنا يدها

وقال آخر :

يكن لك فى قومى يد يشكرونها   وأيدى الندا فى الصالحين فروض

وإنما يريد نعمة ، وقال آخر :

يابن الخليفة يا معاوى إننى   أرجو فضولك فاتخذ عندى يدا

يقول اتخذ عندى نعمة ، وقيل معنى بل يداه مبسوطتان ، يعنى نعمته: نعمة الدّين ونعمة الدّنيا، قالوا النعمة الظاهرة ، والنعمة الباطنة، وتجمع اليد على أيد وأياد، ويجمع يديا على فعيل مثل عبد وعبيد ، وأنشد شعر :

أيديهم بيض إذا ذكرت   عمت وطالت فوق كل يد

وأنشد الفراء :

فلن أذكر النعمان إلا بصالح   فإن له عندى يديا وأنعما

وتثنى اليد يديان على صورتهما ، ويديان ويدان ، يرد إلى الأصل فيظهر الياء التى هى لام الفعل ، وكذلك يفعلون فى كل اسم ناقص ، وأنشد الفراء :

يديان بيضاوان عند محلم   قد يمنعانك بينهم أن تهضما

فعلى هذا المعنى قوله عزّ وجلّ ، بل يداه مبسوطتان ، لا على إثبات اليد التى هى جارحة ، تعالى اللّه عن ذلك علّوا كبيرا .

فصل

ومن قال من المشبهة أن اللّه تعالى يريد بقوله خلقت بيدى ، لزمه أن يقول

أن له أيديا لقـوله تعـالى « مما عـملت أيدينا أنعـاماً » ، وهم لا يقـولـون ذلك ، ويناقضون ولا يشعرون .

واليمين: فى كلام العرب على معانٍ مختلفة فمنها ما يراد به الشىء نفسه ، ومنها ما يراد به القدرة ، ومنها ما يراد به الرفعة ، ومنها ما يراد به الحلف ، ومنها ما يراد به القوة ، فأما ما يراد به الشىء نفسه فهو قولهم هذا ملك يمينى يعنى هذا ملكى ، وأما اليمين التى يراد بها القدرة فهو قوله عز وجل « والسموات مطويّات بيمينه » ، وأما اليمين التى يراد بها القوة فقوله تعالى «ولو تقول علينا بعض الأقاويل* لأخذنا منه باليمين » أى بقوة منا عليه ، وأما اليمين التى هى جارحة فهى منفية عن اللّه تعالى ، لأنها من صفات المخلوقين وليست من صفات رب العالمين .

* **مسألة** : فإن عارض معارض بقوله عزّ وجل « والسموات مطويّات بيمينه» قيل له ليس ذلك كطى النّاس الشىء بيد ونصب وعلاج ، بل لطىِّ الفناء والذهاب ، قال الشاعر :

طوى الموت ما بينى وبين محمّد   وليس لما تطوى المنية ناشر

وقال آخر :

مرّ الليالى أسرعت فى نقضى   طوين طولى وطوين عرضى

طوين أى أفنين، وأما قوله بيمينه فإنه إخبار عن القدرة والملك، قال الشماخ :

إذا ما راية رفعت لمجد   تلقاها عرابة باليمين

أى بالقدرة والقوة وهذا قول الأشعرى ، قال ومن الناس من يقول مطويات بيمينه ، أى ذاهبات بقسمه لأنه تعالى أقسم ليفنيهما ، وقال قتادة وغيره: والسموات

مطويات بيمينه ، أى فى ملكه وسلطانه لأن اليد واليمين قد يستعملان كثيرا فى اللّغة على معنى الملك ، ومنه قوله: كن بما فى يد اللّه أوثق منك بما فى يد غيره ، يريدون بما يملكه اللّه عز وجلّ ، ومنه قوله عزّ وجلّ ، وما ملكت أيمانكم ، معناه وما ملكتم ، وقال لنبيه ﷺ ، وما ملكت يمينك ، يريد ما ملكت، وليس يريد أنّه ملك الشيء بيمينه دون شماله، وهذا توسع ومجاز فى اللّغة إذ كان معروفاً فى كلامهم .

والقبضة: فى كلام العرب على معان مختلفة ، منها ما يراد به الملك والقدرة، ومنها ما يراد به النّفس ، ومنها ما يراد به إفناء الشيء ، ومنها ما يراد به قبضة الأرواح ، فأما ما يراد به الملك والقوة فقولهم ما فلان إلا فى قبضتى يريد إلا فى ملكى وقبضتى ، وقولهم قد قبض فلان الأرض ، ليس أنه قد قبضها بيده ، وإنما يعنى أن ذلك قد صار فى ملكه أى قدر عليه ، وأما القبضة التّى هى إفناء الشيء فهو قولهم قد قبضه اللّه إليه يعنون قد أفناه اللّه من الدّنيا لا أنه قبضه القبضة المعقولة بيننا باليد التى هى جارحه تعالى اللّه عن هذه الصّفة وجل .

* **مسألة** : فإن قال فما معنى قوله عزّ وجل ،والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، قيل له: يروى عن ابن عبّاس والحسن وقتادة أنها فى قدرته وملكه وسلطانه، وقال غيرهم : يعنى ذاهبة فانية يوم القيامة بقدرة اللّه تعالى على إفنائها، ويقال الأشياء في قبضة اللّه عز وجل أى فى ملكه لا قبضة جارحة إذ الجوارح عن اللّه تعالى منفية .

* **مسألة** : فإن قال فما معنى قوله ، واللّه يقبض ويبسط ، قيل له معناه يقتر ويوسع على من يشاء ليس معنى قبضة اليد التى فيها الأصابع ولا بسطتها ، ولو

كان ذلك كذلك لما جاز أن يكون قابضاً وباسطا فى حالة واحدة ، والله تبارك وتعالى فى حال واحدة يقبض الرّزق ويبسط على من يشاء وفى الحال الّتى هو فيها قابض عن هذا باسط على ذا ، ويفعل أفاعيل مختلفة فى حال واحدة ولا يعجزه شيء مما يريد ، بل هو على كل شيء قدير .

فصل

فأما مارووا أن قلب ابن آدم بين أصبعى الله يمثله كيف يشاء فإن كان الحديث حقّاً فمعناه عندنا أنه مثل لهم قدرته بأوضح ما يعرفون من أنفسهم لأن الرجل منهم لا يكون على شيء أقدر منه على الشيء إذا كان بين أصبعيه ألا ترون إلى قولهم ما فلان إلا فى يدى ، وإلا فى كفى وإلا فى خنصرى ، وإنما يريدون تثبيت القدرة أى أنا عليه قادر وله قاهر لا يمنعه منّى شيء، ليس يريد أن الخنصر يحويه ولعله يكون أشد منه بطشا وأعظم جسماً ولكنهم أرادوا بذلك تثبيت القدرة عليه ، فأما القبضة بالجوارح فهى منفية عن الله سبحانه وتعالى. وقد ذهب بعضهم إلى أن قوله ﷺ بين أصبعين أى بين نعمتين من نعمه إحداهما هى سوق الخير إليه والفسحة فى التماس الرزق ، والأخرى صرف الشر عنه ، قال أبو عمر الشيبانى يقال : إن لفلان على إبله أصبعا، إذا أسمنها وأحسن إليها ، وقال الراعى يصف إبلا أحسن رعيها حتى سمنت .

يسوقها بادى العروق ترى له   عليها إذا ما أجدب الناس أصبعا

ويروى ضعيف الغضا، ويروى إذا ما أمحل النّاس أصبعا أى أثرا حسنا ، وقال آخر:

أغر كلون البدر فى كل منصب   من النّاس نعمى يحتذيها وأصبعا

الأصبع الأثر الحسن ، وقال من يجعل اللّه عليه أصبعا فى الخير أو فى الشر تلقاه معا . الأصبع هاهنا النّعمة والمنة لا غيرهما ، ذكر أهل الجهل أن اللّه تعالى احتجب بحجب ساترة له ، وكذبوا، ليس بين اللّه عزّ وجلّ وبين خلقه حجاب ولو كان محتجبا بحجب لم يحجب بالحجب لأن الحجب خلق من خلقه ، والله عزّ وجلّ لا يحتجب بخلقه عن خلقه ولا شيء غيره ، ولو جاز أن يحتجب بخلقه كان بما احتجب به مرتفقا وإليه محتاجاً. ومن وصف اللّه تعالى بهذا لزمه الحاجة والفقر ، وهذا الكفر باللّه مع التحديد له لأن من كان محجوبا كان محدوداً. وأما قوله تعالى «وما كان لبشر أن يكلمه اللّه إلا وحيا أو من وراء حجاب » فعن على فى هذا: ماكان لبشر يقول ما ينبغى لبشر كما قال « ما كان ليتخذ من ولد » يقول ما ينبغى للّه أن يتخذ ولدا نظيره « ما كان لكم أن تؤذوا رسول اللّه » فذكر أن اللّه حجب الكلام الذى سمعه موسى عن أهل السّماء والأرض فلم يسمع ذلك إلا موسى عليه السّلام ، وهذا أحسن ما قيل فى هذا الباب وهو قول على ، وقال بعض العلماء أن الحجاب فى اللغة على ضربين حجاب ساتر وهو مثل السترة وحجاب هو منع وإن لم يكن ستر فلما كان موسى عليه السلام غير جائز منه الرؤية لله تعالى ولم يكن يجوز عليه ذلك جاز أن يقال موسى محجوب عن اللّه كما أن الرّجل قد يريد أن يتكلم فيمنعه مانع فيقول حجبنى فلان عن الكلام ، ويقال حجبنى خوف اللّه عن المعاصى ، ويقال الضرير محجوب البصر ، وليس هنالك حجاب ساتره. وكذا عندهم موسى عليه السّلام محجوب عن اللّه إذ كان تبارك وتعالى لا تجوز عليه الرؤية ، وقد يجوز أن يرفع العجز عن الضرير فيبصر ، فليس هنالك علة فى

موسى عليه السّلام من أجلها لم ير اللّه والله تعالى لا يُرى لأنه قديم .

* **مسألة :** فإن قال قائل فما له لا يُرى ، قيل له لأن نفسه نفس لا ترى لا لعلة من الأشياء ، فلما كان لنفسه لا يرى كان لا يرى فى آخرة ولا دنيا لأنّه لا يتغير أبدا ، ولو كان لغير لا يرى كانت به الحاجة إلى غيره وكان فقيرا عاجزا أبدا ، ويقال لهم هل ترى ذلك الغير الذى من أجله لا يرى فإن قالوا يرى ، قيل فما هو فإن أشاروا إلى شىء من الأشياء لزمهم أن يلزموا معبودهم الحاجة إلى الأشياء تعالى اللّه الغنى عن جميع الأشياء .

فصل

وأما ما رووه من الحديث فى الدنوّ من اللّه تعالى إلى غيره ، والقرب منه فإنما ذلك على سرعة الإجابة والمنزلة ، ألا ترى أن العرب يقولون أتينا فلانا فأسرع إلينا يعنون أجابنا إلى ما سألناه ، وقال عز ذكره ، وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليتستجيبوا لى ، فليستجيبوا إلى طاعتى ، وقال المفسرون فليستجيبولى أى فليجيبونى إلى ما أمرتهم به ، يقال أجابه واستجاب له بمعنى ، وقال كعب بن سعيد :

وداع دعا يا من يجيب إلى الندا فلم يستجبه عند ذاك مجيب

التجلى: فى لغة العرب هو ظهور الشىء والشىء قد يظهر بوجهين مختلفين. فيظهر جهرة ويظهر بدلالة ، ألا ترى إلى قول القائل قد و اللّه تجلى لى هذا الشىء، والذى يتجلى جهرة لا يكون إلا جسما أو هيئة أو فعلا مشهورا لأن الأبصار لا تدرك

إلا ما كان كذلك ، والتجلّى من الخالق تعالى إنما هو بالدّلالات والبيّنات ليس هو بجسم ولا عرض فيتجلّى جهرة ، وإنما معنى قوله عز وجل ﴿ فلما تجلّى ربّه للجبل جعله دكّا ﴾ ، أى تجلى بآية من آياته فلم يطق الجبل حمل تلك الآية وصار دكّاً كما قال تعالى ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله ﴾ ، ولذلك كان الجبل دكا على ما ذكر من خشوع الجبل ، والآية التى تجلى للجبل هى من أعلام القيامة ، وحال الآخرة، وهى غير الله والله المتجلّى والتجلى غيره والمتجلى خالق، والتجلى والمتجلّى له مخلوقان لأنهّما غير الله تعالى .

وقد قالوا فى لغاتهم ، خلقت من آياتك وعجائب تدبيرك ما تجليت به لخلقك فأوصلت إلى القلوب من معرفتك ما آنستها من وحشة الفكر فيك . فهذا على سعة كلامهم، لا أن الله عزّ وجلّ انكشف أو ظهر تعالى الله عن ذلك . وقال الشاعر :

تجلى لنا بالمشرفى وبالقنا   وإن كان عن وقع الأسنة نائيا

يريد تجلى وكشف لنا عن أمره وشدته حتى بان لنا ذلك ولم يرد بذلك انكشافه وظهوره وإنما هو على سعة الكلام ، والمعنى مختصر على غير اللّفظ .

فصل

زعمت المشبهة أن الله تبارك وتعالى ينزل ليلة النّصف من شعبان فوصفوه سبحانه بالحدود والزّوال والحركة من مكان إلى مكان ، لأن النازل لا يكون إلا فى مكان دون مكان ، وكل من حوته الأماكن فهو محدود وكل محدود مختلف وكلّ مختلف فبعضه لا يشبه بعضاً وكل من كان زائلاً متنقلاً كان عن بعض تدبيره

بنفسه غائبا لأنه إذا زال إلى المشرق زال عن تدبيره بالمغرب وإذا غاب إلى المغرب غاب عن تدبيره بالمشرق ، وإذا كان فى سماء الدّنيا غاب عن تدبيره فى سائر السموات وكانت الأشياء به محيطة والأماكن له حاوية ، وقد قال تبارك وتعالى «وهو معكم أينما كنتم » ، وقال عز وجل « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم » الآية .

سؤال : يقال لهم: ألستم تزعمون أنّ اللّه سبحانه وتعالى ينزل ليلة النصف من شعبان ، فإن قالوا نعم يقال أليس قد مضى شعبان قالوا نعم ، يقال لهم قد علمتم أنه عاد إلى العرش بعد الزّوال فإن قالوا نعم، قيل وما علملكم أنه عاد لعله فى بعض السموات، فإن قالوا قد علمنا أنّه عاد إلى العرش، قيل أفى حديثكم الّذى رويتم أنّه يعود، فإن قالوا لا، قيل فما علمكم بأنّه ينزل ويعود، وليس ذلك فى حديثكم .

سؤال آخر : ويقال لهم ألستم ترون أن السموات السّبع والأرضين السّبع فى جنب العرش كحلقة فى أرض فلاة ، وإن قالوا نعم ، قيل لهم كيف تزعمون أنه ينزل إلى السماء الدّنيا مع صغرها فى جنب العرش ، ويقال لهم سماء الدنيا أعظم أم العرش فإن قالوا العرش ، قيل لهم أعظم أم من يعبدون فإن قالوا من يعبد ، قيل لهم تعقلون شيئا عظيماً يحويه أصغر منه ويحيط به ، تعالى عما يقولون علوا كبيرا .

فصل

وأمّا تأويل قوله عزّ وجل « وجاء ربك والملك صفّاً صفّاً » و « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام » ، وتقول جاء ربك بقضائه والحساب ، وهل

ينظرون إلا أن يأتيهم الله بالثواب والعقاب والملائكة والجزاء ، وغير ذلك من أمور الآخرة فى ظلل من الغمام ، يقول يجعل ذلك الغمام علما بينه وبين خلقه إذا جاء الغمام علموا أنه قد جاء القضاء والجزاء، كما جعل الغمام فى الدّنيا علما للغيث وغير ذلك من الأشياء . ليس له أن يجىء ويذهب منتقلا ولا زائلاً ، تعالى من ليس كمثله شىء ، وقال الكلبى : وجاء ربك أى جاء أمر ربّك والملك معه ، وقال الحسن: وعد ربكّ . ومعناهما قريب .

فصل

رووا أنه جل ثناؤه ينزل يوم القيامة حتى يجلس على كرسى للقضاء . ثم يقول أنا ربكم فينكرونه ويكادون يباطشونه عزّ الله عن ذلك ، فيكشف لهم عن ساقه فيخرّون له سجّدا ، وهذا الكفر بالله العظيم ، لأنهم وصفوه جل ثناؤه جسما محدودا ثم زعموا أن المؤمنين لا يعرفون ربّهم إلا لذلك ، وهى صفة المحدودين تعالى الله عن ذلك .

جواب : يقال لهم أما قوله عز وجل يوم يكشف عن ساقٍ فإن معناه عن شدّة أهوال يوم القيامة ، وقال ابن عبّاس عن الأمر الشّديد ، وأنشد فيه :

قد قامت الحرب على ساق

وقال ابن أحمر: هى أشدّ ساعة فى القيامة . وقال الحسن أى عن ساق الآخرة وهو الستر الذى بين الدنيا والآخرة ، ويقال كشفت الحرب عن ساق إذا اشتد أمرها ، وأنشد أبو عبيدة لقيس بن زهير العبسى :

إذا شمرت لك عن ساقها فويها ربيع ولا تسأم

ورواه غيره ، إذا كشفت لك وهو واحد ، وكشف اليوم عن ساقه إذا اشتدّ وقال سعد بن مالك :

كشفت لكم عن ساقها وبدا من السر البراح

وقال آخر :

ليت شعرى عن خليل إذا شمرت عن ساقها الحرب ضحى

وقال آخر :

أخوا الحرب إن عضت به الحرب عضها وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

يريد عن شدّتها ، وقال عبد اللّه بن يزيد بن معاوية :

أتتك الرّجال رجال العراق تقود إلى الشام قباعتاقا

ودارت رحاها على قطبها جهاراً وشمرت الحرب ساقا

فهذا تأويل الآية لا ما ذهبتم إليه ، تعالى اللّه عن صفة خلقه علوا كبيرا .

النظر: فى كتاب اللّه عز وجلّ وفى لغة العرب على معان مختلفة ، منها نظر على جهة الانتظار ، ومنها على جهة الاتكال ، ومنها على جهة الاختيار ، ومنها على جهة الحكم ، ومنها على جهة التثبيت ، ومنها على جهة العائدة والرّحمة ، ومنها على جهة التوقيف ، ومنها على جهة العلم ، ومنها نظر جهرة ، فأما النظر على جهة الانتظار ، فقولهم ما أنظر إلا إلى اللّه ثم إلى فلان ، ولعل فلاناً غائب عنه فى أرض أخرى ، وإنما يعنى ما يكون من تأويله والآية ، وأما النظر على جهة الاتكال فقولهم إنما أنظر إلى ما يرزقنى اللّه تعالى ويعطينى وإلى ما يجرى من ذلك

على يدك ، أى فأنا أتكل على ذلك ، وأما نظر الاختيار فقولهم انظر لى أى اخترلى، وأما نظر الحكم فقولهم انظر بيننا أى احكم بيننا ، وقد يقول القائل ما أحسن ما نظرت بيننا يعنى ما حكمت بيننا ، وأما نظر التّثبيت فهو قولهم انظر إلى قول فلان، وما صنع فلان، أى اعلم ذلك ، ومنه قوله عز وجل « انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض » و« انظر كيف ضربوا لك الأمثال » ونحو ذلك يريد والله أعلم. وأما نظر الجهرة فهو معاينة الشيء ورؤيته والإدراك له والإحاطة به ، وذلك عن الله منفى ، وأما نظر الله تعالى إلى خلقه فهو على معنيين ، أحدهما مشاهدته إياهم بأنهم لا يخفون عليه ولا يغيبون عنه لا على المعنى الذى يتوهمونه من أنفسهم ، والمعنى الثانى من النظر هو بالرأفة والرّحمة والصلة والعائدة وترك النظر إليهم إنفاذ ذلك عنهم ، ألا ترى إلى قوله تعالى « ولا ينظر إليهم يوم القيامة» معناه لم ينظر إليهم برحمته ، ونظر الخلق إلى الله تعالى انتظار فضله ورزقه وعطيته وكرامته فى الدنيا والآخرة ، وليس لأحد من الخلق أن ينظر إليه جهرة لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ولأن الأبصار لا تدرك إلا الأجسام المحدثة وما يكون فى معنى من معانيها من قبل أنها محدثة فلا تدرك ولا ترى إلا ما كان محدوداً والمحدود لا يكون إلا جسما أو هيئة لجسم أو صنعا والجسم صنعة، مصنوع وكل مصنوع فله صانع والصانع لا يشبه المصنوع ، فمن زعم أنه يرى الله تعالى جهرة فقد زعم أنه محيط بالله لأنّ الأبصار إذا رأت شيئاً فقد أحاطت بما رأت وعليه وقعت فلا تعدو أن يكون ما وقعت عليه بعضا فقد جزأته وبعضته والله تعالى عن كذلك علوا كبيرا .

وأما الرؤية: فمعناها المعرفة إلا ما كان من جهة ما تدرك الأبصار فإن ذلك

رؤية جسم ، وما سواه فمعناه المعرفة ، قال اللّه تعالى عز وجل ، ألم تر إلى ربّك كيف مدّ الظّل ، ومثله ، ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ومثله ، ألم تر أنا أرسلنا الشّياطين على الكافرين تأزّهم أزّا ، ومثله ، ألم تر إلى الّذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، ، ومثله فى القرآن كثير ، وكل ذلك لم يره النبى ﷺ ولا كان إذ ذاك ، وإنما المعنى ألم تعلم ذلك وتعرفه بالخبر الذى خبرتك ، واللغة ناطقة شاهدة بذلك ، يقول القائل قد أرى ما يجىء منك . وأرى الحق كما أراك يعنى يعرف الحق كما يراك بعينه ألا تسمع إلى قول اللّه عزّ وجلّ ، ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون ، وهم إذ ذاك لم يكونوا وإنما خلقوا من بعدهم ، وقوله تعالى قبلهم دليل على أنهم لم يكونو إذ ذلك ، ولكن المعنى ألم يعرفوا ذلك بالإخبار ، وقوله عز وجل ، ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ، ، والموت لا يرى جهرة وإنّما رؤيته بالمعرفة له .

باب نفى الرّؤية

قال اللّه عزّ وجلّ « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » فامتدح بذلك ومدائح اللّه تعالى لا تزول فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فمن زعم أن الأبصار تدركه فقد زعم أنّ هذا المدح يزول عنه فى الآخرة ، ومن زعم ذلك فقد جعل أنّه منقوص ، وهذا كفر باللّه ، لأن كل من كان النقص من صفته فليس بإله ، تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا ، وقد نفى اللّه عزّ وجلّ أن تدركه الأبصار وأن يرى جهرة فهو لا يرى فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فإن قال قائل أنه لا يرى فى الدنيا ويرى فى الآخرة كان عليه الدّليل ، ولما كان قوله تعالى « لا تدّركه الأبصار » على كل الدّارين كان قوله تعالى لا تدركه الأبصار على الدارين كلتيهما ، ولما كان نافيا أن يشبهه شىء كان نافيا أن تدركه فى كلتا الدّارين على الجهرة لأنّه لا يشبهه شىء فى كلتا الدّارين ، وفيما عقلنا أن كلّ مدرك له شبه ونظير، وكل مدرك ببصر فذو لون وكل ذى لون فيحتمل التركيب لحلول اللّون فى ذاته وكل شىء حل فى شىء فمصنوع لأنه احتمل حلول الشّىء فيه ، وما قيل لون من الألوان إن احتمل قبل الألوان كلها وما كان فيه معنى واحد منها محتملا للتغيير لاحتماله القبول لما ليس فيه ، ولا يجوز فى حجة العقل أن يرى اللّه تعالى بالأبصار من قبل أنه لا يخلو الناظر إليه من أن يكون يراه فى مكان أو يراه فى كل مكان فإن كان يراه فى مكان دون مكان أو يراه فى كل مكان، فإن كان يراه فى مكان فما فضل الخالق

على المخلوق إن كان المخلوق فى مكان دون مكان والخالق كذلك ، وهذه الصفة محدودة وكل محدود فمعدود وما جرى عليه العدد فمنقوص ، وإن كان يراه فى كل مكان فالمخلوق إذاً أعظم من الخالق إذا كان وهو فى مكان ينال ببصره من كان فى كل مكان ، وأيضا فلا يعدو من أن يكون يراه حتى لا يخفى عليه منه شيء أو يخفى عليه منه شيء، فإن كان لا يخفى عليه من خالقه شيء إلا ويراه فقد أحاط به والمحاط به صغير والمحيط به أكبر، وإن كان يخفى عليه منه شيء فالذى خفى عنه غير الذى لم يخف ، وهذه صفة المحدود والمتغاير المختلف الّذى بعضه غير بعض ، تعالى اللّه عن هذه الصفات علوا كبيرا ، وإنما تعلقت المشبهة بأخبار غير صحيحة وتأويلات فاسدة، رووا عن جرير بن عبد اللّه أنّ النّبى ﷺ قال إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون فى رؤيته ، ولم يكن النّبى ﷺ ليخبر جريرا بذلك من بين الخلق لأن اللّه تعالى يقول ، يا أيها الرسّول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته ، والنّبى ﷺ لم يكن ليتكلم إلاّ بوحى إليه من ربّه ولم يؤمر أن يخص بالوحى أحداً دون أحد بل هم فى ذلك شركاء ، فإن كان النبى ﷺ قال لأصحابه كلهم ذلك إلا جريرا أو قال لجرير دون أصحابه فقد وصفوه بترك البلاغ عن اللّه عزّ وجل ، إلى النّاس كافة ، ومن وصفه عليه السّلام بهذا فقد كفر ، وكيف ينبغى لجرير أن يسمع هذا الخبر من النبى ﷺ وهو كان من آخر الصحابه إسلاماً .

فصل

وتأويل هذا الخبر عندنا إن صحّ إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر، يقول تعرفون ربكم اضطرارا معرفة لاشك فيها ولا دفاع يدعو إلى إخلافها كما أن معرفتكم بالقمر اضطرار لاشك فيها ، لأن معرفة الله عز وجل فى الدنيا باكتساب يقع فيها الاختلاف وفى الآخرة يقع الاضطرار ، ويزول الشك ، وهذا التأويل أصح فى اللّغة وأليق بصفات الله عزّ وجلّ لأن الرؤية فى اللّغة على وجهين رؤية هى إدراك البصر وقد نفى الله تعالى عن نفسه درك الأبصار ، ورؤية أخرى وهى معرفة القلب وقد تقدم ذكرها ، ومنه قوله تعالى « أو لم ير الإنسان أنّا خلقناه من نطفة » أى ألم يعلم ذلك لأن الإنسان لم ير نفسه حين خلق من نطفة وقد جاءت أخبار تؤيد ما تأولناه ، وترد قول من خالفنا . منها ما روى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: إن أحدا لن يرى ربه فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وروى أن أباذر قال قيل يا رسول الله هل رأيت ربكّ قال نور أنى أراه ، فنفى أن يكون نورا مرئيا ، وقوله أنى على وجه النفى ، لقوله تعالى « بديع السموات والأرض أنّى يكون له ولد » وعن على بن أبى طالب فى قوله تعالى « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » قال لا تدركه الأبصار فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وعن عائشة أنها سئلت هل رأى محمّد ربّه فقالت سبحان الله لقد قف شعرى لما قلتم من حدثكم أنّ محمداً ﷺ رأى ربّه عزّ وجلّ فقد كذب ، ثم قرأت إنّ الله تعالى يقول « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » ومن حدثكم أنه كان يعلم ما فى غد* فقد كذب، ثم قرأت « إنّ الله عنده علم السّاعة » الآية ، ومن حدثكم أن محمّدا كتم

شيئاً من الوحى فقد كذب لأن الله تعالى يقول ، يا أيها الرّسول بلّغ ما أنزل من ربكّ ، الآية ، وقد روى عن النّبى ﷺ أنه سئل هل رأيت ربك فقال لن تراه الأبصار بالمشاهدة فى الدنيا والآخرة ، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان ، وللقلب رؤية كما للعين رؤية وقد جاء ذلك فى أشعارهم ، قال امرؤ القيس :

تنورتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عالى

تنورتها نظرت إلى نارها وأنا بأذرعات يعنى الشّام وأهلها بيثرب يعنى المدينة ، وأنشد أبو عبيدة :

أليس بصيراً من يرى وهو قاعد بمكة أهل الشّام يختبرونا

وإنما يراهم بقلبه ، وقال الله عز وجل لنبيّه ﷺ ، يسألك أهل الكتاب أن تنزّل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصّاعقة بظلمهم ، فعلمنا أنّه تعالى ليس ممّن يجوز أن يرى جهرة ولا تدركه الأبصار ، وقال عزّ وجل ، وقال الّذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربّنا لقد استكبروا في أنفسهم ، لأنهّم سألوا ما لا يجوز على الله سبحانه وتعالى. وأجمعت الأمة على أن الدّعاء والتّعظيم لله بقولهم من يَرى ولا يُرى ولا يجوز أن يكون معظّما فى وقت ، وبطل تعظيمه فى وقت .

* **مسألة :** فإن قال قائل فإذا نفيتم الرؤية عن الله تعالى فما معنى قوله عزّ وجل ، وجوه يومئذ ناضرة* إلى ربّها ناظرة ، قيل له قد قال فى ذلك أهل العلم والتّفسير ومنهم ابن عباس وأبو صالح والضّحاك والحسن ومجاهد : وجوه يومئذ ناضرة حسنة إلى ثواب ربها ناظرة . وعن على بن أبى طالب وابن مسعود وسعيد

ابن جبير : وجوه يومئذ ناظره أى مشرقة ناعمة إلى ربّها ناظرة يعنى منتظرة لما يأتيها من خيره وإحسانه ، وما قالوه معروف فى القرآن واللّغة ، قال اللّه عزّ وجل «وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة » ، « وهل ينظرون إلاّ السّاعة » أى ينتظرون ، فقوله تعالى ناظرة الأولى من النضارة ، والحسن وهى بالضّاد والثانية من الانتظاروهى بالظاء ، يقال منه نضر وجهه ينضر نضرا ونضورا ونضارة ونضره اللّه وأنشد الفراء :

نظر الله أعظما دفنوها بسجستان طلحة الطلحات

ومن الانتظار قول الشاعر :

فإن يك صدر هذا اليوم ولى فإن غدا لناظره قريب

يريد لمنتظره ، وقال الآخر :

كلّ الخلائق ينظرون سخالة نظر الحجيج إلى طلوع هلال

وإنما ينتظرون سخالة ، وقال الآخر :

وكنا ناظريك بكل فج كمن للغيث ينتظر الغماما

ويروى للغيث ينتظر الغمام ، وقال آخر :

لسنا كمن جعلت أياد دارها بكريت تنظر حبها أن تحصدا

يعنى ينتظره ، وقال امرؤ القيس :

فإنكما إن تنظرانى ساعة من الدّهر تنفعنى لدى أم جندب

أى تنتظرانى ، وقال اللّه عز وجل « انظرونا نقتبس من نوركم » فمعناه

انتظرونا ، ويقال نظرت الرجل أنظره إذا انتظره . قال الأعشى :

فخرت وأتيمت فقلت انظريني ليس جهل أتيته ببديع

قال الحطيئة :

وقد نظرتكم أعشاء خامسة للورد طال بها حبسي وتبساسي

التبساس شوق شديد قال عمرو بن كلثوم :

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقينا

أي انتظرنا ، تقول العرب أنظرنا بمعنى انتظرنا وقد قرأ انتظرونا نقتبس من نوركم ، وانتظرونا جميعا ، فقد دلّ الكتاب واللّغة والسنة وحجة العقل على صحة ما ذهبنا إليه من تأويل الآية وبطلان مذهب مخالفينا وبالله التوفيق .

فصل

وأمّا ما رووا من حديثهم أنّ الله عزّ وجلّ يبرز لخلقه يوم القيامة على كثيب من كافور فليس يخفى على أهل العقل أن الكثيب محدود ولا يبرز على المحدود إلا محدود والله جل ثناؤه ليس بمحدود والذى ينزل لا يبرز إلا من اكتنان واجتنان ، ومن كان كذلك كان جسماً محدوداً أو شيئا مشهودا تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، فإن كان حديثهم حقا فإنه يبرز لهم كرامته وخيره كنحو ما فسرنا من الآيات المتشابهات والأحاديث المنقولات ، وقد رووا فى حديثهم الذى يسمونه حديث الزيارة أنهم يزورون ربهم تعالى الله فيركب إليه قوم على النجائب وقوم فى السفن وقوم على الخيل يقول –بزعمهم– ما تشاءون فيقولون قد سمعنا كلامك فأرنا وجهك ،

قالوا فيرفع لهم الحجب ويتجلى لهم فيرونه ، وهذا كفر باللّه العظيم ، لأنهم يصفونه بالحدود والاستتار والغيبوبة فى مكانٍ دون مكان ، واللّه جلّ وعزّ غير محدود هو معهم أينما كانوا ، وليس بغائب عنهم ، فإن كان كذلك فمن أين يرونه تبارك وتعالى، والحديث إن كان له أصل فتفسيره عندنا أنه محدث لهم فى تلك المواضع كرامة سواء الكرامة التى يكرمون بها فى سائر الأوقات ، وهذا معناه عندنا كقول القائل : زرنا الله إلى بيته مكّة فأكرم وغفر لمن آمن واتقى ، فإن كان الحديث حقا فهذا معناه وإلا فباطل .

* **مسألة :** يقال لهم أتقولون أن الله تعالى يرى بالأبصار فإن قالوا نعم ، يقال لهم أفترونه فى مكان دون مكان أم فى كلّ مكان ، فإن قالوا تراه بكل مكان ، قيل لهم فيجوز أن يروا كل مكان فى وقت واحد ، قيل لهم وكذلك لا يجوز أن يروا من هو بكل مكان فى وقت واحد ، فلا يجدون إلى الفصل بين ذلك سبيلا .

* **مسألة :** ويقال لهم أليس اللّه عز وجل أقرب إلى الإنسان من نفسه إلى نفسه ، ومن نظره إلى عينيه، فهل يجوز لعين أن تنظر إلى نفسها فكيف إلى من هو أقرب إليها من نظره ، ويقال لهم أوجدونا عن شيء تقع أعينكم على حركة أو سكون فإن قالوا بالحركة أو بالسكون فقد وصفوه بما خلق وأجروا عليه ما جرى على خلقه من الفناء والزّوال عزّ اللّه وجلّ عن ذلك ، وإن قالوا : حالة بينهما فقل لهم فأوجدونى ما لا حركة ولا سكون ، وفيه انقطاعهم .

فصل

زعمت المشبهة أنا إذا قلنا إن اللّه تعالى لا يرى فقد قلنا إنه لا يحاسب الخلق وهم يزعمون أن الله تعالى قد كلم موسى عليه السّلام فى الدنيا ولم يره ، قلنا فما أنكرتم أن يحاسبهم ويسائلهم وهم لا يرونه كما كلّم موسى عليه السّلام ولم يره .

فصل

الأشعرى وهو على بن إسماعيل يقول بالرؤية ويحتج عليها بالآية ، إلى ربها ناظرة ، ويحتج على من عارضه فإن معنى ناظرة منتظرة ، بان نظر الانتظار لا يجوز أن يكون منوطا بقول القائل فى كتاب اللّه تعالى ولا فى كلام الفصحاء ولا فى شعر الشعراء ، قال اللّه ، وما ينظرون إلاّ صيحة واحدة ، يعنى ما ينتظرون ولم يقل ما ينتظرون إلا صيحة واحدة ، وقال تعالى مخبرا عن بلقيس ، وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ، يعنى منتظرة، ولم يقل بناظرة إلى بم يرجع المرسلون، يعنى منتظرة ، قال وكذلك يمطونه إلى النّظر إذا كان مذكورا مع الوجه لم يكن معناه إلا الرؤية بالعين ، ألا ترى أن اللّه عزّ وجل ذكر تقلب الوجه ، فقال ، قد نرى تقلب وجهك فى السماء ، وإنما أراد تقلب العين ، وكذلك إذا ذكر النظر مع ذكر الوجه وإنما يراد به العينان ولم أذكر أنا قوله هذا اتباعاً ولا تصويباً له، وإنما ذكرته كما ذكرت قول غيره من مخالفينا ليعلم إن شاء اللّه .

* **مسألة :** اختلف الناس فى كلام الله عز وجل لموسى عليه السلام فقال

قوم إنه أسمعه نفسه متكلما ، وقال آخرون أسمعه صوتا أفهمه به الكلام ، وقال قوم أنه كلمه بالوحى ، وقد قال الله عز وجل « وكلّم اللهّ موسى تكليما » وذلك حق من الله وقد كلمه كما قال كما شاء على ما شاء من ذلك .

ومن حجّة من قال أن كلامه له بالوحى قوله تعالى « وما كان لبشر أن يكلّمه الله إلا وحياً » وهذا خبر غير منسوخ لأن الأخبار لا تنسخ فيجوز أن يكون كلّمه بالوحى منه إليه ، وقد سمى الله التّوراة كلامه ، فقال تعالى « وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه » الآية ، وقد سمى القرآن كلامه ، بقوله تعالى «حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » وقد كان الوحى إلى النبى ﷺ والاتفاق أن القرآن وحى وقد سماه كلامه فقال لنبيّه عليه السّلام « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنّبيّين من بعده » تمام القصة ، فذلك بالوحى كما قال تعالى . وهذا عن أبى الحسن رحمه الله . غيره ، قال إن الله تعالى أوصل إلى موسى عليه السلام كلاما لم يكن بين موسى وبينه تعالى منه رسول، وليس هكذا كلامه للأنبياء إنما كلمهم بجبريل والملائكة عليهم السلام . ألا تسمعه يقول : يا موسى إنه أنا الله لا إله إلا أنا المكلم لك ، وقال: يا موسى إنّى أنا الله ربّ العالمين ، وأما قوله تعالى « نودى أن بورك من فى النّار ومن حولها » فقد يحتمل أن يكون يعنى موسى ولم يكن ناراً فى قول ابن عبّاس إنما كان نوراً ولكنه تشبيها إلى ما ظنها موسى ، وأما التكليم فمصدر كلم يقول كلمه تكليما .

* **مسألة :** إن سأل سائل عن قول الله عزّ وجل حكاية عن موسى عليه السّلام « ربّ أرنى أنظر إليك » الآية ، قيل له قد قيل أن بعض قوم موسى عليه السّلام . قالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، كما أخبر الله تعالى عنهم فى

كتابه فلما سألوه ذلك وعظهم وأخبرهم بغلطهم فى ذلك وفى سؤالهم ما لا يجوز على الله تعالى ، فأبوا أن يقبلوا ذلك منه ، وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأراد موسى أن يأتيهم من قبل الله تعالى جواب يبين لهم به بطلان ما سألوا ويكون زجرا لهم عن ذلك، وكانوا سألوه أيضاً أن يكلمه الله تعالى بحضرتهم ، حتى يسمعوا كلامه له فقال لهم اختاروا منكم سبعين رجلاً ، فاختاروا واختار لهم موسى وصاربهم إلى الميقات ، فلما كلّمه اللّه تعالى بحضرتهم قالوا: سل الله الرؤية لتبين لقومك أنها لا تجوز عليه وليزجرهم عن طلبتها فقال ، رب أرنى أنظر إليك ، ومراده فى ذلك أن يأتيه اللّه تعالى بجواب عن هذا الكلام يكون زجراً لبنى إسرائيل عن الإقامة على هذا السؤال وبيانا لهم من قبل الله عزّ وجلّ أن ذلك لا يجوز على الله عزّ وجل فقال الله عز وجل ، لن ترانى ، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف ترانى ، ثم جعل الجبل دكًّا وهم ينظرون إليه، وأتاهم عند ذلك بالرّجفة وبالصّاعقة فصعق موسى ﷺ وصعق السّبعون الذى اختارهم اللّه وأدركت الصّاعقة الّذين سألوا موسى أن يريهم اللّه جهرة بظلمهم فماتوا ثم بعثهم اللّه من بعد موتهم كما قال اللّه عز وجل ، ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ، وهذه المرة الثانية التى كلّم اللّه تعالى موسى لأنه كلمه فى وقت ما بعثه من الشجرة وكلمه فى هذا الوقت بحضرة هؤلاء السّبعين عند الجبل وهو الميقات ، وفيه حدث حدوث الرجفة والصاعقة اللّتين وصفهما الله ، وجوابه لموسى بأنك لن ترانى زجرا لقومه عن الإقامة على هذا السؤال وعن تركهم القبول من موسى وعن إجازتهم على اللّه من الرؤية ما لا تجوز عليه .

* **مسألة :** فإن قال فمما ذا تاب موسى عليه السّلام إن كان إنما سأل عما

وصفتم ، قيل له إنما تاب لأن اللّه عزّ وجل لم يكن أذن له فى هذا السؤال فلما تقدم فى السؤال من غير أن يؤذن له تاب إلى اللّه عز وجل وصعق امتحانا لا عقاباً لأن ذنبه كان صغيرا مغفورا ، وكذلك الذين نالتهم الصاعقة من السّبعين إنما نالتهم امتحاناً لا عقاباً ، ويدل على ذلك قول الله عزّ وجل مخبرا عن موسى ﷺ فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإيّاى أتهلكنا بما فعل السّفهاء منا ، ومعناه الإنكار أن يفعل الله ذلك وإن كان مخرجه الاستفهام كقول القائل : هل عندى مال، إذا كان يعنى أنه لا مال عندى ، وكقول اللّه جل ثناؤه لعيسى عليه السّلام «أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون اللّه » ، أخرج ذلك مخرج الاستفهام ومعناه التكذيب لمن نحل ذلك عيسى ، وأراد إنك لم تقل فكذبهم. فبين أن السفهاء هم الذين نالتهم الصاعقة بظلمهم ثم أحياهم اللّه تعالى ثم اتخذوا بعد ذلك العجل لما أبطأ عنهم موسى عليه السّلام وأقام أربعين يوماً بعد رجوع السّبعين إليهم وقد دلّ على ذلك قول الله سبحانه وتعالى «فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ، ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات» فبين أن الصاعقة إنما أخذتهم لقولهم أرنا اللّه جهرة لا لاتخاذهم العجل ، ويدل قول موسى عليه السّلام أتهلكنا بما فعل السفهاء منّا ، أن موسى والسّبعين لم يسألوا الله تعالى الرؤية وإنما سأل ذلك السفهاء من قومه لأنه لو كان سأل هو ذلك ما قال أتهلكنا بما فعل السفهاء منّا، فبين أنه سأل ليبيّن اللّه تعالى لقومه أن هذا لا يجوز على اللّه وليزجر عن مثل هذا السّؤال بمثل ما زجرهم به وأحله بهم من الرّجفة والصّاعقة الّتى حلت بهم .

باب
فى قول لا إله إلا الله

ثبت عن النبّى ﷺ أنه قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا اللّه فإذا قالوها حقنوا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على اللّه ، وعنه ﷺ: لقنوا أمواتكم شهادة أن لا اله إلا اللّه ، وقول اللّه عزّ وجل لا إله إلا هو وحد نفسه ، ونشهد أنه لا اله إلا هو ، كقوله عز وجل « شهد الله أنه لا إله إلا هو » افتتح ربّنا عزّ وجل الآية باسم من أسمائه وهو الاسم الأعظم الذى تفتتح به الصّلوات والاستعاذات والتكبيرات وجميع المبتدآت من جميع الطاعات ، ودل ذلك على ما تواترت به الأخبار عن رسول اللّه ﷺ فى شرف هذه الآية وفضلها على سائر الآى وأنّها سيّدة آى القرآن وأن البقرة فضّلت بها على سائر القرآن ، ثم أتبع هذا الاسم بنفى كل معبود سواه وهى كلمة التوحيد والإخلاص التى لا يقبل اللّه تعالى من عبده عملا ولا دينا ولا قولا إلاّ بها وبعث بها الرّسل ، فقال لنبيّه ﷺ « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » وقال أبو هريرة قال النبّى ﷺ أعلى الإيمان قول لا إله إلا اللّه ، وأدناه إماطة الأذى عن الطريق. جابر بن عبد اللّه عن النبّى ﷺ أنه قال: أفضل الذكر لا إله إلا اللّه وأفضل الدعاء الحمد للّه ، والقيوّم فيه ثلاث لغات قرئ بهن والعامة على قراءة القيوّم وهى القراءة المشهورة وهى فى وزن الفيعول وكان فى الأصل قيووم ، فأدغمت الياء فى الواو الأولى لأن الياء والواو إذا التقتا فى كلمة واحدة وكانت الأولى ساكنة أدغمت وصارت ياءين وصارت

قيوم، والقيام والقيّم قراءتان شاذتان القيام بالألف فى وزن الفيعال وهى فى الأصل قيوام فأدغمت الواو فى الياء فصارت ياء مشدّدة ، والقيم بالياء فى وزن السّيد ، وقيل القيوّم القائم فى خلقه بما فيه صلاحهم ونفعهم ورشدهم ، لقوله تعالى ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ ، وقال مؤرج بن عمر: والقيام الدّائم الّذى لا يزول، وقال أبو بكر المصرى لا إله إلا اللّه فى القرآن فى تسعة وثلاثين موضعا. ابن عباس فى قوله تعالى ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ ، قال العدل شهادة أن لا اله إلا اللّه ، قال ابن مسعود إن أجمع آية فى القرآن إنّ اللّه يأمر بالعدل والإحسان الآية، قوله لا تستوى الحسنة ولا السيئة ، قيل الحسنة شهادة أن لا اله إلا اللّه ، والسّيئة الشّرك باللّه ، ابن عباس قال: إذا قال العبد لا إله إلا اللّه أخذت مع عمود فتحرْق سماء سماء وصفا صفا من الملائكة ولها دوى كدوى النحل حتى تبلغ العرش فيقول لها حملة العرش اسكنى ياعظمة اللّه فتقول لا أسكن حتى ينظر اللّه إلى قائلى. فلا يلتام الخرق الذى خرق قول لا إله إلا اللّه حتى ينظر الله إلى قائلها. وقال ابن عباس: من نظر الله إليه بالرحمة لم يعذب بها ، قوله عز وجل ﴿وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾ قال ظاهرة قول لا إله إلا الله وباطنة ستره معاصيكم. قيل يارسول اللّه ظاهرة قد عرفناها فالباطنة ما هى قال عليه السلام : ما لورآك الناس عليها مقتوك ، ومن قرأ نعمه على واحدة ظاهرة على اللسان وهو قول لا إله إلا اللّه وباطنة فى القلب قال عبدالله بن المفرح : أحصيت لله تعالى على فى كل يوم وليلة من وجه واحد أربعة عشر ألف نفس عن سليم قال : سمعت أبا بكر الصديق يقول قال لى رسول اللّهﷺ اخرج فناد: من شهد أن لا إله إلا اللّه وجبت له الجنة ، قال فخرجت فلقينى عمر وقال مالك يا أبابكر فقلت قال لى رسول الله ﷺ اخرج

قتاد: من شهد أن لا إله إلا الله وجبت له الجنة فقال عمر ارجع إلى رسول الله ﷺ فإني أخاف أن يتكلوا عليها قال فرجعت فقال لي رسول الله ﷺ ما ردك ياأبا بكر فأخبرته بقول عمر فقال عمر نعم يارسول الله اترك الناس فليعملوا فقال رسول الله صدق عمر. أنس بن مالك قال سمعت رسول الله ﷺ يقول من قال لا إله إلا الله مخلصاً خرقت سبع سقوف السموات السبع فلم تلتئم خروقهن حتى ينظر الله إلى قائلها فيغفر له. الضبي في قوله تعالى ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ قال قول لا إله إلا الله. غسان بن مالك الأنصاري قال قال رسول الله ﷺ لن يوافي عبد يوم القيامة وهو يقول لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله تعالى إلا حرمه الله تعالى على النار. وعن أنس بن مالك عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال: يشهد من مات وهو شهد أن لا إله إلا الله صادقا من قلبه دخل الجنة. وعنه ﷺ ، قال : لا إله إلا الله كلمة ألف الله بها المؤمنين فمن قالها وأتبعها بالعمل فقد أوجب العمل وأما من قالها ولم يتبعها بالعمل لم ينتفع. وقيل : يارسول الله إن الناس قالوا لا إله إلا الله فعمى علينا بها الكافر من المؤمن فقال أنا أدلكم على الفرق في ذلك إن المؤمن إذا قال لا إله إلا الله أتبعها العمل الصالح وإذا أصبح فهمه الله والجنة والنار. وإن الكافر إذا قال لا إله إلا الله أتبعها الفجور وإذا أصبح فهمه بطنه وفرجه ودنياه .

فصــل

قيل في قول الله ﴿ وما يدريك لعله يزكى ﴾ يقول لا إله إلا الله. ابن عباس عن النبي ﷺ قال لما قال فرعون لا إله إلا أنت جعل جبريل عليه السلام يحشو في فيه الطين والتراب. أبو هريرة قال رسول الله ﷺ قال لي جبريل عليه السلام لو

رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر فأدسه فى فى فرعون مخافة أن يثنى فتدركه الرحمة . ابن عمر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال لى جبريل عليه السلام يامحمد ما غضب ربك علي أحد غضبه علي فرعون إذ قال ما علمت لكم من إله غيرى، وإذ حشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلي، فلما أدركه الغرق ما فككت أحشو فاه رملا مخافة أن تدركه الرحمة .

فصــل

قيل قال رسول الله ﷺ قال موسى : إلهى علمنى عملا أنجو به من النار وأدخل به الجنة، فأوحى الله إليه ياموسى قل لا إله إلا اللّه ، فقالها فأوحى إليه قل قالها ثلاثاً فأوحى اللّه تعالى إليه ياموسى استحققت بقول لا إله إلا اللّه الجنة، ياموسى لو وضع قول لا إله إلا اللّه فى كفة ووضع جميع ما خلقت فى كفة لرجح قول لا إله إلا اللّه بذلك كله. أنس قال قال رسول اللّه ﷺ لا إله إلا الله تطفئ غضب الرب مالم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم، فإذا آثروا صفقة دنياهم على دينهم قالوا لا إله إلا اللّه ردت عليهم ، وقال اللّه تبارك وتعالى كذبتم. قوله عز وجل «الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » قال ابن زيد نزلت فى ثلاثة نفر كانوا فى الجاهلية ، يقولون لا إله إلا اللّه زيد بن عمرو بن نفيل وأبو ذر الغفارى وسلمان الفارسى لم يأتهم كتاب ولا نبى إلا أنهم استعموا أقاويل الناس وكــان أحسنها قول لا إله إلا اللّه، فاتبعوه. والذى جاء بالصدق قيل هو قول لا إله إلا اللّه زعم هاشم عن مهاجر أن خير الكلام لا إله إلا اللّه. زيدبن أسلم قال قال موسى عليه السلام يارب

من الأمة المرحومة قال أمة محمد ﷺ يرضون بالقليل من العطاء وأرضى منهم بالقليل من العمل وأدخلهم الجنة بأن يقولوا لا إله إلا اللّه. ابن عمر قال قال رسول اللّه ﷺ ليس على أهل قول لا إله إلا اللّه وحشة فى القبور ولا فى النشور وكأنى بهم وهم ينفضون التراب عن رءوسهم وهم يقولون الحمد للّه الذى أذهب عنا الحزن. وعن أنس بن مالك عنه ﷺ ما على أهل قول لا إله إلا اللّه مخلصاً وحشة عند الموت ولا وحشة من قبورهم ينفضون التراب عن رءوسهم وهم يقولون : الحمد للّه الذى أذهب عنا الحزن. الحسن: لا إله إلا اللّه ثمن الجنة. عن عمار أنه قال لعمر سمعت رسول اللّه ﷺ يقول لأعلم كلمة لا يقولها العبد حقا من قلبه فيموت على ذلك إلا حرم على النار. وقبض ولم يبينها لنا ﷺ فقال عمر أنا أخبرك عنها هى التى إلاص عليها غمة الموت شهادة أن لا إله إلا اللّه. قوله إلاص عليها غمة أى إدارة عليها يقال ألصته على كذا ألصه إلاصة إذا أنت أدرته على شىء تطلبه منه وأنا ألاوصه مثل أداوره ، وفى الحديث أن رجلا قتل رجلا يقول لا إله إلا اللّه فقال له النبى ﷺ أقتلته بعد أن قالها فقال يارسول اللّه إنما قالها متعوذا فقال النبى ﷺ فهلا شققت عن قلبه. فقال الرجل هل كان يبين لى ذلك شيئا فقال عليه السلام فإنما كان يعرب عما فى قلبه لسانه، ومنه الحديث أنهم كانوا يستحبون أن يلقنوا الصبى حين يعرب أن يقول لا إله إلا اللّه سبع مرار معناه يبين لك القول ما فى قلبك ، وليس هو من إعراب الكلام .

فصــل

عن النبى ﷺ أنه قال: بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة. فبلغنا أن

رجلاً قام هنالك فركع ثم أخذته السنة فرأى بين القبر والمنبر سنبل ذهب بعضه لازق بالأرض وبعضه مرتفع وآخر قد علا حتى خرق السماء مصعداً فقال ما هذا فقال له قائل هذا قول لا إله إلا اللّه فقال ما لى أرى منه شيئاً أعلى من شيء قال له هذا لازق بالأرض إذا قالها العبد فى نفسه وهذا الذى ارتفع منه إذا جهر بقولها العبد وهذا الذى مصعداً إذا قالها العبد بنية صادقة مخلصاً صعدت حتى تخرق سبع سماوات حتى تكون تحت العرش فتقول إلهى اعتق قائلى من النار فيقول اللّه تعالى وعزتى وعلوى فوق خلقى ما أنطقت لسان عبدى بهذه الكلمة مخلصاً وأنا أريد عذابه. قيل كان هجير أبى بكر الصديق قول لا إله إلا اللّه، ومعنى لا إله إلا اللّه أى لا ثانى معه ولا أحد يستحق العبادة سواه، ويقال هو إقرار بعد نفى ويكره أن يقول الإنسان لا إله ثم يقطع حتى يصلها بلا إله إلا اللّه ، هجير الرجل عادته ودأبه وقال ذو الرمة :

رمى فأخطأ والأقدار غالبة فانصاع والويل هجيراه والحرب

انصاع أى ذهب مسرعاً وقال آخر :

فقام هجيراه لما أن غدا عند الصباح يحمد القوم السرا

قال هجيراه وهجورته فى معنى هجيراه .

فصـــل

عن النبى ﷺ أنه قال: لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا اللّه. وعنه ﷺ أنه قال لحذيفة: خير لعبد عند موته يقول لا إله إلا اللّه دخل الجنة. ومن ختم عند موته

بإطعام مسكين أو صيام يوم دخل الجنة. قال له حذيفة أكتم هذا أو أعلنه قال بل أعلنه بل أعلنه .

وروى أن الحسن دخل على جابر بن زيد وهو يجود بنفسه فقال له : ياأبا الشعثاء قل لا إله إلا الله . فسكت فاشتد ذلك على الحسن ثم أعاد عليه القول ثانية فلم يجب فاشتد على الحسن، وقال رجل مثل جابر بن زيد لايرزق عند موته شهادة أن لا إله إلا الله ثم أعاد عليه القول ثالثة فقال جابر قد طالما قلناها إن تقبلت ثم تلا قول الله تعالى ، هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك ، الآية فقال الحسن علماء ورب الكعبة هكذا روى ، واللهّ أعلم .

* **مسألة :** وقول لا إله إلا الله كسائر العبادات وأول المفترض على المكلفين فمن لم يقصد بقولها إلى توحيد الله تعالى لإنفاذ العبادة على سبيل الفرض الذى أمر به أو النفل الذى ندب إليه بعد دخوله فى الجملة لم يكن مطيعاً بل يكون عاصياً. ومن أقر بأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وصدق به لم يثبت له الإسلام بهذا وحده ، حتى يقر بالجملة بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن ما جاء به محمد ﷺ عن الله حق .

* **مسألة :** ولايجوز لمن يبيع السمك أن يجعل قول لا إله إلا الله علامة لبيع سمكه، وذلك أن يقوله ويرفع صوته ليعلم أن معه سمكاً فيصل إليه من يريد شراءه . وكذلك يكره لمن يعمل عملاً أن يقول عند فراغه منه لا إله إلا الله فيجعل ذلك علامة لفراغه من عمله كالبناء والكيال والعداد وكل ذى عمل إذا فرغ من عمله أو بلغ منه شيئاً وأراد رفع يده عنه قال لا إله إلا الله فهذا لا يجوز وقد قيل إن

الكيال إذا كال وطفف وقال لا إله إلا الله تقول الملائكة عليهم السلام كذبت لعنك الله ، لست تعرف لا إله إلا الله، وتفسير أنه لم يعرف لا إله إلا الله فضيع ما أمر الله به وركب ما نهاه عنه ولو عرف حق لا إله إلا الله لم يركب ما نهى الله تعالى ويضيع أمره ويصر على ذلك .

فصــل

تقول قد هيلل فلان إذا أكثر من قول لا إله إلا الله وقد أكثر من البسملة إذا أكثر من قول بسم الله قال :

لقد بسملت ليلى غداة لقيتها　　ألا حبذا ذاك الحبيب المبسمل

وقد أكثر من الحولقة إذا أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وقال :

فداك من الأقوام كل مبخل　　يحولق إما ساله العرف سائل

ويقال حولق وحوقل إذا قال لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وفيه خمسة أوجه لا حول ولا قوة إلا بالله والثانى لا حول ولا قوة إلا بالله والثالث لا حول ولا قوة إلا بالله والرابع لا حول ولا قوة إلا بالله والخامس لا حول ولا قوة إلا بالله، ويقال قد أكثر من الحمدلة إذا أكثر من قول الحمد لله، وقد أكثر من الجعفلة إذا أكثر من قوله جعلت فداك وأكثر من الحيعلة إذا أكثر من قوله حى على الصلاة أو حى على كذا وقال الشاعر :

أقـول لهـا ودمـــع العين جار　　ألـــم تـحزنـك حيعلــة المنـادى

وقال آخر :

ألا رب طيف منك بات معانقى   إلى أن دعا داعى الصلاة فحيعلا

قال اللّه عز وجل ، إن الله لا يظلم مثقال ذرة، ،ولا يظلم الناس شيئاً ، ، وما اللّه يريد ظلما للعباد ، ومثل هذا فى القرآن كثير ، فلا يجوز على الله العادل الكريم الرءوف الرحيم ضد ما وصف نفسه به ، ولو لم يصفه بالعدل لكان موصوفاً بضده فلما نفينا عنه الجور وصفناه بالعدل فإن قال قائل فما معنى العدل قيل : أما فى اللغة فهو الحكم بالعدل والحق تقول : هو يعدل فى حكمه ، وأما قول الفقهاء فهو فعل ماله أن يفعله فى الحكمة وإعطاء المستحق ما يجب له . والجور ضد العدل وهو منع المستحق ما يجب له ، فلما نفينا عنه تعالى الأضداد وصفناه عادلاً .

باب
فى القضاء والقدر

القضاء فى اللغة على أربعة وجوه: قضاء خلق وقضاء حكم وقضاء أمر وقضاء إخبار وإعلام. فأما قضاء الخلق فهو كقوله تعالى عز وجل ، فقضاهن سبع سموات ، أى خلقهن . ويقال قضيت الأمر فرغت منه وأحكمته وكل شيء حكمته فقد قضيته وقال أبو ذؤيب :

وعليهما مسرودتان قضاهما داود أوصنع السوابغ تبع

قضاهما أى صنعهما وأحكمهما. وأما قضاء الحكم فهو كقوله تعالى ، إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة، أى يحكم بينهم . وأما قضاء الأمر فهو كقوله تعالى عز وجل ، وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، أى أمر ربك، وهى فى قراءة عبدالله ، وأوصى ربك، وقال الفراء قال ابن عباس هى ، ووصى ربك ، التصقت واوها بالصاد فصارت قافا. قال والعرب تقول تركته يقضى بين الناس أى يأمر فينفذ أمره. وأما قضاء الخبر فهو قوله تعالى ، وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب ، أى أخبرناهم وأعلمناهم. ومن ذلك قضاء الله وقدره أى قد أتقن الأشياء وأحكمها وأبرمها وفرغ منها .وإنما سمى القاضى قاضياً لهذا المعنى يقال قضى بين الخصمين أى فصل بينهما وفرغ. ومنه قيل للميت قد قضى أى فرغ من الدنيا وفصل منها وقيل للموت قضاء لأنه إمضاء وفروغ وقال الحارث بن حلزة :

وثمانون من تميم بأيديهم رماح صدورهن القضاء

يعنى الموت. يقول فى أسنتهن الموت، فقضاء المعصية قضاء خلق لاقضاء أمر ولارضى .

* **مسألة :** فإن قال قائل أفتقولون أن الله قضى المعصية على العبد قيل له نعم. فإن قال فما معنى قضى المعصية قيل له معناه خلق المعصية من مكتسبها. وقضى الطاعة أمر بها وحث عليها، فإن قال فقضى عليه الكفر ثم يعذبه بما قد قضاه عليه قيل له قد قلنا أن القضاء ينصرف على وجوه فإن أردت أنه قضى عليه الكفر أى خلق الكفر من الكافر قبيحا فاسداً مذموما متناقضاً فكذلك نقول. وإن أردت أنه قضى عليه أجبره عليه أو أمره به أو رضيه منه فلا. وقد ذكر أن وفد نجران قالوا للنبى ﷺ يكتب الله علينا الذنب ثم يعذبنا فقال ﷺ أنتم خصماء الله .

القدر فيه لغتان، تقول العرب قدر الله وقدره بفتح الدال وجزمها وهو القضاء المؤقت، وقد جاء باللغتين فى القرآن قال عز وجل « إنا كل شىء خلقناه بقدر » وقال الله تعالى « قد جعل الله لكل شىء قدراً » وليلة القدر هى ليلة تقدير الأشياء كلها إلى حول السنة القابلة قال عز وجل « فيها يفرق كل أمر حكيم » وقال ابن أحمر :

ولكـل أمـر واقـع قـدره

وقال الفرزدق :

وما صب رجلى فى حديد مجاشع   مع القدر إلا حاجة لى أريدها

ويقال للقدر كتاب كان على كل شىء قد قدره الله فقد كتبه وقال الجعدى :

يابنت عمى كتاب الله أحرجنى   عنكم وهل أمنعن الله ما فعلا

والقدر فى كلام العرب التقدير ، يقال قدرت الشيء وقدرته بالتثقيل والتخفيف، وهو من التقدير. ومن أسماء القدر المنية تقول العرب منا لك المانى أى قدر لك المقدر . وقال صحر العى :

لعمر أبى عمرو لقد ساقه المنى إلى جدث يورى له بالأهاضب

أى ساقه القدر وقال آخر :

ولاتقولن لشيء سوف أفعله حتى يبين ما يمنى لك المانى

أى يقدر لك المقدر . وقال آخر :

منت لك أن تلاقينى المنايا أحاد أحاد فى شهر حلالى

وعن عكرمة عن ابن عباس أنه سئل عن القدر فقال : الناس فيه على ثلاثة منازل: من جعل للعباد فى الأمر مشيئة فقد ضاد اللّه فى أمره ، ومن أضاف إلى اللّه شيئاً مما ينزه الله عنه فقد افترى على الله عظيما ، ورجل قال رحمت فبفضل الله فذلك الذى سلم له دينه ودنياه جميعاً ولم يظلم اللّه فى خلقه ولم يجهله فى حكمه . وفى حديث النبىّ ﷺ أنه كان إذا مر بهدف مائل أسرع المشى ، فقيل له يا رسول اللّه، أتفر من قضاء اللّه ، قال أفر من قضاء الله إلى قدره ، وعن بعض أصحاب جعفر بن محمّد قال كنت معه فقلت فى كلامى ما شاء اللّه وأراد اللّه وقدر وقضاه، إن الله إذا أراد شيئاً شاءه فإذا قدره قضاه فإذا قضاه أمضاه .

* **مسألة** : فإن قال قائل فما القدر ؟ قيل له هو الخلق، فإن قال فيعذب على القدر قيل له: لا . إنما يعذب على المقدور . فإن قال فما الفرق بينهما قيل له القدر فعل اللّه تعالى والمقدور هو فعل العبد ، كذلك قوله تعالى «وكان أمر الله قدراً

مقدوراً، فالقدر فعله عزّ وجلّ والمقدور فعل خلقه ، والمقادير من اللّه عز وجل .

وقد روى أن النّبى ﷺ قال: سيكون فى هذه الأمة قوم يعملون بالمعاصى ، ثم يقولون هى من اللّه قضاء وقدر، فإذا ألفيتموهم فأعلموهم أنى منهم برىء ، وروى أن رجلا قال له ﷺ : بأبى أنت وأمّى يا رسول اللّه ، متى يرحم الله عباده ومتى يعذبهم ؟ قال : يرحم الله عباده إذا عملوا بالمعاصى فقالوا هى منا ، ويعذب الله عباده إذا عملوا بالمعاصى فقالوا هى من اللّه قضاء وقدر ، فالطاعة والمعصية هما من اللّه خلق ومن العباد عمل . وقد روى عن الأصبع بن نباتة أنه قال : لما رجع على بن أبى طالب من صفين قام إليه شيخ فقال يا أمير المؤمنين أخبرنا عن مسيرنا إلى الشام أكان بقضاء وقدر . قال: والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ما وطئنا موطئا ولا هبطنا واديا ولا علونا تلعة إلا بقضاء وقدر . فقال الشيخ: أحتسب عنائى والله ما أرى لى فى الأجر شيئا ، فقال له على : بل أيّها الشيخ لقد عظم أجركم فى مسيركم وأنتم سائرون وفى منصرفكم وأنتم منصرفون ولم تكونوا فى شىء من حالاتكم مكرهين ولا إليها مضطرين ، فقال الشيخ: كيف لم نكن مضطرين والقضاء والقدر إذاً ساقانا وعنهما كان مسيرنا وانصرافنا ، فقال علىّ: ويلك أيّها الشّيخ لعلك ظننت قضاءً لازماً وقدرا حاتما لو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب والوعد والوعيد والأمر والنّهى . ولم تكن تأتى لائمة لمذنب ولا محمدة لمحسن، ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسىء ولا المسىء أولى بالذم من المحسن ، تلك مقالة عبدة الأوثان وجند الشّيطان وخصماء الرحمن وشهود الزّور وأهل العمى عن الصّواب ، وهم قدرية هذه الأمة ومجوسها إن الله تعالى أمر تخييرا ونهى تحذيرا وكلف يسيراً ولم يعص مغلوبا ولم يطع مكرهاً ولم يرسل الرسل عبثا ولم يخلق

السموات والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ، فنهض الشيخ مسروراً ، وهو يقول :

أنت الامام الذى نرجو بطاعته   يوم النشور من الرحمن رضوانا

أوضحت من ديننا ما كان ملتبسا   جزاك ربك عنا فيه إحسانا

ومعنى كلام على أن الله تعالى لم يجبر عباده على طاعة . ولم تكن معصية العاصى لغلبة، ولا طاعة المطيع على كره وجبر . تعالى اللّه . وقوله قدرية هذه الأمة ومجوسها أما القدرية فلأنهم يكذبون بالقدر ، ويقولون لا قدر ، وقالت المجبرة إنما سموا بالمجوس لأنهم ضاهوا المجوس فى قولهم حين قالت إنّ الله خلق الخير ولم يخلق الشر ، ولم يرده ، وإن الشيطان يخلق الشر تعالى اللّه خالق كلّ شيء. وللقدرية آراء مختلفة ومذاهب كثيرة تأتى بعد هذا عند ذكر الفرق والمذاهب إن شاء اللّه .

فصل

قال أبو عبد اللّه رحمه الله : يسمون أصحابنا المجبرة يقولون إنهم يقولون إن الله تعالى جبر العباد على المعصية، وليس ذلك من قول أصحابنا، يقولون إن الله تعالى خلق الطاعة والمعصية وأمر بالطاعة ونهى عن المعصية ، وعلم من يعمل بالطاعة والمعصية ، فنفذ علم الله تعالى كما علم . وقول أصحابنا إن الله تعالى ما أجبر أحداً على طاعة ولا معصية، وأنّه تعالى أمر بالطّاعة وأحبّها ورضيها وربها. فمن عمل بها فبعلم اللّه واللّه المانّ عليه . وأنه تعالى نهى عن المعصية وأبغضها

وكرهها وقبحها، فمن عمل بها فبعلم الله ولله الحجة عليه ، قال أبو عبد اللّه إن القدر مما يسع جهله حتى يركب الجاهل به شيئا مما يوجب على من ارتكبه الكفر .

فصـــل

روى عن جعفر بن محمد وسأله رجل فقال له: العباد مجبرون فقال إن الله تعالى هو أعدل من أن يجبر خلقه على المعاصى ثم يعاقبهم عليها ، قال فمفوض إليهم قال هو أعز من أن يكون لأحد فى ملكه سلطان، قال فكيف هو ، قال هو أمر بين أمرين لا جبر ولا تفويض .

عمر بن سعيد عن جده عن النبّى ﷺ أنه قال : لا يؤمن عبد أبدا حتى يؤمن بالقدر كله خيره وشره ، وعن على بن أبى طالب : عن النّبى ﷺ أنه قال : لا يؤمن عبد أبداً حتى يؤمن بأربع: لا إله إلا اللّه وأن محّمداً عبده ورسوله ، وبالبعث وبالقدر كله ، وعن ابن عباس أنه قال : لا يأتينى رجل من هؤلاء الذين يتكلمون فى القدر فيزعمون أن أعمال العباد مفوضة إليهم أما يقرءون هذه الآية «وما تشاءون إلا أن يشاء اللّه » ، « يدخل من يشاء فى رحمته » يعنى فى دينه . «ومن يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم » وقال قائلهم: اللّه ، أما يقرءون « وكل صغير وكبير مستطر » « وكلّ شىء خلقناه بقدر » .

سئل عامر الشّعبى: ما تقول فى القدر قال أقول ما قال اللّه تعالى فى كتابه ، وما قال رسول اللّه ﷺ يوم الجمعة، قال الرجل: وما قال الله تعالى فى كتابه؟ قال عامر « ما أنتم عليه بفاتنين ، إلا من هو صال الجحيم » .

* **مسألة** : قال فما هذه الآية؟ قال: ما أنتم بمضلين إلا من سبقت له الشقوة ومن هو صال الجحيم ، قال فما قال النبى ﷺ يوم الجمعة ، قال: من يهد اللّه فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له .

* **مسألة** فى العلم: قولنا أن الله تعالى عالم وأن له علما بمعنى أنه العالم بالأشياء لأن له علما هو غيره به علم الأشياء ، وقولنا إن له تعالى علماه كما قال عز وجل فى كتابه « أنزله بعلمه » أى أنزله وهو العالم به ، ونقول أن له قدرة بمعنى أنه القادر لأن له قدرة هى غيره .

* **مسألة** : فإن قال قائل ما أنكرتم أن يكون عالما بعلم إذ لم نشاهد عالما إلا بعلم ، قيل له ولم نشاهد عالما إلا وقد كان قبل ذلك غير عالم فيجب أن لا نقضى بالشاهد على الغائب . فإن قال: فما أنكرت أن يكون ما تقولونه أنه عالم بنفسه لا معنى له لأنه لا يخلو من أن يكون عالماً بنفسه أو عالماً بعلم . فإن كان عالماً بعلم فهو ما تقوله وإن كان عالما بنفسه وجب أن يكون نفسه علماً فلما استحال أن يكون نفسه علما وجب أن يكون عالما بعلم ، قيل له إن العالم إنما كان عالماً بوجود علمه، وقولنا عالم بنفسه إثبات للذات الذى أنكرناه أنه غيره أن يكون قديما أو محدثا فإن كان قديما وجب أن يكون القديم قد كان غير عالم بما علم فلما فسد هذان الوجهان صح ما نقوله أنه عالم نفسه .

* **مسألة** : فإن قال: هل يعلم اللّه نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النّار ، قيل له نعم يعلم ذلك إلى غير غاية ولا نهاية سبحانه وتعالى هو العالم بما كان وما يكون وما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون، لا يخفى عليه ، فإن قال: فما الدليل على

أنه يعلم ما يكون من الأشياء قبل أن يكون ، قيل له: لو كان غير عالم بها قبل كونها كأن يكون جاهلا بها فلما كانت أفعاله على مقدار علمه بها علمنا أنه عالم بها قبل كونها .

* **مسألة** : فإن قال فالعلم ساق العباد إلى ما عملوا من المعاصى ، قيل له إنا لا نقول كذلك ، لكن سولت لهم أنفسهم وزين لهم الشيطان ، حتى كان منهم ما علم اللّه عز وجل. فإن قال. فيقدر من علم الله تعالى منه المعصية أن يفعل خلاف ما علم الله ؟ قيل له: لا ، فإن قال فإذاً هو مجبور ، قيل له وإنما قلنا أنه لايقدر على فعل ما علم الله أنه لا يفعله ليشاغله بفعل ما أمر به أو نهى عنه، فأما إن ترك ما اختار فهو قادر على فعل ما اختار فى الحال التى يختار فيها الفعل الثانى، فهو يشغله بفعل لا يقدر على فعل آخر ، ولكنه قادر على ترك ذلك فى حال تركه من غيرمانع له من تركه ولا جابر يجبره ولا حائل بينه وبينه من قبل اللّه تعالى وإنما أوتى من قبل نفسه ، فإن قال: فما الدليل على أنه إذا لم يفعل ما أمر به كان فاعلا خلافه ، قيل له: إن العبد لا يخلو من أحد أمرين إما حركة أو سكون فهو إن كان متحركاً أو ساكناً فهو فاعل لأحد الأمرين وبأيهما كان مأمورا ففعل خلافه فقد فعل خلاف ما كلف، ومن لم يعمل بما أمر به فليس بقادر عليه لأنه لا يقدر فى وقت واحد على فعل شيء وتركه وذلك محال ، والقدرة على المحال محال ، فإن قال: أليس قد علم اللّه تعالى من يكون مؤمناً ومن يكون كافرا قبل أن عملوا ، قيل له بلى ، فإن قال : فقد كانوا كفّاراً قبل أن يعملوا ، قيل له هذا محال ، وليس كل من علم الله تعالى أنه يعمل شيئا يكون فاعلا له قبل فعله ، وهذا ما لا تجهله العقول، ومن اعتقد هذا فقد أثم وجار عن الحق لأن علم اللّه تعالى فى العبد أنه يعمل غير

علم العبد أنه قد عمل ، لأن علمه إنما هو كان بعد أن لم يكن ، وعلم الله تعالى لم يزل عالما بما يكون قبل كونه ، وفى حال كونه وبعد كونه ، فهو العالم بالأشياء لا يخفى عليه شيء منها .

فصل

سل الجهمية عن الله تبارك وتعالى أكان قبل علمه أم لم يزل معه علمه والعلم هو الله لأن ما لم يزل ينبغى أن يكون هو الله ، فإن قالوا علمه مخلوق فقل لهم قد كان ولا علم له ، فإن قالوا نعم ، فقل قد كان ولم يعلم شيئا ، ثم قل لهم هل كان يعلم أنه ليس معه شيء قبل أن يخلق شيئاً ويعلم أنه ليس كمثله شيء ، فإن قالوا فقل لهم قد وصفتم أن له علما ، واسألهم عن الإرادة والعلم المخلوقين أيهما قبل صاحبه ، فإن قالوا العلم كان قبل الإرادة فاسألهم خلق العلم وهو لا يريد أن يخلقه ، وكيف يخلق شيئاً وهو لا يريد خلقه، ثم قل لهم إن زعمتم أن الإرادة قبل العلم فقد زعمتم أن هنالك شيئاً مخلوقاً لم يعلمه، وأن الإرادة مخلوقة فقد كانت وهو لا يعلمها فى قولكم .

آخر : واسألهم عن حاله تعالى قبل أن يخلق شيئاً هل كان يعلم شيئاً أو يريد شيئاً ، فإن قالوا نعم وأعطوك ذلك فقد دخلوا فى قولك. وإن زعموا أنه لم يكن يعلم شيئا فمن سمى يومئذ عالما أو سميعا أو بصيرا أو ربا أو خالقا فهو مشرك .

فصــل

سل القدرية أيها أحب إلى اللّه تعالى نفاذ علمه فى ترك أمره أو الأخذ بأمره فى إبطال علمه ، فإن قالوا لا يحب واحدا منهما ، فقل أخبرونا ماذا أحب فأنتم مقرون بأنه قد علم قبل أن يخلق أن سيعصى إلا أن يكفروا فلا يقروا بأنه لم يزل يعلم قبل خلق الخلق أنهم سيعصون، فقد تركتم قولكم أنّ اللّه تعالى أحب وأراد وشاء أن ينفذ علمه فى أن يعصى فقد تركوا قولهم رأسا ودخلوا فيما عابوا علينا ، فإن قالوا أحب وشاء وأراد الأخذ بأمره فى إبطال علمه ، فقل: أليس قد أحب ورضى وشاء وأراد أن يكون فرعون وهامان وجنودهما ، ومن أهلك بالمثلات من القرون الأولى من المؤمنين، فإن زعموا أنه أراد ذلك فقد زعموا أنه أراد تعالى لنفسه الجهل والخلف والكذب ، فهذا الكفر بالله لمن قال به ، وإن زعموا أن الله تعالى أحب وأراد أن ينفذ علمه ويفى بما وعد فقد تركوا علمهم رأسا ودخلوا فيما عابوا على من خالفهم، وأقروا بأن اللّه قد أحب وأراد وشاء ورضى أن يكون ما قد علم من المعصية.

* **مسألة :** فإن قالوا ما هذا العلم الذى أخبر الله تعالى به والوعد الذى وعد، فقل قوله تعالى لنبيّه ﷺ « إنّ الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون» وقوله تعالى « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم» الآية ، وقوله تعالى لنوح عليه السّلام « إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن » الآية . وفى آيات كثيرة من القرآن يخبر تعالى فيها بعلمه فيمن سبق عليه الشقاء كل ذلك يكذب مقالتهم أنه لم يحب أن يكونوا مؤمنين مهتدين .

فصـــل

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، سمعت رسول اللّه ﷺ سئل عن قول اللّه عزّ وجل ، وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم، الآية ، فقال عليه السلام: إن اللّه تبارك وتعالى خلق آدم فاستخرج ذرية من قومه فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم استخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون ، فقيل : يا رسول اللّه فما العمل ، فقال ﷺ إنّ اللّه تعالى إذا خلق أحدا للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الجنة ، وإذا خلق أحداً للنّار استعمله بعمل من أعمال أهل النّار حتى يموت على أعمال أهل النّار فيدخله النّار. وقال كتاب كتبه اللّه فيه أهل الجنة بأسمائهم مجمل عليهم لا يزداد فيهم ولا ينتقص منهم، وقد سلك بأهل السعادة طريق أهل الشقاء ، حتى يقال كأنهم منهم بل منهم ، ثم يخرجهم الله قبل الموت ولو بفواق ناقة ، ثم سلك بهم طريق أهل السعادة وقد سلك بأهل الشقاء طريق أهل السعادة حتى يقال كأنهم هم بل هم ثم يخرجهم الله قبل الموت ولو بفواق ناقة حتى يسلك بهم طريق أهل الشقاء ، فالسّعيد من سعد بقضاء اللّه والشقى من شقى بقضاء الله ، والأعمال بخواتمها ، وقال أبو بكر يرفع الحديث : خلق اللّه الخلق قبضتين ، فقال هؤلاء فى الجنة فهنيئاً لهم، وهؤلاء فى النار ولا أبالى ، وعن النبّى ﷺ ، أنه قال: إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا مقدار ذراع أو باع ثم يدركه العلم السّابق فيعمل عمل أهل النّار فيموت على ذلك فيصير إلى النّار ، وإن العبد ليعمل بعمل أهل النار حتى لا يبقى بينه وبين النار إلا مقدار ذراع أو باع ثم يدركه العلم السابق فيعمل بعمل أهل الجنة فيموت

على ذلك فيدخل الجنة .

* **مسألة** في الإرادة : قال الله عز وجل « إن الله يفعل ما يريد » وهذه صفة ذات لأن كل ما علمه الله فقد أراده ، وليست إرادته تعالى فعلاً من أفعاله ولا نقول بذلك كما قال من جار عن الحق ، ولو كان فاعلاً إرادة محدثة بها خلق لم يخل أن يكون إحداث إرادته في نفسه أو في غيره أو قائمة بنفسها ، فإن قال إنه أحدثها في نفسه فليس هو محل للحوادث ، وإن قال أحدثها في غيره كان ذلك الغير مريدا وإن قال أحدثها قائمة بنفسها كان مستحيلا لأنّها صفة والصّفة لا تقوم بنفسها. فلما فسدت هذه الوجوه صح أنه تعالى لم يزل مريدا كما أنه لم يزل قادراً عالماً ، ومما يدل على فساد ما قالوا من أن الله تعالى خلق إرادة له بما أراد ، قوله تعالى «إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » فلما لم يجز أن يكون قوله مقولا لم يجز أن يخلق إرادته ، فلو جاز أن يقول لقوله جاز أن يريد إرادته وكان قد أراد إرادة وإرادة بإرادة إلى ما لا نهاية له ، وهذا قول فاسد لا يجوز لقائله .

* **مسألة** : فإن قال قائل إن قوله تعالى أردناه إرادة إنما هو فعلناه ، قيل له إن كان معناه إرادة بها أراد إذا كان إنما هو فعل من غير إرادة .

* **مسألة** : فإن قال ما أنكرتم أن الله تعالى لم يكن يريد ثم أراد ، قيل له أنكرنا ذلك لأنّه لو لم يكن مريدا لكان موصوفا بضد الإرادة من الترك والأضداد عن الله تعالى منفية .

ويقال له أيضا ما الفرق بينك وبين من قال لم يكن عالماً ثم علم ، فإن قال إن المريد غير العالم كذبه الإجماع، لأن الاتفاق أنّ الله تعالى هو المريد العالم وهذه

الصفات له تعالى ثابتة في كتابه عزّ وجل ، والقول بأنه لم يكن مريدا ثم أراد لا يعدو منزلتين ، إما أن يكون مصيبا في أن لا يريد، ثم أراد فقد رجع عن الصواب إلى الخطأ إذا كان في أن لا يريد مصيبا فهو في أن يريد بعد أن لا يريد مخطيء، وإن كان مخطئا في أن لا يريد ثم أصاب بأن أراد، فقد انتقل عن الخطأ إلى الصواب أو عن الصواب إلى الخطأ، وقد دخله الخطأ في الوجهين جميعاً ، فلما كان هذا هكذا فسد قول من يقول أنه لم يرد ثم أراد؛ لأن هذا معناه البداء والله تعالى أن يحله البداء والغفلة والنسيان أو الخطأ أو الجهل أو أن يشبهه شيء من خلقه ، فإن تجاهل وقال إنّ اللّه قد علم بكل شيء ولم يرد ، قيل له : ما الفرق بينك وبين من يزعم أنه أراد كون الشيء ولم يعلمه ؟ لأنه فيما بيّنّا أن الإنسان قد يريد فعل الشيء ولا يعلم كيف يفعله فإن لم يحب هذا لم يحب ما قلته ، فإن قال إن العلم لا يجوز أن يوصف بالقدرة عليه وعلى خلافه والإرادة قد يوصف بها وبخلافها ، قيل له كيف يكون ذلك؟ فإن قال يجوز أن تقول أراد ولم يرد ولا يجوز أن تقول علم ولم يعلم ، قيل لهم فقد قال تعالى « أفتنبئون اللّه بما لا يعلم » فما دليلك على ذلك وهو المريد بنفسه والعالم بنفسه ولا فوق فيما اعتللت به ، ويقال لهم أتقولون أن اللّه تعالى يريد كون خلاف ما علم ، فإن قالوا نعم كفروا وإن قالوا لا يريد إلا ما علم ، قيل لهم وما ذلك ؟ فإن قالوا أراد الطاعة ولم يرد المعصية ، قيل فعلى قولكم هذا إنّه لم يرد إنفاذ ما علم .

* **مسألة** : ويقال لهم أتقولون أنّ اللّه تعالى قد علم الطاعة من المطيع والمعصية من العاصي ، فإن قالوا: نعم ، قيل لهم فأراد المعصية من العاصي والطاعة من المطيع ، وإن قالوا أراد الطاعة ولم يرد المعصية ، قيل لهم وعلم

الطّاعة ولم يعلم المعصية ، فإن قالوا نعم كفروا ، وإن قالوا قد علم جميع ذلك قيل أراد إنفاذ ذلك أم إبطاله ، فإن قالوا إبطاله كفروا وإن قالوا إنفاذه نقضوا قولهم .

فصل

المعتزلة رجلان أحدهما يقول إن ما أراد اللّه تعالى من أفعال عباده الأمر بها، والآخر يقول إن ما أراد الله تعالى من أفعال عباده غير الأمر بها. فمن ذهب إلى الأمر لزمه إذا لم يكن البارى أمر بأفعال الأطفال والمجانين أن يكون كارها لها إن كان يجب أن تبقى أفعال العباد الكراهة، والله تعالى لا يكره إلا معصية كما لا ينهى إلا عن معصية، وإن لم يكن هذا هكذا عندهم بطل ما قالوه ، وهذا يوجب أن كل مباح معصية، ومن ذهب إلى أن إرادة اللّه عزّ وجل لأفعال عباده غير الأمر بها ، قيل له إذا كان يحب يبقى الإرادة لأفعال عباده الكراهة فهل أراد اللّه تعالى كون الأفعال التى ليست بمعاصى ولا طاعات، فإن قال نعم ، قيل له فيلزمك أن تكون طاعة لأن الطاعة عندى إنما كانت طاعة للمطاع لأنه أرادها ، فإن قال لم يردها قيل له فيلزمك أن تقول أنه كاره لكونها، وهذا يوجب أن يكون معصية لأن ما كرهه الله تعالى فهو معصية عندك .

* **مسألة :** والإرادة هى صفة ذات لأن اللّه عزّ وجلّ لم يزل مريدا لما يأمر به إرادة أمر لا إرادة حتم ، فهو مريد لما أمر به مما علم أنّه يكون أنه لا يكون ولم يزل مريدا لما ينهى عنه فإما أن يكون مريداً له محباً له أو مختاراً له أو راضياً به ، فلا ، ولكن أراد أن يخلق ما علم أنه يكون مما نهى عنه ، ولم يرده طاعة ولا

حسنا ، وإنما كل ما نهى عنه ذمه وهو غير مريد له طاعة وأراد خلقه ذميما فاسداً ممن فعله مخالفاً للإيمان ، وهو غير مكره ولا مغلوب ، ولو أراد أن لا يكون حتماً لما كان ولا وجد وهو خالق له ممن فعله والفاعل له مختار لفعله غير مجبور عليه ولا ملجأ لفعله .

* **مسألة :** فإن قال قائل: فتكليف من علم الله أنه يؤمن أو أنه يكفر حسن ، قيل له نعم ، وإنما يكون الطاعة طاعة والمعصية معصية من قبل الأمر والنهى فأما بموافقة الإرادة والمراد فلا ، ولا تكون طاعة لموافقة العلم ، وذلك أن اللّه عزّ وجلّ مكننا وكلّفنا الطّاعة لحسنها ونهانا عن المعصية لقبحها ، وصرف العبد منا بتلك القوة وتلك الاستطاعة إلى ما أحب واختار لأنه مختار؛ لذلك خلق وركّب من غير إجبار أجبره الله تعالى على فعل من الأفعال، فهو محمود ومذموم بما فعل مما أمر أو نهى ، واللّه الخالق لجميع ما يحدث من فعله فى حالة فعله لأنا إذا نفينا الخلق عن فعله أحلنا فى ذلك وخالفنا الحق وأثبتنا الخلق ونفينا الإرادة لخلق ما علم أنه خالقه فى حالة لأنه إذا أثبتنا أنه خالق لما يريد خلقه فقد جعلناه مكرهاً على خلق الخلق فليس إلا أن نثبته مريدا لخلق ما علم أنه خالقه فى حاله أو غير مريد ولا خالق فقد بينا فساد ذلك ، وأيضا لو خلق كل ما يريد خلقه أوحدوثه كان فاعلاً وعابثاً تعالى الله عن ذلك ، لو حدث فى خلقه شىء لم يخلقه لجاز لطاعن أن يطعن فقال لا يجوز أن يقال لا خالق إلا اللّه فتعالى اللّه عن ذلك علواً كبيرا ، وإنما الخلق مدح للّه والله تعالى إنما أراد أن يطيعه عباده طوعاً لاكرهاً ، ولو أراد غير ذلك وإن كان لم يفعله فهو قادر عليه .

* **مسألة :** فإن قال إن مما يدل على أن الله تعالى لا يريد الكفر والفجور

أن المريد لشتمه سفيه غير حليم فلما كان الله تعالى حكيما علمنا أنه لا يريد شتمه، قيل له: إن إرادة اللّه تعالى لا تشبه إرادة خلقه وقد أراد شتم الشاتمين له معصية لا طاعة خلاف مدح المادحين له ، والله تعالى أراد ميل أهل الأهواء والشهوات عن الحق معصية لا طاعة ولم يرد ميلهم طاعة له فى ذلك ، وأراد اللّه تعالى الصّلاح ممن أتى به مختارا غير مكره طاعة ولم يرد أن يكون الصلاح معصية ، ولم يرد الكفر والضلال إيمانا ولا طاعة ، ولكن أراد الكفر من فعل الكافر معصية غير طاعة وضلالا غير هدًى وكفرا غير إيمان .

* **مسألة** : يقال للقدرية أليس للّه ملكوت السموات والأرض وما فيهما من شىء ، فإن قالوا لا ، كفروا وكذبوا بكتاب اللّه وجعلوا معه سبحانه من يملك شيئا لا إله إلا اللّه ، ودخلوا ها هنا فى قول الزّنادقة ، وإن قالوا بلى فقل أليس أراد اللّه تعالى وأحب وشاء ورضى أن يكون الكفر فى ملكه ، فإن قالوا نعم خصموا وتركوا قولهم ودخلوا فيما عابوا على خصمهم ، وأقروا بأن الله قد أحب وأراد وشاء ورضى أن يكون الكفر ، وذلك ترك قولهم ودخولهم فيما عابوا علينا ، وإن زعموا أنه تعالى لم يرد ولم يحب ولم يشأ ولم يرض أن يكون الكفر فى ملكه وسلطانه ، فقل لهم : فمن بيده ملك الكفر وسلطانه أبيد اللّه ملك ذلك وبيد غيره وفى ملكه غير اللّه وسلطانه ، فإن قالوا ليس بيد اللّه تعالى ملك الكفر وسلطانه وأنه بيد غيره وفى ملك غيره كفروا وجعلوا مع اللّه من يملك شيئا لا يملكه اللّه تعالى ، وهكذا قالت الزنادقه ، وإن أعظموا ذلك وزعموا أن الكفر فى ملك اللّه وسلطانه فقل أليس لم يزل تبارك وتعالى يريد أن يكون الكفر فى ملكه أو لم يزل لا يريد ذلك ؟ فإن قالوا لم يزل يريد أن يكون الكفر فى ملكه ، فقل لهم أليس الناس جاءوا بشىء لم يزل اللّه يريد ألا يكون

فى ملكه ، ولم يزل يريد إلا بملكه فملكوه ما لم يكن فى ملكه ، فإن قالوا كيف يكون فى ملكه ما لم يكن بشيء بعد فقل كما لم يزل ربّ العالمين قبل أن يكون العالمون ، وكما كان ملك يوم الدين من قبل أن يكون يوم الّدين ، فاللّه تبارك وتعالى لم يحدث له بخلق من خلق ملك لم يكن له قبل ذلك ولا علم لم يكن يعلمه قبل ذلك ، وإن قالوا لم يرد أن يملكه العباد شيئاً لم يكن يملكه فقد تركوا لم يرد أن يكون الكفر فى ملكه ، وإن أبوا إلا أن يقولوا لم يرد أن يكون الكفر فى ملكه ، فقل لهم: هل أراد اللّه أن يكون الكفر فى ملكه ، أو لم يرد ذلك ، فإن قالوا لم يرد ذلك فقل فمن أكرهه وأجبره على أن يجعل فى ملكه وسلطانه ما لم يزل يريد أن لا يكون فى ملكه فأراكم تصفون ربكم بأنه مجبور مغلوب على أن يملك ما لم يزل يكره أن يكون فى ملكه وسلطانه ، فإن أتموا على هذا القول كفروا باللّه وأشركوا به ما لم ينزّل به سلطاناً ووصفوه بأنه مجبور مغلوب على أن يملك ما هو كاره لملكه ، فقد قالوا هاهنا أعظم مما عابوا على خصمهم ، قالوا منكراً من القول وزوراً .

* **مسألة :** سل القدرية عن إرادة اللّه تعالى فى خلقه أعلى غير معنى كانت من اللّه تعالى يريد تمامها من العباد أم على غير معنى يريد تمامه ، فإن قالوا لا يقال لإرادة اللّه تعالى معنى وليس إرادة اللّه كإرادة العباد ، فقل : صفوا لنا إرادة اللّه فى خلقه مما أمرهم به ونهاهم عنه ، فإن قالوا الإرادة من اللّه واحدة فقل أليس إرادته من الخلق فى الطاعة ، أن يكون منهم كما أراد من خلق الخلق ، فإن قالوا بلى فقل لهم فما بال إرادته تمت فيما أراد من خلق الخلق ولم تتم فيما أراد من الخلق فى الطاعة ، وإن قالوا إرادته على غير وجه منها حتم لخلق السموات وغيرها ومنها أمره فقل فمن أى الأمرين إرادته للخلق الطّاعه إذا أراد ذلك منهم فلم يكن ،

فإن قالوا من إرادة الأمر وقالوا إرادة الحتم فقد تركوا قولهم ، وإن قالوا : ليس من إرادة الأمر ولا من إرادة الحتم فقل فما هذه الإرادة الثالثة ، وما هى ؟ فإنهم لم يأتوا بغيرها ولا قوة إلا بالله .

فصل

زعم أهل القدر أنّ الإرادة من الله تعالى فى جميع الأشياء إرادة واحدة، أراد من العباد الإيمان كما أراد أن يخلق السموات، فذلك قولهم فى أصل كلامهم فإذا اضطروا رجعوا إلى أن إرادته فى خلق السموات غير إرادته من العباد الإيمان ، قلنا لمن أقام منهم على القول الأول فإن الإرادة من الله تعالى فى جميع الأشياء واحدة أعجز الله أن يتمم ما أراد جمعا على ما أراد كما أراد من خلق السموات والأرض ، وخلق الإنسان والشمس والقمر لم يعجزه شىء مما أراد ، فإن قالوا بل أعجزه شىء فقد كفروا بالله وعجزوه وكذبوا بكلمات الله تعالى والله تعالى يقول « إن الله على كل شىء قدير » وإن قالوا: لا يعجزه وكل ما أراد فهو كائن ، قلنا فما بال الخلق ما لم يكن منهم ما أراد الإيمان كما كان ما أراد من السّموات فى تمام خلقها ، فإن قالوا بل إرادته فى كل سواء وليس كل ما أراد بكائن لأن الإرادة من الله تعالى فى خلقه حتم والإرادة من الله فيما أمر ليس بحتم، كما حتم خلق السماء فإن قالوا هى إرادة أمر فقد زعموا كما زعمنا .

فصــل

ويقال لهم أفإرادة الله من الأمر ما لم يتم كونه أم ما يتم كونه؟ فإن قالوا إرادة الله من الأمر ما يتم كونه قلنا فما دفع إرادة الله فيما أراد من عباده في أمره ، فإن قالوا إرادة الخلق دفعت إرادة الله ، قلنا أو ليس أنها كانت سبب دفع إرادة الله ما أراد الخلق لأنفسهم لأنه لو لم يحب ويرد الله تمكين الخلق من استطاعة دفع ما أراد الله لم يكن الخلق ليدفعوا ما أراد الله ولا يستطيعون دفعه؟ فإن قالوا إنما دفع العباد ذلك بما أعطاهم الله فقد زعموا أن الله دفع إرادته بإرادته، وأنه تعالى أراد ذلك جميعا ، وإن قالوا إنما يستطيع العباد خلاف ما أراد الله منهم ويفعلون خلاف ما أراد بغير تمكين منه تعالى لهم فقد زعموا أنهم مستغنون عن الله تعالى وأنهم هم الذين يفعلون ما يحبون بلا سبب من الله تعالى لهم ولا قوة أعطاهم إياها، وهذا مما يدخل عليهم ، وإن قالوا إن الإرادة من الله تعالى ليست بواحدة قلنا لهم كم هي فإن قالوا إرادات كثيرة منها ما خلق تثبت الخلق حتما منه ومنها ما ليس بحتم ، قلنا لهم أما التي في حتم خلق الخلق فنحن وأنتم فيها سواء ، وأما التي ليست بحتم وليست في قولكم بأمركم قلنا فما هي وكيف إرادة أرادها من الخلق أن يأمرهم وينهاهم ولا يجبرهم ولا يكرههم ، فإن قالوا نعم قلنا فهل أحب الله تعالى الذي أراد من الخلق في أمره ونهيه؟ فإن قالوا نعم ، قلنا فهل كان كما أحب أم إنما أراد وأحب أن يكون الأمر منه أمراً فكان كما أراد أمراً فيكونوا شركاء فيما قلنا أم إنما أراد أمراً وأحب خلافه ، فإن قالوا أراد أمراً وأحب خلافه فقد تركوا قولهم ، فإن قالوا بل أراد أن يأمر العباد بما يحب تمامه فقد رجعوا إلى أنها إرادة حتم مثل إرادة خلق السموات ولم تتم إرادته في خلقه كما تمت في خلق السموات .

فصل

زعمت القدرية أن اللّه تعالى أراد شيئا فلم يكن الذى أراد وأن إرادته لم تتم كما أراد فيها ، وأن إبليس لعنه الله أراد من العباد الطاعة فتمت إرادته فيما أراد منهم من معصية وقصرت إرادته فى بعض ، وأن اللّه تعالى أراد من العباد الطّاعة فتمت إرادته فى بعض وقصرت فى بعض ، فأقاموا الله فى إرادته مقام إبليس ، ولم يفرقوا بين اللّه جل وعز وبين إبليس اللّعين فى إرادة فيما أمر به أو نهى ، ولسنا نقول فى المشيئة كما قالت القدرية، وذلك أنهم قالوا إن المشيئة من اللّه تعالى فى الطاعة إنما هى مشيئة أرادها من الخلق تكون على جهة البلوى وأنهم هم يختارون ما يريدون ومفوض ذلك إليهم ، قلنا لهم أليس اللّه تعالى أراد وشاء أن يكون الإيمان بفعلهم وإرادته لهذا إرادة حتم هى أم ليست بحتم فإن قالوا ليست بحتم قل فما هى، وقد ميزتم الإرادة التى هى حتم عن الإرادة التى هى البلوى ، فقل لهم أليس إرادة اللّه فى هذا لهذا من اللّه حتم أنه إنما أراد أن يكون هذا كذا فقد رجعتم إلى أن الإرادة من اللّه حتم فى ذلك وإلا فأنبئونا بالمخرج لكم من ذلك غير أنا نقول لأن للّه تعالى فى خلقه إرادتين ومشيئتين، ومعنى الإرادة والمشيئة واحد غير أنها اسمان يتضمنهما معنى واحد أحدهما مشيئة الأمر ، الذى أرسل اللّه به الرسّل وهدى به السّبل والمشيئة الأخرى مشيئة فى خلق الخلق وقسم الأرزاق، وما أراد فى إنفاذ ما قد سبق عنده فى علمه من الأمور وما به الخلق عاملون ، وإليه صائرون ،.ولو كانت المشيئة من اللّه تعالى واحدة كما قالت القدريه لم يختلف على اللّه تعالى فيما أراد من الخلق كما لم تختلف إرادته فى خلق السموات والأرض وغير ذلك ، ولكان العباد فيما أمرهم به مطيعين كما أطاعته السّموات والأرض إذ أجابتاه ونحن نفسر

بيان ما فيه الهدى ، والتوفيق باللهّ ، وذلك لو أنه كانت إرادته فيما أمر به من الطاعة مثل إرادته فيما أراد من خلق الخلق لكان الذى قال لهم كونوا قوامين بالقسط لا يكونون إلا كما أراد منهم كما زعموا أنه لم يرد فيهم غير الطاعة ولكان الّذى قال لهم كونوا مع الصادقين ، لا يكونون أبدا إلا مع الصادقين، لأن أهل القدر زعموا أن اللّه لم يرد فى العباد إلا إرادة واحدة وهى إرادة الإيمان، ولو كان ذلك كذلك لكان كل من قال له كونوا كذا وكذا كانوا يكونون كما قال لهم، وكما قال لليهود كونوا قردة خاسئين، فكان كما أراد فيهم فلم تتم إرادته فى بعض وبعض لا، وهم يزعمون أن اللّه تعالى أراد من العباد الإيمان لم يرد فيهم ولا منهم غيره، ولكن ليعلم أهل اللب أنّ اللّه تعالى لم يعص بقسر ولا باستكراه ولا تعلية ولكن إرادته نفذت فى كل ما أراد ، وكذلك وصف نفسه ، فقال جلّ وعلا «واللّه على كل شىء قدير»

* **مسألة** : يقال لمن قال إن اللّه تعالى أراد خلاف ما علم هل علم اللّه ما العباد عاملون وإلى ما هم صائرون ، فإن قال لا كفر وخرج من قول أهل الصّلاة إنّ اللّه تعالى لم يزل عالما بما يكون قبل كونه، وإن قال نعم قيل له فأراد إنفاذ ما علم أم إبطاله فإن قال لم يرد أن يكون ما علم كما علم كفر. وإن قال أنه أراد كون ما علم انقطعت حجته التى يحتج بها فى الإرادة ، لأنّ اللّه تعالى قد علم أن المعصية من العاصى معصية وأرادها معصية مسخوطة وقضاها قبيحة خلاف الطاعة والإيمان . وباللّه التّوفيق .

* **مسألة** فى المشيئة: قال اللّه تعالى «ولو شئنا لآتينا كلّ نفسٍ هداها »الآية، ففى ذلك دليل على أنه لم يفوض الأمر إلى عباده ليستبد كل امرىء منهم بمراده

كما زعم الملحدون فى آياته المنكرون لأحكام كتابه إذا قالوا فقد شاء اللّه تعالى من الخلق أن يؤمنوا وكره منهم أن يكفروا فأحب الكافرون لأنفسهم أن يكفروا وكانت محبتهم غالبة لمحبته ومشيئتهم ظاهرة على مشيئته فهم إن شاءوا ألا يكفروا نفذت مشيئتهم واللّه تعالى عندهم قد شاء من الخلق أن يكفروا فلم تنفذ مشيئته وأراد أن يؤمنوا فلم يبلغ إرادته فكيف يكون ذلك وهو عز وجل يقول «فمن يرد اللّه أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً» الآية ، أفليس فى هذا القول دليل لأولى التمييز والأبصار على أنه لا يستطيع من سبق له الخذلان أن يدخل فى ملّة أهل الإيمان إلا بمشيئة اللّه تعالى لا سابق لأمره ولا رادّ لحكمه ولا مضاد له فى مشيئته خالق الخلق ومدبر الأمر تعالى عما يقول المبطلون، علوا كبيرا ، وعن النبى ﷺ أنه قال: سبق العلم وجف القلم وقضى القضاء وتم القدر بتحقيق الكتاب ، وتصديق الرّسل والسّعادة من اللّه لمن آمن واتقى ، والشقاء لمن كذّب وكفر ، بولايته للمؤمنين وبيراءته من المشركين ، وبتوبته منه عليهم إن تابوا وآمنوا كما أمروه ، ثم قال النبّى ﷺ عن اللّه جَلّ وعلا: « يا بن آدم بمشيئتى كنت أنت تشاء لنفسك ما تريد وبنعمتى قويت على معصيتى وبقوتى أديت إلى فرائضى فأنا أولى بحسناتك منك وأنت أولى بسيئاتك منى، لم أدع تحذيرك ولم آخذك على عرتك ، ولم أكلفك فوق طاقتك ولم أحملك من الأمانة إلا ما قدرت به نفسك .
وعن ابن عباس أنه قال: الخلق لما علم اللّه منهم منقادون وعلى ما سطر فى المكنون من كتابه ماضون لا يعملون خلاف ما منهم علم ولا غيره يريدون فلا مشيئة للعباد خلاف ما شاء اللّه ، وكذلك قال تعالى فى كتابه « وما تشاءون إلا أن يشاء اللّه ربّ العالمين » وقد شاء العباد المعاصى فلا يبلغون مشيئتهم حيث لم يشأ

اللّه الذى شاءوا ، وقال تعالى ، ولو أننا نزّلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء اللّه ولكن أكثرهم يجهلون ، وقوله تعالى قبلاً أى قبيلا ، وفسر بعضهم أى عيانا أى يستقبلون، كذلك فهذا دليل على أنه لم يشأ أن يؤمنوا ، ولو شاء أن يؤمنوا لم يقل إلا أن يشاء اللّه وشاءوا هم فلم يكن ما شاءوا ، ومن صفات اللّه تعالى أنه يفعل ما يشاء وما يريد، وليس لأحد أن يفعل ما يشاء وما يريد غيره عزّ وجل، وما تشاءون إلا أن يشاء اللّه ربّ العالمين ، ففى هذا تثبيت لمشيئته وإرادته تعالى ، وإبطال لقول من قال إن العباد يفعلون ما يشاءون ويريدون ، والقدرة والإرادة والمشيئة للّه تعالى ، ولا لغيره ولم يعمل أحد من العباد عملاً من خير أو شرٍ أو طاعة أو معصية إلاّ وقد شاءها اللّه تعالى لا مشيئة محبة لكن مشيئة إرادة .

* **مسألة** : فإن قال قائل : الله تعالى شاء من المشركين الشرك ؟ قيل له نعم. فإن قال ما الدليل قيل له قوله عز وجل ،ولو شاء اللّه ما أشركوا ، ولو شاء الله ما فعلوه. ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها، فهذا كله دليل على أنه شاء ما فعلوه وإذا شاء ذلك فقد أراد والإرادة والمشيئة هما صفات ذات لا صفتا فعل كالعلم والقدرة. والدليل على أن اللّه تعالى لم يشأ الإيمان من الخلق كلهم قوله عز وجل ، ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ، فهذا دليل على أنه لم يشأ أن يؤمنوا جميعا ، لأنه قد أخبر تعالى أنه لو شاء لآمنوا جميعاً فلما لم يؤمنوا جميعاً علمنا أنه لم يشأ أن يؤمنوا فإن قالوا لو شاء لآمنوا بالجبر قيل له إن الإيمان قد يكون بجبر وغير جبر فليس لك أن تزعم أن معنى هذا خاص إلا بآية تدل على خصوص هذه الآية، فأما اللّه تعالى لم يجبر أحدا وإنما آمن من آمن مختارا غير مجبور وقد قال اللّه عز وجل ،إن هذه تذكرة* فمن شاء ذكره* وما يشاءون إلا أن يشاء اللّه ، ففى هذا تثبيت المشيئة وأنه

لا يكون إلا ما علم وشاء وأراد، وإبطال قول من زعم أنهم يفعلون خلاف ما علم الله تعالى منه ما أراد .

* **مسألة** : وما يدل على أن لا شيء مخلوق إلا والله تعالى مريد له ، ولا تقولن لشيء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ، فخبر أنه لا يكون شيء فى الأرض يشاؤه أحد إلا أن يشاء الله لقوله تعالى ولا تقولن يامحمد لشيء إنى فاعل إلا أن يشاء الله. وقوله تعالى وما تشاءون إلا أن يشاء اللهّ ، فخبر أنه لا أحد إن شاء شيئاً فيكون إلا أن يشاء الله كونه ، وهذه آيات محكمات، وأجمع أهل الفقه بأسرهم لو أن رجلاً قال لرجل عليه له دين لأعطينك حقك غداً إن شاء اللهّ ثم أصبح ولم يعطه أنه غير حانث بإجماع الأمة وفقهاء الأمصار والتابعين لاخلاف بينهم فى ذلك بأن الله تعالى لو شاء أن يعطيه لأعطاه، فعلم بذلك وبكتاب الله تعالى أنه لايكون مالم يشأ لأن الله تعالى لو شاء أن يعطيه حقه فلم يعطه لكان العبد حانثاً فى يمينه فلما أجمع فقهاء الأمصار أنه لو جاء الوقت فى غدٍ ولم يعطه كان حانثا كان ذلك أدل الدليل على أن الله تعالى لو شاء لكان معطياً له فلا يكون فى الأرض إلا ما شاء الله ولو لم يكن إلا هذا الدليل لوجب كون الإرادة وإثبات القضاء والقدر لله تعالى تبارك وتعالى .

* **مسألة** : فإن سأل سائل عن هذه الفواحش مجملة أو متفرقة هل أرادها الله عز وجل . فالجواب فيها أنه أراد أن تكون قبيحة فاسدة خلاف الطاعة والإيمان. فإن قال: أفتقولون أن الله تعالى أراد أن يكفر ويشتم قيل له لا تطلق ذلك لئلا يتوهم علينا القول ولكن يقال إن الله تعالى أراد شتم الشاتمين له خلاف مدح المادحين معصية لاطاعة .

* **مسألة فى خلق الأفعال:** إن سأل سائل من أهل القدر عن أفعال العباد فقال أفتزعمون أنها مخلوقه لله تعالى قيل له نعم فإن قال فما حجتكم فى أنها مخلوقة وقد أمر الله تعالى ببعضها ونهى عن بعض، وأوجب الثواب والعقاب عليها؟ قيل له الحجة من الكتاب والإجماع وما لايمتنع منه العقول أن الله تعالى خالق وما سواه مخلوق من خير وشر ونفع وضر، قال اللّه عز وجل « خالق كل شىء » ووجدنا الأفعال شيئاً موجوداً فعلمنا أنها مخلوقة لأن مخرج الآية عموم ، ولم نجد فى كتاب الله تعالى ما يدل أنه خاص فإن قال فقد قال الله تعالى « فتحنا عليهم أبواب كل شىء » وتدمر كل شىء وأوتيت من كل شىء مخرج الآية عموم وهى مخصوصة، قيل له أجمعت الأمة أن هذه الآيات خصوص وقوله تعالى « خالق كل شىء » عموم ولعمرى إن العرب قد تضع كل فى موضع بعض إذا كانت فى الموضع الدال على تخصيصها ، وقد قال لبيد :

ألا كل شىء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

ولم يرد أن الخلق باطل ولا كل شىء باطل، وإنما أراد بعض الأشياء للعلم بأن بعضها ليس بباطل. ومما يؤكد أن قوله تعالى كل شىء عام فى كل شىء من أفعال العباد وغيره وقوله تعالى « وجعل الظلمات والنور » فالإيمان نور والكفر ظلمة لقوله تعالى «يخرجكم من الظلمات إلى النور» قال أهل التأويل من الكفر إلى الإيمان وقال تعالى : « وجعل بينكم مودةً ورحمة » وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة. والمودة والرأفة والرحمة فعل العباد يحمدون عليه ويذمون على تركه، وقد أضاف جعل ذلك إليه والجعل من الخالق خلق كله ، ولا يكون الجعل من المخلوق خلقاً، والجعل من العباد قول ووصف قال عز وجل « وجعلوا الملائكة الذين هُم عباد

الرحمن إناثاً، وذلك قول منهم ، والإجماع من المسلمين فى الجملة أن الله جل جلاله خالق وما سواه مخلوق، ولا يستثنون شيئا دون شيء. وعن النبى ﷺ أنه قال لو رأيتم الرفق لرأيتم خلقاً لم تروا من خلق الله أحسن منه ، ولو رأيتم خلق الخرق فعل الأخرق ندم عليه. وسئل على بن أبى طالب عن أعمال العباد يستحقون بها النار أم هى شيء من الله أم شيء من العباد . فقال: هى من الله خلق ومن العباد عمل .

* **مسألة :** فإن قال فخلق الشرك فى قلوب المشركين قيل له إن أردت خلق الشرك فى قلوبهم بأن اضطرهم إليه وحملهم عليه كما خلق أسماعهم وأبصارهم فى رءوسهم فلا. ليس كذلك نقول. وإن أردت أنه خلق الشرك الذى فى قلوب المشركين متناقضاً فاسداً خلافا للتوحيد فى قلوب الموحدين فكذلك نقول. فإن قال : فهل يشتم الله نفسه إذ خلق الشتم أم هل كذب إذ خلق الكذب قيل له تعالى الله عن ذلك وكيف يكون شاتما لنفسه وإنما خلق شتم الشاتمين له معصية لا طاعة خلاف مدح المادحين له طاعة .

* **مسألة :** فإن قال أليس ما خلق الله تعالى فقد فعله وصنعه ؟ قيل له نعم، فقد يقال هذا فى جملة الأشياء ولا يقال ذلك فى بعض الأشياء مطلقاً. فإن قال أليس يقولون أن الله خلق الكفر؟ قيل له نعم فإن قال أفتقولون أن الله تعالى فعله وصنعه أم لا قيل له لا. ألا ترى أنا نقول أن جهنم قدره ولا نقول أن الله صنع الأقدار، ويقال خلقها لأن خلقها اسم تعظيم فى كل شيء وصنع ودبر الأقدار والقبائح تهجير فنفينا عنه جل جلاله كل إضافة تهجير ، والخلق صفة تعظيم مضاف إلى الله تعالى بالتعظيم ألا ترى أنا نقول إن الله تعالى يجد كل شيء ولا يجوز أن يقال يجد الحر والبرد والأذى والمكروه لأن جملة القول أن الله تعالى يجد الأشياء يوجب العلم

بالأشياء والإحاطة بها ، فإن قال أفتقولون أن العبد فعل الكفر قيل له نعم ومعنى ذلك أنه كفر. فإن قال أفتقولون فعل خلق الله قيل لا لأن ذلك يوهم أنه خلقه. وقد يقال أفسد المطر طعام فلان والمطر تدبير اللّه ولا يقال تدبير اللّه يفسد، ولا يقال إن الله تعالى قد أظهر فى الأرض الفساد. ويقال ما أقبح القرد وما أقبح جهنم ولا يقال ما أقبح تدبير الله . ولو أن قائلا قال : ما أحسن جهنم كان فى ذلك مخطئا وهى من خلق اللّه ، ولو قال ما أحسن الخلق كان مصيبا ، وجهنم خلق فجاز تحسين الحسن لذكر الخلق ولم يجز لذكر جهنم .

* **مسألة** : فإن قال هل يخلو الفعل من ثلاثة إما أن يكون للعبد دون اللّه أو لله دون العبد أو للعبد ولله تعالى على الشرك؟ قيل له نعم الفعل قد خلا من هذه الثلاثة وجوه ليس الفعل للعبد دون أن يكون خلقا لله ولم يكن خلقا لله دون أن يكون اكتسابا من العبد ولم يشتركا فيه جميعاً لأنهما لم يخلقاه جميعاً ولم يكتسباه ، وإنما كانت تكون الشركة لو خلقا جميعا وإنما قلنا اكتسبه العبد وخلقه الله بجعله لاخلاف غيره من الأجسام والأفعال .

* **مسألة** : فإن قال متى خلق الله تعالى الفعل فى حال ما اكتسبه العبد أو قبل أن يكتسبه أو بعد ما اكتسبه؟ قيل له : العين التى هى كسب هى التى خلقها الله تعالى كسبا على ما هى عليه فقولك قبل أو بعد أو مع إشارة منك إلى معنى ليس هو الكسب، ونحن نجعل الكسب الواحد الذى لا يتجزأ ولا ينقسم بالعدد اسماً بل نقول العين التى هى كسب للعبد هو المخلوق وهو الذى اخترعه الله تعالى فأنشأ

على ما هو عليه من حسن ما أحسنه وأقبح ما أقبحه، فإن قال أفيجوز أن يخلقه ولا يكسبه العبد أو يكسبه العبد ولا يخلقه الله ؟ قيل له لايجوز أن يكسبه العبد ولا يخلقه الله تعالى لأن فى ذلك إيجابا لفعل كان بعد أن لم يكن ولم ينشئه الله تعالى ومحال أن يكون محدث وقع وليس الله تعالى محدثه ، وكان يستحيل أن يكون مملوك ومربوب فى العالم لايملكه الله تعالى ولا يكون ربه. سؤال: يقال لهم الله تعالى خالق كل شيء فإن قالوا نعم قيل لهم فتعنون كل الأشياء أو بعضها فإن قالوا كلها أقروا بخلق الأفاعيل وإن قالوا يعنى بعض الأشياء قيل لهم وجدتم خلقاً من الأمة صغيراً أو كبيراً استثنى شيئا دون شيء فى قول الله عز وجل « خالق كل شيء » ويقال لهم تقولون أن الله على كل شيء قدير فإن قالوا نعم قيل لهم فيقدر على بعض الأشياء أو على كلها فإن قالوا على كلها قيل لهم فهو قادر على خلق الأفعال فإن قالوا نعم تركوا قولهم، ويقال لهم أخبرونا عن الإيمان من خلقه لامن شيء فإن قالوا الله أقروا بخلق الأفعال وإن قالوا المؤمن هو أحدث الإيمان لا من شيء قيل لهم وكيف يمكن الإنسان أن يحدث الإيمان لا من شيء وهو لايدرى كيف كان الأمر شيء ولا يتصور ذلك فى وهمه مع أن إحداث الأشياء لا من شيء صفة الخالق تعالى فقد وصفتم المخلوق بصفة الخالق سبحانه وتعالى. ويقال لهم أرأيتم الحركة التى تكون فى الشجر لم زعمتم أنها مخلوقه ولم تزعموا ذلك فى حركة الإنسان وكل عرضى؟ فإن قالوا لو كانت أفعالنا مخلوقة لما عذبنا الله عليها قيل لهم فيلزمكم أن تقولوا إن الإيمان مخلوق لأنه لايعذب عليه والكفر غير مخلوق لأنه يعذب عليه ، وكلاهما فعلكم فتناقض فعلكم. ويقال لهم هل يكون للعبد أن يتكلم بكلمة ليس لله تعالى فى تلك الكلمة نعمة؟ فمن قولهم لا يكون إلا بنعمة من الله

عز وجل فيقال أفنعمة الله إلى عبده أزلية أم محدثة فلابد من محدثة فيقال لهم هل يجوز أن تكون نعمة الله ليس هى من خلق الله فلابد من نعم إن شاء الله .

فصـــل

جاء الأثر عن ربنا تبارك وتعالى قال ، أنا الله الذى لا إله ألا أنا خلقت الخير وقدرته فطوبى لمن خلقته للخير وقدرته على يديه، أنا الله الذى لا إله إلا أنا خلقت الشر وقدرته فويل لمن خلقته للشر وقدرته على يديه، لأنى لا أسأل عما أفعل وهم يسألون. فسل أهل الشرك الآن عن حركات العباد التى زعموا أنها فعلهم ليس لله تعالى فيها صنع أكلها طاعة أم كلها معصية أم بعضها طاعة وبعضها معصية ، وما من الحركات طاعة وما هو منها معصية؟ فقالوا الشرك بالله والقتل والزنا وأشباه ذلك من المعصية. والطاعة الإيمان بالله والصلاة والصيام وأشباه ذلك. فقل لهم أخبرونا عن الكفر أكان قبل الحركات فإن قالوا بل الحركات هى الكفر فقل متى سميت الحركات التى هى كفر؟ بعد ما كانت حركات أم من قبل أم فى حال ما كانت الحركات؟ فإن قالوا كانت الحركات قبل فقل أليس كانت الحركات التى زعمتم أنها كفر لأنكم إنما فعلتم فعلا لم تكونوا نهيتم عن المعاصى وفعلتم من الأمر فعلاً لم تكونوا أمرتم به لأنكم زعمتم أن الحركات التى هى كفر إنما كانت من العباد صنعا ليس لله تعالى فيها صنع ، فأين موضع النهى الذى نهاكم الله تعالى عنه قبل فعلكم أم بعده فإن قالوا كان نهى الله قبل فقل عما نهاكم؟ عن الكفر نهاكم أم ما ليس بكفر حتى كان منكم الكفر فإن قالوا نهانا عما لم يكن كفراً حتى كان كفرا فقد

زعموا أنهم فى حال ما عملوا لم يكونوا منتهين وإن قالوا بل كان الأمر من الله والنهى قبل أفعال العباد فقل لهم أخبرونا عن الذى نهى عنه أشر هو أم هو خير أم لا خير ولا شر وعن الأمر أخير هو أم لا خير ولا شر فإن قالوا بل الأمر خير أمرنا به والنهى شر نهانا عنه ، فقل فمن فعل هذا الخير والشر ، وكلاهما قبل أفعال العباد فهنالك تنقطع حجتهم فى هذه المسألة إن شاء الله .

سؤال : فقل لهم أخبرونا عن الحركات التى ذكرتم أن ليس لله تعالى فيها صنع ما هى فإن قالوا منها زنا فقل لهم وكيف الزنا فإن قالوا هى الحركات التى تكون بين الذكر والأنثى فقل فهل تكون حركة ليس من المعاصى بلا سبب من الله مخلوق فإن قالوا نعم فقل فأرونا ذلك ولا تجدوه أيضاً إلا بصنع من الله تكون الحركة به ولن تكون الحركة حتى تسمى الحركة إلا والله تعالى ثم صنع فإن قالوا لا تجوز حركة إلا بصنع من الله فقل أفليس من المحال أن يدعوا فعل ما لايكون فعله إلا بفعله ، فإن قالوا فعل الله غير فعل العباد فقل ففعل الله الأجسام وفعل العباد الحركات التى ليست بأجسام، وقل لهم فهل تكون حركات من العباد يفعلونها جارحة من صنع الله فإن قالوا نعم قل فأرونا ذلك أوجدوه ولن يستطيعوا ذلك . وإن قالوا لا فقد رجعوا إلى قولنا وهو قول المسلمين ولا قوة إلا بالله .

فصــل

عن الحسن فى قوله عز وجل ، وجعل الظلمات والنور ، قال خلق الكفر والإيمان وعن مجاهد فى قوله تعالى ، ومن كل شىء خلقنا زوجين ، قال الكفر

والإيمان ، والخير والشر والهدى والضلال. وقال حذيفة إن اللهّ خلق كل صانع وصنعته والدليل من السنة على خلق الفعل قول النبى ﷺ لمعاذ: ما خلق الله خلقا أحب إليه من العتاق ولا أبغض إليه من الطلاق. وعنه ﷺ أنه صلى على جنازة رجل من الأنصار فقال اللّهم نقه من الذنوب والخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس. والعباد هم الذين يعتقون ويطلقون ويغسلون وينقون فأضاف ذلك إلى الله تعالى لأنه الخالق لأفعال الخلق. وعنه ﷺ أن رجلا سأله فقال إنى كنت صائما لعله فأكلت وشربت فقال ﷺ إن اللهّ أطعمك وسقاك والطاعم الشارب هو العبد والمطعم والشرب هو فعله فأضافه إلى الله تعالى إذ كان هو خالقه جل وعلا .

* **مسألة** : إن سأل سائل فقال هل يخلو العبد من نعمة وبلية قيل لا يخلو من ذلك فالنعمة يجب عليه شكرها وكذلك قال تعالى « وسنجزى الشاكرين » والبلايا منها ما يجب الصبر عليه كالمصائب والأمراض وفى الأموال والأولاد وما أشبه ذلك ومنها ما لايجب الصبرعليه كالكفر وسائر المعاصى. وليس بين الإيمان والكفر منزلة ثالثة ، وليس بين الطاعه والمعصية منزلة ثالثة ولا بين الجنة والنار منزلة ثالثة وكل فعل أو قول فلا يخلو من طاعة أو معصية. وعن ابن عباس قال بينما حمّار يسرق حمارا إذ تكلم بكلمة فقال صاحب اليمين والله ما هذه حسنة فأكتبها حسنة فقال صاحب الشمال والله ما هذه سيئة فأكتبها سيئة فنودى من السماء ما تركت صاحب اليمين فاكتبه. وفى خبر عنه بينما رجل يسوق جملاً إذ زاغ عن الطريق فقال له حل فقال صاحب اليمين الحيرة. وحل كلمة زجر للإبل وحو كلمة زجر للحمار. وقيل فى قوله تعالى « ما يلفظ من قول » الآية من جميع ما يتكلم به من الأشياء كلها قال الحسن حتى أنه ليكتب قول الرجل ياجارية ضعى لى وضوءا يا جارية

ناولينى نعلى ناولينى ردائى ويقال حتى صفير الرجل لدابته تشرب وحتى هذا أسود وهذا أبيض.

وبلغنا عن الملكين عليهما السلام أنهما أفرح بمحاسن العبد إذا تكلم وعمل من العبد بمحاسنه وأنهما أشد حزنا بمساويه منه بمساوى نفسه، يقولان اللهم وفقه وسدده حتى يملى علينا خيرا ويقال ما خطا عبد خطوة قط إلا كتب له حسنة أو سيئة .

* **مسألة** فى إعادة الخلق: الدليل على إعادة الخلق قوله عز وجل « قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » وقوله تعالى : « هو الذى يحييكم ثم يميتكم ثم يحييكم » وقوله عز وجل « فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة » وقوله تعالى : « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده » ومثله فى القرآن كثير .

* **مسألة** : ومن كان مؤمنا بالجملة وهو شاك فى البعث لم يجز له ذلك وعليه أن يعلم ذلك فإن كان أقر بالجملة ولم يسمع ذلك من أحد ولا قامت عليه الحجة من كتاب اللّه تعالى ولا من خاطر قلبه ففى ذلك اختلاف، وإذا تليت عليه الآية أو سمعها وهى قوله عز وجل « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون » فقد قامت عليه الحجة وعليه أن يعلم ذلك فإن شك كفر وإن خطر بقلبه ذلك فلم يعلمه كفر وعليه أن يؤمن به إذا سمع بذكره أو خطر بقلبه أو قرئ عليه القرآن ويتوب من شكه فيه والله أعلم .

* **مسألة** فى الاستطاعة : الاستطاعة فى اللغة هى القدرة على الشىء ، وقد سمى بها أشياء تئول إلى القدرة قال اللّه عز وجل « فمن لم يستطع فإطعام ستين

مسكينا ، يعنى الصوم من لم يقدر عليه أطعم وزال عنه فرض الصوم لزوال اسم الاستطاعة ، وهى الصحة. ووجود المال يوجب استطاعة الإطعام وقال عز وجل «ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات ، يعنى سعة فى المال وقال عز وجل « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، فالاستطاعة اسم لمعان والأصل فيها القدرة وقال الراعى :

ثبتت مرافقهن فوق مزلة   لايستطيع بها القراد مقيلا

وقال قيس بن ذريح :

فاصبحت الغداة ألوم نفسى   على شيء وليس بمستطاع

أى ليس بمقدور عليه. والقدرة فى الإنسان هى عرض فى الجسم ، وليست القدرة جسما فى الجسم والعرض لايقوم بنفسه ولا يثبت ، والقوة لا خلاف بأنها صفة وعرض لا تقوم بنفسها أيضا ولا تثبت .

حقيقة الكسب كل فعل وقع باستطاعة محدثة مع الفعل فأما من فعل بقدرة قديمة فهو غير مكتسب .

* **مسألة :** الدليل على أن الاستطاعة مع الفعل أن من لم يخلق الله تعالى له استطاعة لم يجب أن يكسب شيئا فلما استحال أن يكسب الفعل إذ لم يكن استطاعة صح أن الكسب إنما يوجد بوجودها وفى ذلك إثبات وجودها مع الفعل. فإن قال قائل أليس فى عدم الجارحة عدم الفعل هل له فى عدم الجارحة عدم الاكتساب لأنها إذا عدمت القدرة فبعدمها استحال الكسب لعدم القدرة لا لعدم الجارحة ولو عدمت ووجدت القدرة كان الاكتساب واقعاً ولو كان إنما استحال الاكتساب لعدم

الجارحة لكان إذا وجدت وجد الاكتساب فلما كانت توجد ويفارقها للعجز وبعدم القدرة فلا يكون كسب علم أن الاكتساب إنما يعدم لعدم الاستطاعة لا لعدم الجارحة. وقد قال تعالى «ما كانوا يستطيعون السمع » وقد أمروا أن يسمعوا الحق ويكلفوه فدل ذلك على جواز التكليف وإن لم يقل الحق ولم يسمعه على طريق القبول لم يكن له مستطيعا .

فصل

إن الله عز وجل خلق الإنسان خلقة لايستطيع أن يمتنع منها. خلقه غير ممتنع من حركة أو سكون ولا يخلو من أحدهما أبدا حتى يموت فالمتحرك لا يكون ساكنا والساكن لا يكون متحركا ، هذا ما لايكون. ولا يخلو العبد أن يكون متحركاً أو ساكنا بخير أو شر فإذا كان فى الخير فلا سبيل له إلى الشر لشغله بفعل الخير وإذا كان فى الشر فلا سبيل له إلى الخير لشغله بفعل الشر. ولسنا نقول لأنه لا سبيل له إلى الخير أو الشر على جهة الخير والشر وإنما نقول أنه لا يستطيع إلا فعل ما هو ما فيه لأنه لم يخلق خلقة يستطيع بها أن يكون فاعلاً تاركا فى حال ولا طائعا عاصياً ولا قائما قاعداً ولا قابضا باسطاً ولا آخذا تاركاً فى حال واحدة هذا ما لايصح ، وإنما خلق يستطيع أن يكون قائماً قاعداً معاً كذلك خلقه الله عز وجل فهو بفعله فى أحد الأمرين غير مستطيع للآخر لأنه مشغول بأحدهما عن الآخر. وزعم أهل القدر أن الله عز وجل خلقهم متحركين غير ساكنين. وقالوا أن كل أمورهم حركة لا سكون فيها ولو كان ذلك كذلك لم ينه عباده عن شيء من الحرام ، وعن ركوبه. ويأمر بأداء حدوده ولم يكن يقول للمؤمنين غضوا من أبصاركم واحفظوا فروجكم أفليس الغض ترك البصر وسكونا عنه وتشاغلا بغيره أو ليس النظر ترك الغض وسكونا عن

الغض ولو كان كل متحرك بشيء ليس بساكن عن غيره لكان العباد لا يوصفون بترك شيء أبداً إلا بأخذه وليس أحد يستطيع حركة وسكونا فى حال واحدة ولايستطيع أحد فعل ما لم يفعل ولا تقديم استطاعة لشيء لم يفعله ، وكيف يكون كذلك وهو لايستطيع أن يفعل شيئا يزعم أن فيه استطاعته لفعله قبل أن يفعله إلا فى حال ما يفعله ، وكذلك قولنا. وزعم أهل القدر أن العبد فيه استطاعة مالم يفعل غير أنه لا يكون فاعلا لما يريد فعله إلا فى حال فعله له فيقال لهم فما معنى ادعائكم تقديم الاستطاعة إذا كنتم لا تستطيعون فعل ما تفعلون إلا فى حال ما تفعلون؟ ثم يقال لهم أليس هكذا أراد الله تعالى فى تركيبه فيكم إن كنتم لا تستطيعون فعل ما تفعلون إلا فى حال فعلكم له فلا تستطيعون غير ذلك ، فإذا زعموا ذلك فقد زعموا أن الله تعالى حال بين العباد أن يفعلوا فعلاً إلا فى حال فعلهم له وفى ذلك إبطال تقديم الاستطاعة التى تدعيها القدرية وتركهم لقولهم .

سؤال: ويقال لهم أخبرونا عن الله لم يبصر بعينه ولم يسمع بأذنه ولم يتكلم منذ خلق ثم أبصر من بعد وسمع وتكلم متى كانت الاستطاعة للبصر والسمع والكلام أقبل أن يبصر ويسمع ويتكلم أكان يستطيع ذلك فى حال فعله أو من بعد فعله فإن قالوا قد كانت فيه استطاعة البصر والسمع والكلام فقل أو كان فى تلك الحال التى كان فيها لا يبصر ولا يسمع ولا يتكلم بصيراً سميعا متكلماً وهو لايبصر ولايسمع ولا يتكلم أليس قد تعلمون أنه من كان من الخلق سميعا قيل أنه لا يمتنع من أن يسمع وكذلك من كان بصيراً أفترون أنه قد سد أذنيه وغمض عينيه فإن قالوا إنما يبصر عند فتح عينيه فقد تركوا كلامهم الذى يحتجون به من تقديم الاستطاعة ، وإن قالوا كانت فيه استطاعة البصر والسمع والكلام قبل أن يبصر

ويسمع فقد زعموا أنه لم يكن بأعمى ولا أصم ولا أبكم وإنما سألناهم عن من لم يبصر ولم يسمع ولم يتكلم .

آخر : ويقال أخبرونا هل يجوز لعبد أن يكون لا مؤمناً ولا كافرا ، فإن قالوا بلى قد يجوز ذلك فقل لهم فإذا لم يكن مؤمناً فما يكون أكافراً أم غير ذلك وما غير ذلك؟ فإن قالوا إذا لم يكن مؤمناً فإنه لايكون كافرا فقد زعموا أن الناس قبل أن يدخلوا فى الإسلام لم يكونوا كفاراً وإن قالوا إذا لم يكن مؤمناً فإنه يكون كافراً فقد صدقوا فى ذلك فقل لهم عند ذلك : هل يستطيع العبد أن يكون كافراً ألا يكون مؤمناً وإذا لم يكن مؤمناً ألا يكون كافراً فإن قالوا ذلك فقد تركوا قولهم. ويقال لهم أخبرونا عن الأعمى الذى لم يكن يبصر ثم أبصر متى كانت استطاعة البصر فيه فى حال العمى أم فى حال ما لا بصر أم من بعد فإن قالوا قبل أن يبصر فقد زعموا أن استطاعة البصر كانت فيه وهو أعمى وإن قالوا مع البصر فقد تركوا قولهم وقالوا بقولنا أن الاستطاعة مع الفعل وإن قالوا من بعد الفعل فقد تركوا قولهم وقولنا ودخلوا فيما لم نقل نحن ولا هم ، وقالوا بقول من زعم أن الاستطاعة بعد الفعل .

آخر : ويقال لهم أخبرونا عن الاستطاعة ما هى فإن قالوا السلامة فى البدن فقل لهم أفلستم تزعمون أن الإنسان فيه استطاعة ما لم يفعل فإن قالوا نعم فقل إذا كانت السلامة التى هى استطاعة إذا كانت فى البدن هل غابت عن البدن إذا كان قائماً غير قاعد فما له إذا كانت السلامة معه حيث ذهب يستطيع بها أحيانا وحينا لايستطيع، والاستطاعة موجودة فى كل وقت لاتنفد ولا تعدم. وإن قالوا الاستطاعة غير السلامة فى البدن فقل أخبرونا ما هى فإن قالوا لا توصف ولا توجد فقل وكيف تعرف أن الإنسان مستطيع أو غير مستطيع إذا كانت الاستطاعة ليست السلامة فى

البدن ولا قوة الإنسان، والقوة والسلامة هما شيء واحد فى الحجة عليهم ليست بموصوفة ولا محدودة، فإن قالوا يعرف الإنسان أنه مستطيع إذا فعل فقبل الفعل أم بعد الفعل أم فى الفعل فإن قالوا بعد ما يفعل فقل هو الذى أردنا منكم تبيانه فبينوا لنا كيف تعرف. وإن قالوا بعد ما يفعل فقد زعموا أن الاستطاعة بعد الفعل تعرف وليس يوصف أحد باستطاعة إلا بعد ذلك خلافا لقولهم وقولنا وإن قالوا تعرف فى حال فعله فذلك قولنا وهو خلاف لقولهم أن العباد يستطيعون قبل أن يفعلوا .

سؤال منهم : يقولون أخبرونا عن قول اللّه عز وجل « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً » ما هذه الاستطاعة؟ يقال لهم إن هذه الاستطاعة ليست الاستطاعة التى تدعون أنها فيكم متقدمة ولو كانت تلك لكان كل من كانت تلك فيه فى زعمكم كان عليه الحج ، ولكن الاستطاعة المال ، وكذلك جاء عن النبى ﷺ أنه قال: الزاد والراحلة. فإن قال قائل منهم كيف جاز لكم أن تفسروا القرآن فى حجتكم برأيكم وتردون رأى غيركم فيه بالتفسير قيل له أليس إذا اختلفنا نحن وأنتم كان علينا أن نرجع إلى المجتمع عليه فعلينا أن نلزم محكم الكتاب والمجتمع عليه أليس قال اللّه فى كتابه « خالق كل شيء » فإن قلتم كذلك وقال « وأوتيت من كل شيء » فيقال أليس ما اختلفنا نحن وأنتم فيه كان كالذى اجتمعنا نحن وأنتم فيه لأن قوله تعالى «وأوتيت من كل شيء» نحن وأنتم فيه أنها لم تؤت من السماء شيئاً ولا من طعام الجنة ولا من أحدهما شيئاً ولا من أشياء كثيرة، وأما قوله عز وجل «خالق كل شيء» فلم نجتمع نحن وأنتم عليه لأنكم تقولون فيه بغير ما نقول نحن نقول خالق كل شيء والمعاصى فيما خلق وأنتم تستثنون المعاصى وتخبرونا أن العباد خلقوها. وقال تعالى فى الهدى والضلال «يضل من يشاء ويهدى من يشاء»

فما نسخ هذه؟ وقال «رب بما أغويتنى» وقال أهل الجنة الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا اللّه ، وقال أهل النار « ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين» فما نسخ هذا . وأمثال هذا فى القرآن كثير . فنسأل اللّه التوفيق ولا قوة إلا باللّه.

باب
فى الرزق وطلب المعيشة

قال اللهّ عز وجل ، هل من خالق غير اللّه يرزقكم من السماء والأرض ، فهو الخالق الرازق. وقول أصحابنا إن اللّه تعالى يرزق الحلال والحرام، فرزق الحلال ملك اليمين، وغذاء الأجساد وحياة البدن. ورزق الحرام ليس هو ملك للغاصب ولكن رزق حرام أكله وغذاؤه جسد حرام عليه وقول المعتزلة إن الله تعالى لا يرزق الحرام. ومن زعم أن اللّه تعالى لا يرزق الحرام ولا يؤتى المشرك الملك فليستغفروا الله فإنه الرازق لاغيره والرزق كله حلاله وحرامه منه ، والملك كله له، وقد أعطى نمرود الملك وهو أول ملك ملك الأرض كلها وهو الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه اللّه الملك فاللّه هو المالك كما قال عز وجل ، قل اللّهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، لا مالك ولا رازق غيره إلا هو عز وجل. وعن النبى ﷺ إن اللّه عز وجل قسم بينكم أرزاقكم كما قسم بينكم أخلاقكم، وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الدين إلا من أحب. ومن أعطاه الله الدين فقد أحبه . والذى نفسى بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه. قيل يارسول اللّه وما بوائقه قال غشمه وظلمه. ولا يكسب مالاً حراماً فينفق منه ولا يتصدق فيقبل منه ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار. وعنه ﷺ لو أن أحدكم هرب من رزقه كما يهرب من الموت لأدركه رزقه كما يدركه الموت. وعنه ﷺ يولد المولود أحمر لا قشر عليه ثم يرزقه الله من بعد .

ويروى عن الله جل جلاله: ابن آدم لايكثر همك فإن المقدور كائن والرزق يأتيك. ياابن آدم لو تهرب من رزقك لأدركك الرزق كما يدركك الموت . واعتبر بطيور السماء التى لايزرعن ولا يحصدن والله رازقهن .

وقيل لو أن العبد تبرم رزقه فقال إلهى لم ترزقنى لقال الله تبارك وتعالى أرزقكك شئت أو أبيت. وعن أبى عبد الرحمن قال : من ألبس نعمة فليكثر من الحمد ومن أصابه الهم فليكثر من الاستغفار ومن أبطأ عليه الرزق فليكثر من قول لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

قال يحيى بن معاذ: فى وجود العبد الرزق من غير طلب ، دليل على أن الرزق مأمور أن يطلب صاحبه. وعن النبىﷺ أنه قال: معاشر الناس إنه ليس بين الله وبين أحد من عباده قرابة يعطيه بها خيراً ولا يدفع عنه بها شراءً وأنه والله ما يدرك ما عندالله بسخط الله وما يدرك ما عنده إلا بطاعته فلا يحملن أحدكم استبطاء شىء من رزقه أن يطلبه بسخط الله ومعصيته فإنه ما يدرك ما عند الله إلا بطاعته .

وعنه ﷺ: الرزق محتوم فمن يعجل فى طلبه وجده حراماً ومن توقف أتاه حلالا . قال الشاعر :

ارغب إلى الله لاترغب إلى أحد	أما رضيت ضمان الواحد الصمد
اللـهّ ضامن أرزاق العباد لهم	حتى يفرق بين الروح والجسد
لا تحرصن على الأرزاق تطلبها	واصبر لدهرك لاتضرع إلى أحد
لو كان رزق الفتى فى قبضتى أسد	وافى إليه على رغم من الأسد

وقال آخر :

لاتنظرن إلى عقل ولا أدب إن الحدود قريبات الحماقات

واسترزق الله مما في خزائنه وكل ما هو آت مرة آت

وقال آخر :

قد كنت أحسب أن الرزق عن طلب حتى تبينت أن الرزق أطوار

رأيت مجتهدا أكدى على طلب وقاعدا نال ما يهوى ويختار

فالصبر أحسن من حرص ومن تعب وكل شيء له حد ومقدار

وقال :

وكم لله من لطف خفي يحير أمره فهم الذكي

وكم أصبحت مكتئباً حزينا فجاءتني المسرة بالعشي

إذا ضاقت بك الأسباب يوماً فثق بالواحد الصمد العلي

فصل

قال النقاش: الرزق جامع وخاصته ما يتفضل الله به مما يصلح للأوقات. عن النبيﷺ من طريق ابن مسعود أنه قال: إن روح القدس نفث فى روعى أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب. معناه نفخ فى نفسى وأوقع فى خلدى والروع بضم الراء الخلد والنفس تقول وقع ذلك فى روعى وفى خلدى ، ويقال نفث ينفث وتفل يتفل إلا أن التفل لايكون إلا مع شيء من الريق. وعن النبى

ﷺ: ياابن آدم لاتتشاغل بالرزق المضمون عن العمل المفروض وكن مشغولاً في يومك بما أنت مسئول عنه في غدك. وعنه ﷺ أنه قال: المعونة على قدر المئونة من وسع وسع عليه ومن قتر قتر عليه. وعنه ﷺ من طريق أنس بن مالك أنه قال للزبير: يازبير إن مفتاح الرزق بباب العرش فيقول الله تعالى أرزاقهم على قدر نفقاتهم فمن كثر كثر له ومن قلل قلل له. وقال قيل إن لله تعالى ملكين في كل يوم يناديان اللهم اجعل لكل منفق خلفا ولكل ممسك تلفا ، وفي الخبر. ابن آدم أنفق أنفق عليك . وعن أبي محمد رحمه الله أنه قال: إن الأرزاق في السماء الرابعة .

فصــل

ابن عباس في قوله عز وجل: فلنحيينه حياةً طيبةً: قال الرزق الطيب في الدنيا وقيل في قوله تعالى ، وكأين من دابة لاتحمل رزقها ، يعني لاترفع رزقها معها الله يرزقها حيث ما توجهت .

سفين ، قال: ليس شيء من الدواب تخبأ إلا الإنسان والنملة والفأرة والعقعق وابن آدم. مجاهد قال: لاتحمل رزقها قال هو محمد ﷺ لايدخر قوت يومه لغده. وعن النبي ﷺ التمسوا الزق من خبايا الأرض يعني الزرع وعن ابن مسعود أن الأرزاق والمصيبة والآثار مكتوبة في اللوح المحفوظ. عن النبي ﷺ من طريق أنس ابن مالك أنه قال إن من الذنوب ذنوبا لايكفرها صوم ولا صلاة ولا صدقة. قيل يارسول الله فما يكفرها قال السعي في طلب المعيشة. وفي الحديث ، الصدقة على العيال أفضل فابدأ بمن تعول ، .

الهيثم بن عدى يرفعه قال: قال رسول الله ﷺ اطلبوا الرزق إلى الرحماء من أمتى تعيشوا فى أكنافهم .ولاتطلبوا إلى القاسية قلوبهم فإن عليهم تنزل اللعنة. قال يحيى بن معاذ: من استفتح أبواب المعاش بغير مفاتيح الأقدار وكل إلى المخلوقين. وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال ليتعمد أحدكم أخذ حبل فليحتطب فيه حطباً وليحمله على ظهره فيأتى به السوق فيبيعه فيأكل منه ويتصدق به خير له من أن يأتى رجلا أعطاه الله من فضله فيسأله أعطاه أو منعه. وفى هذا القول منه ﷺ ما يدل على ضعف مذهب القائلين أن الدنيا بمنزلة الميتة لايحل منها إلا ما يحل للمضطر لاختلاط الحلال منها بالحرام فلا يطلب منها إلا ما يسد الفاقة. وفيه دليل آخر على قبح اختيار القائلين أن صدق التوكل لايكون إلا بترك الاكتساب إذ قد حض النبى ﷺ على طلب الاكتساب حضا مطلقا ولم يجعله خاصا فى وقت نعمته لمن اضطر إليه دون من لم يضطر فالواجب على العبد أن يتقى الله ربه ويسارع إلى ما ندب الرسول ﷺ إلى فعله من اكتساب الحلال الذى يعفه فى نفسه ويتصدق منه على غيره ولا يكون كلا على المؤمنين ، وكيف يكون الاكتساب مكروها والله تعالى يقول « ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما كسبتم » وقد قال الشاعر :

توكل على الرحمن فى طلب الغنى ولاتر أن الحزم فى ترك الطلب

ألم تر أن الله قال لمريم إليك فهزى الجذع تساقط الرطب

ولو شاء أحنى الجذع من غير هزه إليها ولكن كل شىء له سبب

وبلغنا أن إبراهيم عليه السلام قال: ياربِ قد استحييت من طول ما تردد فى الدنيا فى طلب المعيشة. فنودى أن ياإبراهيم كف عن هذا فإن طلب الرزق ليس من الدنيا. قال سفيان الثورى مكتوب فى التوارة إذا كان فى البيت بر فتعبد وإذا لم

يكن فاطلب. ياابن آدم حرك يدك يسبب لك رزقك. وعن سفيان: وعليك بالكسب الحلال فإن الذى يكون طعامه من الحرام إذا وضع يده وقال باسم اللّه قال الشيطان أنا معك من حيث كسبته لا أفارقك أنا شريكك فيه . وقال الله عز وجل ، وشاركهم فى الأموال والأولاد ، فالأموال هو الحرام والأولاد هو الزنا. وعن النبى ﷺ كل لحم نبت من السحت فالنار أولى به، قال الخليل: السحت كل حرام قبيح الذكر، وبلغنا أن سعد بن أبى وقاص قال بأبى وأمى يارسول اللّه علمنى أدعو الله بدعوة أكون مستجاب الدعوة قال : يا سعد أطب مطعمك تستجب لك دعوتك ، ياسعد والذى بعثنى بالحق نبيا إن العبد ليرمى إلى جوفه باللقمة الحرام فما تستجاب دعوته أربعين يوماً وليلة ، وقيل سئل النبّى ﷺ أى الكسب أفضل فقال عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور ، وقال أبو الدرداء: نظر أصحاب النبى ﷺ إلى أعرابى فقالوا : يا رسول اللّه لو كانت قوته فى سبيل اللّه ، فقال ﷺ إن كان يسعى على والديه أو على عياله فهو فى سبيل اللّه ، وإن كان يسعى على نفسه ليستعف عن الناس فهو فى سبيل اللّه وإن كان يسعى فى تكاثر وتفاخر فكل ذلك فى النار .

وقيل: العبادة عشرة أجزاء تسعة منها فى طلب الحلال وواحد فى الصّلاة والصّيام .

فصل

ويؤمر الإنسان بالاقتصاد فى معيشته فبدأ بما أدبّ اللّه نبّيه ﷺ يقول عزّ وجل :

« ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كلاً البسط » الآية ، وهذا مثل أى لا تقبض يدك عن النفقة قبضا شديداً كالمغلول الذى لا يمكنه أن يبسطها ، قال الحسن والكلبىّ: يقول لا تمنع حق اللّه فتكون كالذى غلت يده إلى عنقه ، ولا تبسطها كل البسط ، أى تنفق فى غير حق اللّه. ويقال تنفق كل ما عندك فيجيء آخرون يسألونك فلا يجدون عندك شيئاً تعطيهم فتقعد ملوماً أى يلومك من لا تعطيه محسورا ، أى ذهب مالك فبقيت كمن حسر وذهب قوته . فليس يقدر على الحركة والعرب تقول حسرت الدابة إذا سرت بها حتى ينقطع سيرها ، ومنه قوله تعالى « خاسئاً وهو حسير » أى منقطع عن بلوغ النظر ، ودابة حسير ومحسور والجمع حسرى ، قال الأعشى :

بالخيل شعثا لا تزال جيادها حسرى يغادر بالطريق سخالها

روى عن النّبى ﷺ أنه قال: للمؤمن من على ربه خصلة إذا وسع عليه وسع وإذا ضيق عليه ضيق . وفى خبر آخر إن مما أدبنى ربى إذا وسع وسعت وإذا ضيق ضيقت ، وعنه ﷺ أنه قال: ما عال مقتصد ولا يعيل، أى ما افتقر ولا يفتقر ، ويقال عال يعيل الرجل عيلة إذا احتاج. وقيل إذا كان عند أحدكم شيء فليقتصد فيه ولا يقولن إن الرزق مقسوم ، وقال بعضهم لا أمتحن ربى ولكن أطلب السّلامة فإن امتحنني صبرت ، ويؤمر الإنسان بالتوسط فى الفاقة فلا يكون مبذراً ولا مقترا بل ينفق إذا وجد ويقتصد إذا عدم، فقد روى النّبى ﷺ أنه قال: أنفق يابلال ولا تخش من ذى العرش إقلالا ، وعنه عليه السّلام أنه قال: من أيقن بالخلف سخت نفسه بالنفقة ، وعنه عليه السّلام: الأيدى ثلاث شائلة ومنفقة وممسكة وخير الأيدى المنفقة، وعن أبى جعفر قال: إن الشمس تطلع ومعها أربعة أملاك ملك ينادى يا

صاحب الخير أتم وأبشر ، وملك ينادى يا صاحب الشر انزع وأقلع ، وملك ينادى أعط منفقا خلفا وآت ممسكا تلفا ، وملك ينضحها بالماء، لولا ذلك لاشتعلت الأرض، وعن النبّى ﷺ الرزق أسرع إلى من يطعم الطعام من المسكين إلى الشام ، وعن أبى جعفر: قال تنزل المعونة من السماء إلى العبد بقدر المئونة ومن أيقن بالخلف سخت نفسه بالنفقة، وعن النبّى ﷺ من اقتصد فى معيشته رزقه اللّه عز وجل ، ومن بذر حرمه اللّه عزّ وجل .

* **مسألة** : ولا يسع أحدا أن يظن أنه إن لم يعمل أن رزقه ليس يأتيه. وللإنسان رزق مقسوم لا زيادة فيه ولا نقصان ، وليس العمل مما يزيد فيه ولا القعود مما ينقص منه ولكن يؤمر بالطلب ، لأن اللّه تعالى قد علم أنه يوسع له رزقه بسبب ذلك الطلب أو يفوت عليه رزقه بترك الطلب ، وأما رزقه الذى قد قسمه اللّه تعالى فلا يفوته منه قليل ولا كثير ، ومن ترك العمل متوكلاً على اللّه عز وجلّ، وقال قد فرض اللّه تعالى له رزقا فلا يرزقه أحد سواه ولا يفوته شىء منه فلا يكون مخطئا بذلك . والحجة على طلب الرزق إجماع الأمة على ذم من يخلف منه وإيجابهم عليه التحرك فى طلب القوت ، قال الشاعر :

وما طلب المعيشة بالتمنى   ولكن ألق دلوك فى الدلاء

تجىء بملئها طوراً وطوراً   تجىء بحمأة وقليل ماء

وأيضا فعليه أن يحيى نفسه ولا يدعها تموت جوعا فإن فعل ذلك فهو هالك. واللّه أعلم .

ومن أظهر حاجته إلى الناس فلم يستطع أن يكتمها فلا يكون ساخطا لرزقه ، وباللّه التوفيق .

الكتاب

الكتاب على الإطلاق اسم لكتاب الله عزّ وجل ولا يسمى الكتاب على الإطلاق غيره، وإنما الكتب تسمى بالإضافات إلى مؤلفيها وبالإضافات للأنواع التى فيها ، والكتب التى ذكرها الله تعالى وسماها بأعيانها أربعة ، القرآن كتاب محمّد ﷺ وله أسام غير هذا نذكرها إن شاء الله ، والتوراة كتاب موسى عليه السّلام سماه توراة وسماه أيضا فى القرآن كتابا وقرآنا ونورا وضياء ، والإنجيل كتاب عيسى عليه السّلام ، والزّبور كتاب داوُد عليه السّلام ، فهذه الكتب الأربعة كلها أسماء من الله عز وجل مشهورة غير الكتاب الذى هو اسم لكل كتاب . ولسائر الأنبياء كتب وليس لها أسماء مخصوصة فى القرآن إلا الصّحف التى ذكرها عزّ وجل فقال «صحف إبراهيم وموسى » وسمى تبارك وتعالى الكتب المتقدمة زبراً غير أنه لم يخص بهذا الاسم إلا كتاب داوود عليه السّلام ، فصار عاما لسائر الكتب ، وقال تعالى « وآتينا داوود زبورا » وقال عز وجل « وإنه لفى زبر الأولين » وكل كتاب ذو حكمة فهو زبور ، وقيل الزبر كتاب الأنبياء بالنبوة على ما يكون ، والكتاب المبين الحلال والحرام ، وزبر جمع زبور وهى الكتب ، فأما الزبر مفتوحة الباء مضمومة الراء فالقطع واحدها زبرة ، ومنه « آتونى زُبر الحديد » أى قطع ، ويقال زبرت الركية أى طويتها ، ومن هذا قالوا فلان لا زبر له أى ليس له عقل يقيمه كما يقيم الزبر الركية أن تنهار ، فأما القرآن والتوراة والإنجيل فهى الكتب التى فيها الأمر والنهى والحلال والحرام ، وليس الزبور كذلك إنما الزبور فيه تسبيح وتهليل ودعاء وحكمة مثل سائر كتب الأنبياء التى ليست فيها شرائع ولا أمر ولا نهى ، وفضل الله تعالى الزّبور من سائر الكتب فذكره فى كتابه مع القرآن والتوراة والإنجيل واختص له أسماء ولم

يختص لسائرها اسماً فقد قيل أنّ النبى ﷺ ذكر أربعة وعشرين كتابا مثل كتاب شعيا وكتاب أرميا وكتاب سليمان وغير ذلك ، ولكتب سليمان أسام مثل فوهلت وسير يسيرين وغير ذلك ، ولكن ليس لها فى القرآن ذكر ، واليهود تسمى كتب بنى إسرائيل خمسى معناه خمسة أخماس وخمسة أخماس هس خمسة وعشرون ، وقد احتجت عليهم النّصارى فقالوا قد أقررتم لنا أن كتب بنى إسرائيل خمسة أخماس وخمسة أخماس هى خمسة وعشرون وفي أيديهم أربعة وعشرون كتابا والإنجيل الخامس والعشرون .

فصل

ويقال للقدر كتاب . قال الجعدى :

يا بنت عمى كتاب الله أحرجنى عنكم وهل أمنعن اللّه ما فعلا

يعنى قدر اللّه ، قيل وسئل الأصمعى ما الكتاب قال القدر . وأنشد :

كتب البياض لها وبورك لونها فعيونها حتى الحواجب سود

وإنما قيل للقدر كتاب لأنهم ذهبوا إلى أن اللّه عز وجل كتب كل شيء قدره فى اللوح المحفوظ . وقال عز وجل « قل لن يصيبنا إلا ما كتب اللّه لنا » قال أهل التفسير ما قضى وقدر ، وقالوا فى قوله تعالى « كتب اللّه لأغلبن أنا ورسلى » أى قضى ذلك وفرغ منه ، ويقال للفرض أيضا كتاب ، قال ابن عبّاس فى قوله تعالى « كتب عليكم القصاص » أى فرض ، ومن ذلك قيل للصلاة الفريضة المكتوبة ، قالوا وإنما قيل للفريضة كتاب لأنه نزل به وذكر فى الكتاب ، وقالوا الكتاب الأمر وفسروا « ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب اللّه لكم » أى أمركم أن تدخلوها . ويقال

كـتب بمعنى جـعل « أولئك كـتب فى قلوبهم الإيمان ، وقـالـوا فى قـوله عـز وجل «فاكتبنا مع الشّاهدين ، وقوله « فسأكتبها للذين يتقون ، فسروا هذا كله بمعنى جعل ، فقد جاء فى الكتاب هذه المعانى كلها كتب بمعنى قضى وجعل وأمر .

فصل

والكتاب يكون واحدا وجمعا ، وقال تعالى « ونخرج له يوم القيامة كتابا ، يريد واحدا . وقال عز وجل « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ، يريد جمعا، فإذا قلت الكتب فليس إلا الجمع وهى من ثلاثة إلى عشرة، فإذا قلت الكتاب فهو الجمع الذى لا عدد له ويكون الواحد منه الكتاب ، ويقال كتبت الكتاب إذا جمعت الحروف بعضها إلى البعض . ويقال تكتب بنو فلان إذا اجتمعوا . قال عبيد نبيت :

إن بنى جديلةعدوا أو سفرا من سلمى لنا وتكتبوا

أى تجمعوا ، ومنه قيل لجماعة الخيل كتيبة قال النابغة :

تزهى كتائب حضر ليس يعصمها إلا ابتدار إلى موت بإلجام

الكتائب جمع كتيبة ، ويقال كتب الحرز إذا جمعه . قال ذو الرمة :

وفراء غرفية أثأى خوازرها مشلشل ضيعته بينها الكتب

والكتب الحرز والكتبة الحرز ، ومنه كتبت البغلة إذا جمعت بين شفرتيها بحلقة وبغلة مكتوبة إذا كانت كذلك . قال :

لا تأمننّ فراريًا خلوت به على قلوصك فاكتبها بأسيار

فكان الكتاب يسمى كتابا لما اجتمع فيه من المعانى بالخط والحروف ، ويقال

أيضا لجمع الحروف بعضها إلى بعض ، والأسفار الكتب بلغة كتابة ، ويسمى الكتاب سفرا لأنه يحمل من مكان إلى مكان ، والسفر الكتاب الطويل الذى ليس بكراسة ، ومن العرب من يقول : سفر، وعن بعضهم أنه يقول سفر بكسر السين لغة ، والسفر حر ومن أحرا التوراة وكل كتاب سفر والجمع أسفار والكتبة السفرة من قوله تعالى : «بأيدى سفرة * كرام بررة » قيل أنهم ملائكة السماء الدّنيا وهم الكتبة يحصون أعمال أهل الأرض ، والطلس الكتاب قد محى ولم يعم محوه فيصير طرسا وإذا محوت الكتاب ليفسد خطه طلسته وإذا أنعمت محوه قلت طرسته ، ويقال للكتاب الرقيم . وأنشد:

لمن طلل مثل الكتاب المرقم

ويقال هو مرقوم عليك أى مكتوب ، وهو فعل بمعنى مفعول . قال :

سأرقم فى الماء القراح إليكم   على نأيكم إن كان فى الماء راقم

أى كاتب ، والرقيم فى قول الله تعالى يقال اسم الوادى الذى فيه الكهف ، وقال الكلبى: الرقيم لوح رصاص كتبت فيه أسماؤهم وأنسابهم ودينهم وممن هربوا . قال الحسن: الرقيم الجبل الذى هربوا إليه، الرقيم فى غير هذا الروحة ، قال الأحوص أو غيره :

لعمرك إننى لرقيم قيس   وجارة بيتها صب كئيب

فصل

والصحف جمع صحيفة يثقل ويخفف . وقوله تعالى «صحف إبراهيم وموسى» يعنى الكتب التى أنزلت عليهما صلّى الله عليهما ، وسمى المصحف

مصحفا لأنه أصحف أى جعل جامعاً للصحف المكتوبة بين الدفتين ، وتقول طويت الصحيفة فأنا أطويها طيا ، فالطى هو المصدر وطويتها طية يعنى مرة واحدة ، وتقول أنه يحسن الطية لا تريد به المرة الواحدة ولكن تريد به ضربا من الطى مثل الجلسة والمشية يريد به نوعا منه ، قال ذو الرمة:

أم دمنة نسفت عنها الصبا سفعا   كما تنشر بعد الطية الكتب

فكسر الطاء لأنه أراد نوعا منه في الحسن والقبح ولم يرد المرة الواحدة ، والفعل اللازم للصحيفة وغيرها والجبة وما يشبهها الانطواء تقول انطوى ينطوى انطواءً فهو منطو على منفعل ، وتقول أطّوى يريد به افتعل فأدغم الياء فى الياء فقال مطو .

فصل

سمى الكاتب كاتبا لأنه يضم بعض الحروف إلى بعض من قولهم كتبت القربة إذا ضممت حرزا منها إلى حرز ، ومنه قول ذو الرمة :

وفراء غرفية أثأى خوارزها   مشلشل ضيعته بينها الكتب

الوفراء المزادة والغرفية المدبوغة بالغرف وهو شجر وأثأى أفسد والمشلشل الماء والكتب الحرز ، ويقال كتبت الكتاب أكتبه كتابا وكتابة ومكتبة ، وكتب الرجل يكتب كتابا وكتبة ومكتبا فهو رجل كاتب ، وهم قوم كتاب وكتبة والمفعول منه مكتوب ، وسطر يسطر سطرا ومسطرة ومسطرا فهو ساطر والفعل منه مسطور ، وخط يخط خطا وخطة ومخطة فهو رجل خاط وخطاط ، قال اللّه عزّ وجلّ : « ولا تخطّه بيمينك » . وإذا أخبرت عن نفسك قلت كتبت وسطرت وخططت ، وإذا أمرت غيرك

قلت اكتب لى كتابا واسطر لى سطرين وثلاثة . قال الشاعر :

إنى وأسطار سطرن سطرا   لقائل يا نصرُ نصراً نصراً

وخط لى خطا حسنا وإن شئت قلت اخطط لى ، فأما الإ سطير عند العرب فهو ما يؤلفه الجهال والضلال من الكذب المزخرف الذى لا عقل له، يستأكلون به الدنيا ، وجمعه أساطير، يقول سطرت علينا فلان تسطيرا إذا جاء بأحاديث شبه الباطل، الواحد من الأساطير أسطار وهى أحاديث باطلة ، وتقول يسطر أى يؤلف مالا أصل له ، وأما السيطرة فهى الجبرية والكبر والسّلطنة . فى القرآن «لست عليهم بمسيطر» أى بمسلّط ، وسطر الكتاب جمعه أسطاراً وأسطراً. وسطور جمع أساطير الواحد أسطارة وسطرة وسطر وسطور ،جمع أساطير وسطر فمن قال سطر مخفف فجمعه القليل أسطر ، وسطور الكثير فمن قال سطّر مثقل قال أسطارة . قال جرير :

من شاء بايعته مالى وخلعته   ما يكمل اليتم فى ديوانهم سطرا

ويقال : طرس وهو من الأضداد . قال أبو الشص :

طلل عفت ديم السماء رسومه   وكأن باقى رسمهن طروس

وذلك إذا أعدته . ولا يقال طرس إلا الذى يمكن إعادته والطرس المداد أيضا قال :

يا فاعطنى ثمن الطرس الذى كتبت   به القصيدة أو كفارة الكذب

فصل

والوحى الكتابة يقول وحى يحى وحيا أى كتب كتابا وأنا أحى . قال :

من رسم آثار كوحى الواحى

أى ككتاب الكاتب . وأنشد ابن عرفة :

كـأن أخـا اليـــهود يخـط وحيـا   بكـاف فـى منـازلهـا ولام

وقال عنترة – وشبه المنازل ودرسها بالكتاب :

كوحى صحائف فى عهد كسرى   فأهداها لأعجم طمطمى

والوحى فى كلام العرب على وجوه منها وحى النبوة ومنها الإلهام ومنها الإشارة ومنها الكتابة ، وفى ذلك شواهد من الكتاب والشعر والكلام تركته اختصارا ، واختلفوا فى قوله عز وجل « فأوحى إليهم أن سبّحوا بكرة وعشيّا » قال مجاهد أشار إليهم ، وعن الضحاك وابن أبى ليلى قال كتب لهم ، قال أبو عبيد: والمعنى محتمل للقولين .

فصل

والترقين ترقين الكاتب الكتابة وهو تزيينه ، وكذلك ترقين الثوب بالزعفران والورس . قال :

دار كرقن الكاتب المرقن   بين نقا الملقا وبين الملقن

قال: الرقون النقوش قال بعضهم :امرأة راقنة أى مخضبة بالحناء والزعفران ، وأنشد :

صفراء راقنة كالشمس عطبول

والرقون الزعفران ، ويقال: نمقت الكتاب تنميقا إذا أحسنته وزينته وجائز أن يخفف ونمقته أيضا نقشته وصورته ، قال النابغة :

كأن مجر الرامسات ذيولها   عليه قضيم نمقته الأصابع

قضيم صحيفة، والتناشير كتابة الغلمان الكتاب ينشرونها على المعلم أى يرونه إياه ، وتقول نشرت الكتاب وأنشرته نشرا ، والإملال إملال الكتاب ليكتب ، والسجل الصحيفة فيها الكتاب ، وقيل السّجل كاتب كان للنبّى ﷺ . قال الحسن: السجل الصحف .

فصل

وترجمة الكتاب كلمة مولدة عراقية غير عربية ومعناها الإبانة والدليل ، يقال لصاحب الترجمة ترجمان بضم التاء ولا تفتح ، ويقال للكراسة دفتر ولا أعرف له اشتقاقا ، ويقال دفتر أيضا بالتاء وقيل نعم المحدث الدفتر . وقال :

نعم المسامر للوحيد الدفتر   نعم المحدث أدباء السمر

وللكتاب فصول كثيرة مشتملة على علوم كثيرة منها الهمزة والمد والقصر والوصل والفصل والحذف والزيادة والنقط .

ورسوم خطوط الكتب وما ألحق بالهجاء وليس منه ولكل فصل من هذه الفصول فصول أيضا فيها كتب مصنفة موجودة إن شاء اللّه .

بــاب

فــى القـــرآن

سمى اللّه عزّ وجل القرآن كتابا فقال تعالى ، الم ذلك الكتاب لا ريب فيه ، قال أبو عبيدة معناه هذا القرآن ، والعرب تخاطب الشاهد مخاطبة الغائب ، قال خفاف ابن ندبة السلمي وهى أمه وكانت أمة حبشية وكان من عربان العرب :

أقوله والرمح ناطر متنه تأمل خفافا إننى أنا ذلك

وسمى القرآن قرآنا لأنه جمع السور وضمنها ، قال عز وجل ، إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه ، معناه ألفنا منه شيئا وضممناه إليك فاعمل به وخذ به، قال وقيل للناقة التى لم تلد ما قرأت جنينا قط ، وأنشد لعمرو بن كلثوم :

ذراعي عيطل أدماء بكر هجان اللون لم تقرأ جنينا

أى لم تضم فى رحمها ولداً ، وفى آية أخرى فإذا قرأت القرآن مجازه فإذا تلوت بعضه فى أثر بعض حتى يجتمع وينضم بعضه إلى بعض .

الفرقان: قال أبو عبيدة: وسمى فرقاناً لأنه بين الحق والباطل وبين المؤمن والكافر، وعن ابن عباس فى قوله تعالى ،وأنزل الفرقان ، قال المخرج من الشبهات، وسمى عزّ وجل التوراة فرقاناً فقال تعالى ، ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً لأن سبيله فى تلك الأمة سبيل القرآن فى هذه الأمة، ومنه سمى عمر الفاروق لتفريقه بين الحق والباطل، ويقال سمعت فرقان الفرقان فى الفرقان ، فالفرقان الأول أراد القرآن والثانى يجمع فريقا من الناس وهو الجماعة، والثالث السحر، وقيل

سمى السحر فرقانا لأنه يفرّق بين اللّيل والنّهار .

الوحى: ومن أسماء القرآن الوحى كما يقال له قرآن وتنزيل وقد قالت الأمة بأجمعها القرآن كلام اللّه تعالى ووحيه وتنزيله ، قال عز وجل « قل إنما أنذركم بالوحى » الآية . وفى الوحى معان جليلة وتفسير طويل فتركته اختصاراً .

التنزيل: ويقال للقرآن تنزيل كما يقال له قرآن، ويقال هذا فى التّنزيل أى فى القرآن وهو مأخوذ من قوله تعالى « اللّه نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابها » ومن قوله عزّ وجلّ « نزّله روح القدس من ربك بالحق » ونزل به الرّوح الأمين ، ونزلناه تنزيلا ، فهو مشتق من نزل ينزل وأصله من الانحدار ، قال عز وجل « وننزل لكم من السّماء رزقاً » قال الأعشى :

فلست لإنسى ولكن لمالك ينزل من جوّ السماء يصوب

فكل منحدر من موضع عالٍ فهو متنزل .

القصص: وسمى اللّه عز وجل القرآن قصصاً ، فقال تعالى « نحن نقص عليك أحسن القصص » . والقصص فى كلام العرب هو اتباع الأثر ، وقال عز وجل «قالت لأخته قصّيه » . أى اتبعى أثره، واللّه أعلم . ويقال خرج فلان فى أثر فلان قصصاً أى اتبع أثره ، وكأنه سمى قصصاً لأنه عليه السّلام اتبع ما أوحى إليه ثم ألقى ذلك إلى النّاس فاتبعوه .

روح: ويقال للقرآن روح ، قال عز وجل « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا» . قال ابن قتيبة فى حديث النبّى ﷺ : تحابوا بذكر الله وبروحه. قال روحه القرآن ، كقوله تعالى «أوحينا إليك روحاً من أمرنا» ، فكأنه سماه روحاً لأنه أحيا به

الدين والناس . والله أعلم .

المثانى: وسماه الله عزّ وجل المثانى ، فقال تعالى « كتابا متشابهاً مثانى » قالوا سمى بذلك لأن الأنباء والقصص تثنى فيه ، وقال آخرون: المثانى مشتق من قولك ثنيت الشيء أى كررته ، وقوله كتابا متشابها مثانى مجازه آيات من القرآن يشبه بعضها بعضا ، وأنشد الحجاج :

نشدتكم بمنزل الفرقان   أم الكتاب السّبع من مثانى

تتبين من أى من القرآن أم الكتاب ، ويقال لسورة الحمد أم الكتاب ، ويقال لها السّبع من المثانى ، وروى أبو عبيدة بإسناد له عن النبّى ﷺ . وقرأ عليه آى فاتحة الكتاب ، فقال والذى نفسى بيده ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزّبور ولا فى القرآن مثلها. إنّها السبع من المثانى والقرآن الذى أوتيت ، وقال أبو عبيدة إنما قيل للحمد أم الكتاب لأنها يبتدأ بها فى أول القرآن ، وتعاد فى كل ركعة، ويقال لها فاتحة الكتاب لأنها يفتح بها المصحف فتكتب قبل القرآن .

المفصل : قال بعض العلماء سمى مفصلاً لأنه نظم نظما بالآيات فآية فى الحلال وآية فى الحرام ، وأخرى فى القصص وأخرى فى الناسخ وأخرى فى المنسوخ، قد فصّل بأنواع الأحكام وبين كل حر رنين زبرجده ، وقال النابغة :

بالدّرّ والياقوت زين نحرها   ومفصل من لؤلؤ وزبرجد

قال غيره: سمى مفصلاً لأن الأحكام والسنن بينت فيه وفصلت ، يقال فصلت الحكم أوضحته وبينته. وقضاء فصل أى متبين قد مضى الحكم فيه ، قال عزّ وجل «إنه لقول فصل * وما هو بالهزل » السورة، قال أبو عبيدة : السورة تهمز

ولا تهمز فمن همزها جعلها من أسأرت أى أفضلت ومجاز سورة مجاز قطعة من القرآن على حدة وفضلة منه ، ومن لم يهمزها جعلها من سورة البناء أى منزلة بعد منزلة ، وأنشد النابغة :

ألم تر أن الله أعطاك سورة   ترى كل ملك دونها يتذبذب

أعطاك سورة أى منزلة ورفعة لا يلحقها أحد من الملوك، وارتفعت عن منازل الملوك ، قال وسورة البناء مأخوذ من ذلك لأنه يبنى ويرفع ، ويقال سرت إليه أى ارتفعت إليه ، وأنشد :

وربّ ذى سرادق محجور   سرت إليه من أعالى السور

وجمع سُورة فى لغة من همزها ومن لم يهمزها سور بفتح الواو ، وجمع سورة البناء سور بجزم الواو مثل سيرة وسير . قيل إنما قيل لسور القرآن سور ، لأنّ الله عزّ وجل فضّل بها نبيّه ﷺ فكلما أعطاه سورة زاده رفعة وفضيلة ، والسورة فى كلام العرب على ما فسروه هى الرفعة والمنزلة والفضيلة ، وقال الحطيئة :

فمن مبلغ أفناء سعد فقد سعى   إلى السّورة العليا لهم ... (١)

فسورة القرآن هى مناقب لرسول الله ﷺ وفضائله ومنازله الرفيعة ، وقال ابن الأنبارى فيها أربعة أقوال أحدها من ارتفاع منزلة إلى منزلة مثل سور البناء ، والثانى لشرفها من قولهم له سورة فى المجد أى شرف وارتفاع ، والثالث لكبرها على خيالها من قولهم له سورة من الإبل أى أقرام كرام واحدتها سورة ، والرابع لأنها قطعة من القرآن على حدة وفضيلة ، من قولهم أسأرت منه سورا أى أبقيت

---

(١) بياض فى الأصل .

منه بقية فيكون أصلها الهمز فتركوه وأبدلوا منه واواً لانتظام ما قبلهُ .

آية: قال أبو عبيدة: وإنما سميت آية لأنها كلام متصل إلى انقطاعه وانقطاع معناه قصة ثم قصة ، وقال فى قوله عز وجل «آيات محكمات» مجازه أعلام الكتاب وعجائبه وآياته فواصله. وفى قوله تعالى «لمن خلفك آية» أى علامة ، وقال ابن قتيبة: بلغنى أن أبا عمرو الشيبانى قال: معنى آية من كتاب الله أى جماعة حروف، قال: ومنه يقال خرج القوم بآيتهم أى بجماعتهم ، وقال غيره الآية أصلها العلامة التى تعرف بها الشيء ويستدل بها عليه ، قال الهذلى:

بآيات ما وقفت والركاب   بين الحجون وبين السرر

يعنى بالآيات العلامة بلَّغها عنى والحجون بمكة والسرر على أربعة أميال من مكة عند مسجد عبد الصمد كانت هناك شجرة يقال سر تحتها سبعون نبياً أى قطعت سررهم فسميت بذلك ، وقال شريح الطائى :

خرجنا من النقبين لاحى مثلنا   بآيتنا ترجى اللقاح المطافلا

بآيتنا أى بجماعتنا، ومعنى قولهم خرج القوم بآيتهم أى بجماعتهم وذلك أنهم كانوا إذا خرجوا بجماعتهم لحرب أو لأمر حملوا معهم راية قد جعلوها علامة لهم فقيل خرج القوم بآيتهم أى بعلامتهم، وكثر ذلك حتى قيل لهم إذا خرجوا مجتمعين وإن لم يكن لهم آية خرجوا بآيتهم فصار اسما لجماعة ، قال النابغة الذبيانى :

من مبلغ عمرو بن هند آية   ومن النصيحة كثرة الإنذار

وقال كعب زهير :

ألا أبلغا هذا المعرض آية   أنقصان قال القول إذ قال أم حلس

فالاية على هذه المعانى قد جاءت فى اللغة الكلمة يقال كلمة وكلمة والجمع كلمات، وقال بعض كلمة وللجمع كلم ، قال والفرق بين الكلام والكلم أن الكلام عام لقليل النوع وكثيره والكلم محصور محدود وليس كالكلام الذى يكون للنوع كله قليلاً كان أو كثيرا ، قال والاسم كلمة والفعل كلمة ، والحرف كلمة وجميع ذلك كلم ، وقال كلمة وكلم مثل نبقة ونبق ، والعرب تقول مدح فلان فلانا بكلمة طويلة أى قصيدة طويلة ، وقال غيره لا تكون الكلمة على أقل من حرفين وهى على حرفين ناقصة ، وعلى ثلاثة أحرف تامة. فإذا زادت على ثلاثة أحرف فهى زائدة قال وجمع الكلم كلمات ، قال الله عزّ وجل « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربّى » الآية، قيل وإنما قيل لأمر الله عزّ وجل لأنه على حرفين كاف ونون ولو كان حرفا واحدا لما سمى كلمة بل كان يقال له حرف فلما اجتمع حرف وحرف قيل كلمة .

الحرف: الحرف الحد وحرف كل شيء حده وطرفه الذى يكون نهايته ، قال طرفة :

وجمجمة مثل العلاة كأنما دعا الملتقى منها إلى حرف مبرد

يعنى إلى حد مبرد ، وجمع الحرف حروف هى حدود الكلمة ، وكذلك تكون الحروف حدود الكلام كله ، والكلمة بنيت على الحروف فمنها كلمة على خمسة أحرف ومنها على أربعة ومنها على ثلاثة ومنها على حرفين والحرف الواحد هو انتهاؤها فسمى حرفا لذلك، وقال غيره سمى حرفا لأنه عدل به عن صورة غيره فأول الحرف ألف فإذا قيل يا عدل به عن صورة الألف فى الخط ، وكذلك كل حرف معدول عن صفة الآخر يقال انحرف عنه إذا عدل عنه. والحرف هو حد

الكلمة وطرفها. يسمى بذلك أو قيل له حرف لأنه حرف به عن جهة الانحراف وعدل به عنها، وللحروف من غير هذا الوجه تفسير يطول تركته اختصارا .

القراءة والتلاوة: قال أبو عبيدة قرأت القرآن مجازه تلوت بعضه فى أثر بعض، حتى يجتمع وينضم بعضه على بعض. ومعناه يصير إلى معنى التأليف والجمع فكأن الذى يقرأ القرآن معناه يجمع الآية إلى الآية فى قراءته وأما التلاوة فهى الاتباع يقال هو يتلو كتاب الله عز وجل إذا قرأه ، قال تعالى « وإذا تتلى عليهم آياتنا » وقال عز وجل « يتلونه حق تلاوته » وهو فى غير موضع من القرآن فكان التلاوة هى أخص من القراءة لأنه يقال قرأ الكتاب للقرآن وغير القرآن ولا يقال تلا الكتاب سوى القرآن، والكتاب المنزل، ومعنى التلاوة الاتباع يقال الولد يتلو أباه وأمه إذا تبعهما ، ومنه يقال السابق والتالى، يقال هذا لكل اثنين أحدهما يتقدم والآخر يتأخر فكأن الذى يتلو القرآن جعل القرآن سابقا وصار هو تاليا للقرآن .

فصل

القرآن كتاب الله عز وجل لا يسمى به غيره من سائر الكتب ، روى عمر عن النبّى ﷺ أنه قال: القرآن أصل علم على الشريعة نصه ودليله ، وعن النبّى ﷺ من أوتى القرآن فظن أن أحدا أعطى مثل ما أعطى فقد صغر ما عظم الله وعظم ما صغّر الله ، ومن أوتى القرآن كمن جعلت النبوة بين كتفيه ولا يوحى إليه ، وعنه ﷺ أنه قال أصنّ بهذا القرآن قوم عملوا بما فيه ، وإن لم يقرءوه ، وقيل إذا عمل حامل القرآن المعصية خرج القرآن من جوفه ، وقال: على هذا حملتنى ، وقال

مالك: القرآن ربيع المؤمنين كما أن الغيث ربيع الأرض. وكان يقول يا حملة القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم ، وقال إنما أنزل القرآن ليعمل به فاتخذ الناس تلاوته عملا ، ابن مسعود أنه قال: كل مؤدب يحب أن يؤخذ بأدبه وإن أدب اللّه هو القرآن، قال النبّى ﷺ: أوتيت جوامع الحكم واختصرت لى الحكمة اختصارا. وقيل إنه هو القرآن .

فصل آخر

قال النبّى: ﷺ إذا التبست عليكم الأمور كقطع اللّيل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع وماحل مصدق ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلفه قاده إلى النار ، وهو الدّليل على خير سبيل وكتاب تحصيل وبيان تفصيل ، وظاهره حكم وباطنه علم وظاهره أنيق وباطنه عميق، له نجوم على نجومه نجوم. لا تفنى عجائبه ولا تبلى غرائبه، فيه مباراة الحكمة ودلالة على المحجة لمن عرف الصفة فليولج رجل نظره وليعمق بصره ينجو من عطب ويسلم من سبب كما يمشى المستيقن فى الظلمات، تحسن التخليص وقلة التربيص .

التفسير: فسر قوله ﷺ ماحل مصدق. أى يمحل صاحبه إن هو ضيعه ، والمحال من المكيدة وروم ذلك بالحيل وبهذا المعنى قولهم بمحلة الدراهم ومحل فلان إذا كاده يسعى منه إلى السّلطان . وفسر قول اللّه عز وجل «وهو شديد المحال» أى شديد الجدال ، وقال الحسن: شديد البطش والأخذ والعقوبة ، وقال أبو عبيدة شديد العقوبة والمكر والنكال ، قال الأعشى :

فرع نبع يهتز فى غصن المجد عزيز الندا شديد المحال

إن يعاقب يكن غراما وإن يعـــ ـطـ جزيلا فإنه لا يبالى

ففسر بيت الأول بالثانى غراما هلاكاً ، قال الله عز وجل «إنّ عذابها كان غراما» أى هلاكاً وإلواماً لهم ، ومنه رجل مغرم بحب النساء ومنه رجل مغرم من الغرم والدين ، قال بشر بن أبى حازم :

يوم اليسار ويوم النفار كانا عذاباً وكانا غراما

أى هلكة ، وقال القتيبى : شديد المحال ، أى الكيد والمكر. وأصل المحال الحيلة والحول الحيلة ، وقال غيره: شديد الانتقام ، وفى الحديث من تبع القرآن هجم به على روضة من رياض الجنّة ، ومن نبذ القرآن زج فى قفاه حتى يقذفه فى النّار ، ويروى من نبذ القرآن وراء ظهره زج فى قفاه يوم القيامة ، يقال زجه يزجه ودعه يدعه إذا دفعه والزج دفعك إنسانا فى وهدة يقول زججت فى قفاه. فأما قول الشاعر:

فلا تقعدن على زخة وتضمر فى القلب وجدا وحيفا

فالزخة الوجد فى القلب تقول العرب فى قلبه زخة وحقد وغمر وغل وحسيكة وحسيفة وحرارة وإحنة وحنة وصب وغم ، وقال :

إذا كان أولاد الرجال حرارة فأنت الحلال الحلو والبارد العذب

والزخيخ شدة بريق الحر والحر يزخ زخيخا ، قال:

فعندك تطلع المريخ فى الصبح يحكى لونه زخيخ

من شعلة ساعدها النفيخ

والدّع الدفع فى جفوة ، قال الله عز وجل « فذلك الذى يدع اليتيم» أى يدفعه عن حقه أو صلته أو طعامه ، وقال تعالى «يوم يدعون إلى نار جهنّم دعّا ، وفى حديث عنه ﷺ إنكم مدعون يوم القيامة مفدمة أفواهكم بالفدام . أى تمنعون من الكلام ، قال الشاعر :

ألم أكف أهلك فقدانه ۔ إذا القوم فى المحل دعوا اليتيما

فصل منه

القرآن دليل بنفسه معجز بعجيب نظمه لا يقدر الخلق على أن يأتوا بمثله ، لأن رسول الله ﷺ جاء به قوما هم الغاية فى الفصاحة والأنفة والحمية والخيلاء والعصبية فقرعهم بالعجز أن يأتوا بمثله فلم يقدروا على ذلك بخطية ولارسالة ولا قصيدة ولا أرجوزة ، فإن قال قائل ما يدريكم لعّل العرب قد عارضت القرآن وأتت بمثله فى ذلك وانكتم، قيل له لو جاز أن يكون النبّى ﷺ هزمه عدوّه يوم بدرٍ ، فستر ذلك عنا ونقل إلينا خلافه ، ولو جاز أن يكون ﷺ قتل فى بعض مغازيه فكتمنا ذلك ، ونقل إلينا أنه مات على فراشه ، وقد ألف الملحدون فى القرآن الكتب، ولو كانت العرب قد عارضته بمثل الذى أتى به فأبطلت حجته لشهر ذلك ولكان أحق بالظهور لشهرته وعظم الخطب فيه من سائر ماظهر لأنه أغرب وأفظع وأشنع ، ومحال أن ينقل إلى دون ، ويتعلق به وينزل الأجل الأقطع ، وباللّه التّوفيق .

فصل

القرآن عربى ليس فيه شىء بأعجمى ، الدليل على ذلك قوله عز وجل ، إنا جعلناه قرآنا عربياً ، وقوله تعالى ، قرآنا عربياً غير ذى عوج ، وقال عز وجل مذكرا أنه لا يكون فيه غير عربى ، ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصّلت آياته أأعجمىّ وعربى ، أى لم يكونوا يفهمونه ، ثم قال أعجمّى وعربى أى كتاب أعجمى وعربى وكيف يكون هذا أى هذا لا يكون ، وقال عز وجل ، ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، ثم كذبهم بقوله تعالى ،لسان الّذى يلحدون إليه ـ بالدّعوى أعجمى وهذا لسان عربىّ مبين ، أى يفهمونه ولا يذهب عنكم منه شىء ، والذى يلحدون إليه قيل أنه أبو فكيهة مولى ابن الحضرمى وكان أعجمى اللسان وكان يهوديا فأسلم ، وذكروا أيضا عابس غلام حاطب بن عبد العزى وكانا قد أسلما ، وكان النبّى ﷺ يأتيهما ويحدّثهما ويعلمهما وكانا يقرءان كتابهما بالعبرانية ، فمن زعم أن فى القرآن شيئا أعجمياً فقد ردّ قول اللّه عزّ وجل وادعى ما لا برهان لـه به .

* **مسألة :** فإن قال قائل فقد رأينا فى القرآن حروفا هى فى كلام العجم ، قيل له هذا يكون ولكن لا ينسب إلى كلام العجم ما فى القرآن منه لأنه وقع فى كلام العرب؛ لأنه قد يكون الحرف متفقا فى اللسانين جميعا بلفظ واحد ، كالمشكاة هى بالحبشية الكوة التى لا منفذ لها وكذلك هى بلسان العرب ، وكذلك الكفلان هو الضعفان من الأجر بلسان الحبشة ، والكفل فى كلام العرب الحظ والنصيب ، وهو على معان فى كلام العرب ، وكذلك التأويب هو التسبيح بلسان الحبشية وبلسان العرب ، قوله تعالى ، يا جبال أوّبى معه ، أى سبّحى ، والذى خاطب اللّه تعالى

نبيّه ﷺ اللّسان العربى وإن كانت وافقت اللّفظة والمعنى لغة الحبشية ، وهو غيرهم وهو كثير معروف ، قد تبين لمن أراد الحق أن القرآن كلّه عربى ليس فيه شىء ليس فيه كلامهم والحمد للّه .

* **مسألة :** والقرآن حجّة على من تلى عليه ولو كان التالى له صبيا أو ذميا إلا أن أبا محمّد رحمه اللّه قال: حتى يقرأ عليه ثلاث آيات على قول وعلى قول آية إذا كانت منتظمة بنظم يخرج من كلام النّاس من الآيات المنتظمات ، مثل قوله عز وجل « أقم الصّلاة لدلوك الشمس إلى غسق اللّيل وقرآن الفجر » الآية ، وأما قوله تعالى «يأيّها الّذين آمنوا أقيموا الصّلاة» فلا يكون حجة ، ومثل هذا الذى بغير نظم ، وروى عن النّبى ﷺ أنه كان يردد الآية من القرآن مراراً ، قال اللّه جل ذكره «ليدّبروا آياته وليذكر أولوا الألباب » ومن نقل لتقرءوا آياته فيكون قراءة النبّى ﷺ مرّة واحدة مجزية من إعادة ذكرها حالاً بعد حالٍ ، بل قد ذم من يمر بالآيات فلا يتدبرها ويرى المعجزات فلا يتأملها . قال اللّه جل ذكره « وكأىّ من آية فى السموات والأرض يمّرون عليها وهم عنها معرضون » .

ابن عباس عن النبّى ﷺ أنه قال : من بلغه هذا القرآن فكأنّى شافهته به ثم قرأ « وأوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ » الإنذار الإخبار معه تخويف وكل منذر معلم، وليس كل معلم مخوفا حتى يكون مع إعلامه تخويف، كقوله تعالى «وأنذرهم يوم الحسرة » أى يخوفهم فى الدّنيا يوم القيامة وهم فى غفلة فى الدنيا وهم لا يؤمنون بيوم القيامة أى لا يصدقون ، ويقال آمن به وآمن له إذا صدقه ، وقوله تعالى « ومن بلغ » أى ومن بلغه القرآن فقد لحقته النّذارة وقامت عليه به الحجة إلى يوم القيامة ، فكان من تلى عليه كتاب اللّه أو سمعه علم أنه ليس من

كلام المخلوقين وأنه معجزة ألا تسمع إلى قوله تعالى ، أو لم يكفهم أنّا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، فأعلم جل وعزّ أنه كافيه يقوم به الحجة على كل من سمعه ، فمن تلى عليه فرد به سماعه آية فإنما هو ملحد متعنت ، والقرآن كتاب جعله الله تعالى مهيمناً على الكتب ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، فمن بلغه القرآن فلا حجة له على الله .

* مسألة : عن النبّى ﷺ أنّه قال : تعلموا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة، تعلموا الزهراوين البقرة وآل عمران فإنهما تجيئان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو عمايتان أو فرقان من طير صواف يحاجّان عن صاحبهما ، وقال ﷺ : أعظم آية فى القرآن آية الكرسى ، والذى نفسى بيده إن لها لساناً وشفتين يقدسان الملك عند ساق العرش ، والبقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال يسمين السبع الطوال ، وكانت سورة براءة تسمى الفاضحة يعنى فاضحة المنافقين مما أطلع الله تعالى على عوراتهم عن جرير بن عبد الله قال : سورة الملك هى المانعة من عذاب القبر ، قال وهى فى التوراة تسمى المانعة ، وهى فى الإنجيل تسمى الواقية، ومن قرأها فى كلّ ليلة فقد أكثر وأطاب، وتسمى قل يأيها الكافرون ، وقل هو الله أحد. المقشقشتين أى المبرئتان من الكفر والشرك ، ذكر وهب أنه وجد فى التوراة سورة الجمعة أطول من سورة البقرة بنحو من ألف حرف ، وذلك أنها نزلت فى التوراة مفسرة يسبّح ما فى السموات وما فى الأرض ، فذكر كل شيء فى السموات وما فى الأرض ، فسمى كل شيء باسمه، ونزلت على النبّى ﷺ مجملة ، ابن عباس قال: نزل القرآن إلى السّماء الدنيا جملة واحدة ونزل إلى الأرض نحو ما قال ثم قرأ ، فلا أقسم بمواقع النّجوم * وإنه لقسم لو

تعلمون عظيم ، البراء بن عازب قال : آخر سورة نزلت براءة وآخر آية نزلت آية النساء ، ابن عبّاس قال قال أبو بكر يا رسول الله شبت ، قال شيبتنى هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت ، وفى خبر شيبتنى هود وأخواتها . ابن عباس عن النبّى ﷺ ، أنه قال: عليكم بالحال المرتحل ، قيل : يا رسول اللّه ، وما الحال المرتحل ، قال صاحب القرآن يقرؤه من أوله حتى يبلغ آخره ، ثم يرجع من أوله إلى آخره فهو كالحال المرتحل ، عن معاذ قال: فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الخالق على المخلوق ، أبو سعيد بن المعلى قال : مرّ بى رسول اللّه ﷺ . وأنا فى المسجد أصلى فدعانى فلم آته فلما فرغت أتيته فقال ما منعك أن تأتينى ، قلت: كنت أصلّى قال ألم يقل اللّه « يأيّها الّذين آمنوا استجيبوا للّه وللرّسول إذا دعاكم لما يحييكم ، ثم قال: ألا علمك أفضل سورة فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد قلت بلى فلما قام ليخرج قلت يا رسول اللّه ، الذى وعدتنى ، قال الحمد للّه ربّ العالمين ، هى السبع المثانى والقرآن العظيم ، أنس بن مالك أن النبّى ﷺ قال: أمّ القرآن كانت مودعة تحت العرش لم تعط أحداً من الأنبياء .

فصل

عن النبّى ﷺ : أعربوا القرآن والتمسوا إعرابه ، وعن عبد الله قال: ذكروا القرآن إذا اختلفتم فى التأنيث والذكير فإن القرآن مذكر ، ابن مسعود قال سمعت النبّى ﷺ يقول إن حسن الصوت زينة القرآن ، أنس بن مالك قال : ما بعث الله نبيا إلا حسن الوجه حسن الصوت، وكان نبيّكم ﷺ حسن الوجه حسن الصوت غير أنه

لا يرجع ، عن أمّ سلمة قالت: كان رسول اللّه ﷺ يقطع قراءته حرفا حرفا وكان يقرأ هذا الحرف ، ملك يوم الدين ، عن عائشة قالت كان يرتل قراءته آية آية، حذيفة قال : قال رسول اللّه ﷺ . من قرأ القرآن ظاهراً أو نظرا حتى يختمه غرس الله عزّ وجلّ له شجرة في الجنة لو أن غرابا فرخ في ورقة منها ثم نهض يطير لأدركه الهرم قبل أن تقطع تلك الورقة من الشجرة ، قال أبو عبد اللّه : من كان يقرأ المصحف فانتقض وضوءه فأطبقه هو ولم يدفعه إلى غيره ممن هو على وضوء يطبقه فلا بأس. وقيل عن الفضل لا بأس بقراءة القرآن ما لم يتغوط فإن انتقض وضوءه من غير تغوط لم يكن عليه بأس فى قرآءة القرآن ولا يتكلم القارىء حتى يفرغ من قراءته ولا يضحك عند قراءته ولا يلغو ولا يلهو فيكون من المستهزئين بآيات اللّه ، ومن كتب القرآن فى شىء ثم أحرقه فليتب مما صنع واللّه تعالى أولى به إن شاء عذبه وإن شاء رحمه، ومن كان فى ماء إذا قعد يستره إلى حلقه ولا ثوب عليه فلا بأس أن يقرأ القرآن كذلك .

فصل

قال الفراء: نزلت التوراة مجملة ونزل القرآن متفرقا ، وقيل: التوراة كانت مفسرة يفهمها بنو إسرائيل إذا قرئت عليهم لا يحتاجون إلى أن تفسر لهم ، وإنما احتيج إلى تفسير القرآن لأنه أنزل مجملا بلغة العرب ومذاهبها ، والتوراة نزلت وقر سبعين بعيرا يقرأ الجزء منه فى سنة ولم يقرأ أحد إلا أربعة نفر موسى بن عمران ويوشع بن نون وعزير وعيسى عليهم السّلام ، والتوراة مأخوذة من أوريت الزناد إذا

قدحت منه نارا ، والتوراة أصلها ووراة فقلبت الواو تاء كما قلبت فى يولج وإنما هو وولج لأنه فوعل ، من ولجت والتولج الموضع الذى يولج فيه وأصل توراة ووراة يراد مما يورى ويضىء ويظهر . قال ابن الأنبارى :أصل التوراة تورية على وزن تفعلة فصارت التاء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، ويجوز أن يكون تفعلة فيكون أصلها تورية فينتقل من الكسرة فتحة كما تقول العرب فى جارية جاراه وفى ناصية ناصاه . وأنشد الفراء :

فما الدنيا بباقية لحى   ولا حى على الدنيا بباقى

أى بباقية لحى ، والإنجيل بالسريانية نجلته أى استخرجته ، ومنه اشتق الإنجيل مفعول مثل الإكليل معناه أن اللّه تعالى أخرجه من اللوح المحفوظ وأنزله على عيسى عليه السّلام ، وعن بعض أن معنى التّوراة بالعبرانية توروة تفسيره التأديب واليهود تسمى التوراة أوريثا ومعناه بلغتهم وراثة الأنبياء ، يعنى أنهم ورثوها عن موسى عليه السّلام ، وهو معنى قول النبّى ﷺ . العلماء ورثة الأنبياء. وقيل الإنجيل مأخوذ من النجل النسل ، يقال هذا من نجل فلان أىً من نسله.

قال الأعشى :

ألحت أيام والديه به   إذ نجلاه فنعم ما نجلا

وقال آخر :

إن قلت إن أبى فى إرث مكرمة   قالوا صدقت ولكن ليس ما نجلا

وإن كان الإنجيل مأخوذ من النجال وهو منابع الماء والنزوز التى يظهر فى الوادى وإنما يعنى مستنقع للحكم ومنبع العلم أى قد جمع به العلم والحكمة فهوينز

وينبع كما ينز الماء وينبع من النجل وهو النز، قال ابن قتيبة كان الحق قد دثر أو دثر كثير من معالمه وكثر تحريف أهل الكتاب وخفى على الناس لما أحدثوه فأظهر الله تعالى به ذلك ، قال ابن الأنبارى وقرأ الحسن التوراة والأنجيل بفتح الهمزة فجعله أعجميا لأنه ليس فى أبنية العرب فى هذا المثال ، ويعرب أيضا معنى الإنجيل من المجلة وكانت تسمى كل كتاب مجلة ، قال النابغة :

مجلتهم ذات الآله ودينهم　　قويم فما يرجون غير العواقب

ويروى محلتهم أى مسكنهم ذات الإله أى بيت المقدس ، وناحية الشام ، وهى منازل الأنبياء صلوات الله عليهم ، وأما الزّبور فيقال لكل كتاب زبور ، وهو مأخوذ من زبرت الكتاب أزبره إذا كتبته ، قال أبو عبيدة فى قوله عزّ وجل ، وإنّه لفى زبر الأولين، ، أى كتب الأولين . وأنشد الهذلى :

عرفت الديار كرقم الدواة　　يزبرها الكاتب الحميرى

قال: سمعت يمانيا يقول: أنا أعرف بزبريتى أى كتابى ، وقال أبو عبيدة ، يقال زبرت الكتاب أزبره زبرا ودبرته أدبره دبرا جميعا أى كتبته ، وقال الأصمعى زبرت كتبت ودبرت قرأت ، قال الخليل: الدبر بلغة هذيل كل قراءة خفيفة دبرها يدبرها وتدبرها دبرا ، وبعضهم يقول: دبّر الكتاب أى كتب وبعضهم ، يقول الدبور بالشيء الفقه به والعلم .

فصل

القرآن نصفان وهو ثلاثة أثلاث وهو أربعة أرباع ، وهو خمسة أخماس ، وهو

ستة أسداس ، وهو سبعة أسباع ، وهو ثمانية أثمان ، وهو تسعة أتساع ، وهو عشرة أعشار ، وهو ستمائة عاشر ، وهو عشرون عاشرا ، وهو ستون جزءا، وثلاثون جزءا، وثمانية وعشرون جزءا ، وكل ذلك مكتوب فى كتب القرآن إن شاء اللّه .

فصل

الدّمشقى قال: عدّ رسول اللّه ﷺ القرآن فى المدنى والكوفى والشامى ، مائة وأربعة عشر سورة بالمعوّذتين ، وعد آياته فى المدنى ستة آلاف ومائتين وسبع عشر آية ، وفى الكوفى ستة آلاف ومائتين وسبع وثلاثين آية ، وفى الشامى ستة آلاف ومائتين وستة وعشرين آية ، وهو تسعون ألف كلمة وستمائة وأربع وعشرون كلمة .

عمر بن الخطّاب رضى اللّه عنه . قال النّبى ﷺ: القرآن ألفا ألف وسبعة وعشرون ألف حرف ، فمن قرأه صابرا محتسباً كان له بكلٍ حرف زوجة من الحور العين ، وفى رواية أن عدد حروفه ثلثمائة ألف حرف وخمسة وعشرون ألفا وثلثمائة وخمسة وأربعون حرفا ، وقد ذكرت عدد كل حرف ، ما أنزل بمكة أوّله ، اقرأ باسم ربك الذى خلق ، ثم نون والقلم ، ثم المزمل ، ثم المدثر ، ثم تبت ، ثم إذا الشمس كورت ، ثم سبح اسم ربك الأعلى ، ثم واللّيل ، ثم الفجر ، ثم الضحى ، ثم ألم نشرح ، ثم العاديات ، ثم والعصر ، ثم إنا أعطيناك ، ثم ألهاكم ، ثم أرأيت ، ثم الكافرون ، ثم ألم تر كيف ، ثم الفلق ، ثم الناس ، ثم قل هو اللّه أحد ، ثم والنجم ، ثم عبس ، ثم إنا أنزلناه ، ثم والشمس وضحاها ، ثم البروج ، ثم والتين ، ثم

لإيلاف ، ثم القارعة ، ثم لا أقسم بيوم القيامة ، ثم الهمزة ، ثم المرسلات ، ثم ق والقرآن ، ثم أقسم بهذا البلد ، ثم والطارق ، ثم اقتربت ، ثم ص ، ثم المص ، ثم قل أوحى ، ثم الفرقان ، ثم فاطر ، ثم كهيعص ، ثم طه ، ثم الواقعة ، ثم الشعراء ، ثم النمل ، ثم القصص ، ثم سبحان الذى أسرى بعبده ، ثم يونس ، ثم هود ، ثم يوسف ، ثم الرعد ، ثم الأنفال ، ثم الصافات ، ثم لقمان ، ثم سبأ ، ثم تنزيل الكتاب ، ثم حم المؤمن ، ثم حم السجدة ، ثم حم عسق ، ثم الزخرف ، ثم الدخان، ثم حم الشريعة ، ثم الأحقاف ، ثم والذاريات ، ثم الغاشية ، ثم الكهف ، ثم النحل، ثم نوح ، ثم إبراهيم ، ثم الأنبياء ، ثم المؤمنون ، ثم الم تنزيل السجدة، ثم الطور ، ثم تبارك الذى بيده الملك ، ثم الحاقة ، ثم سأل سائل ، ثم عم يتساءلون ، ثم والنازعات ، ثم انفطرت ، ثم انشقت ، ثم الروم ، ثم العنكبوت ، ثم المطففين ، فجميع ما نزل بمكة خمس وثمانون سورة وما نزل بالمدينة البقرة ، ثم آل عمران، ثم الأحزاب ، ثم الممتحنة ، ثم النساء ، ثم إذا زلزلت ، ثم الحديد ، ثم الذين كفروا، ثم الحجر ، ثم الرحمن ، ثم هل أتى ، ثم الطلاق ، ثم لم يكن ، ثم الحشر ، ثم الفتح ، ثم النور ، ثم الحج ، ثم المنافقون ، ثم المجادلة ، ثم الحجرات ، ثم التحريم ، ثم الجمعة ، ثم التغابن ، ثم الحواريون ، ثم المائدة ، ثم التوبة ، وهى آخر القرآن ، وآخر القرآن « لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيز عليه » إلى آخر السّورة .

وقال مقاتل بن سليمان : وآخر ما نزل من القرآن يوم الجمعة ، يوم عرفة والنّاس وقوف بعرفات رافعى أيديهم فى الدعاء « اليوم أكملت لكم دينكم » فلم ينزل بعدها حرام ولا حلال ولا حكم ولا حدود ولا فريضة غير اثنتين من سورة النساء فى آخرها قوله تعالى « يستفتونك » إلى آخرها وعاش النبى ﷺ . إحدى وثمانين

ليلة، ثم توفى يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأوّل ، وهذا ما نزل بالمدينة والله أعلم .

وفاتحة الكتاب قيل أنها مدنية وقيل مكية .

فصل

عن الضحاك قال كل ما فى القرآن يأيها الناس فإنه نزل بمكة وكل ما كان يأيها الذين امنوا فإنه نزل بالمدينة، ابن عباس: كل ما كان فى القرآن وأخذ الذين ظلموا الصّيحة ، يريد صيحة جبريل ﷺ وكل بخس فى الكتاب عز وجل نقصان إلا قوله تعالى وشروه بثمن بخس ، فإن هذا حرام ، وذلك أن ثمن الحر حرام ، هشام ابن عروة عن أبيه قال : ما كان من الأمثال والقرون وذكرت فيه الأمم والقرون والأنبياء فهو ما نزل بمكة ، وكل شيء من الفرائض والحدود والجهاد فهو بالمدينة ، وقالوا كل ما كان من صنعة الله تعالى فهو السُّد وما كان من صنعة بنى آدم فهو السد بالفتح ، وقيل كل ما كان من الرجفة فهو فى دارهم، وما كان من الصيحة فهو فى ديارهم ، قال المفضل قال الفراء وسفيان بن عيينة كل ما كان فى القرآن من قوله تعالى وما أدراك فقد أدراه ، وما كان ما يدريك فلم يدره ، والله أعلم بذلك ، قال فأما أنا فما مخرجهما عندى إلا على التعظيم والتعجب .

فى التأويل والتفسير

اختلف الناس فى معنى التأويل فقال قوم هو التفسير بعينه وقال آخرون بل هو

غير التّفسير ، وحكى عن ثعلب عن ابن الأعرابى أنه قال التأويل والتفسير والمعنى كله سواء ثم قال : هو معرفة الحقائق والحقيقة والعاقبة . وأنشد:

وللنوى بعد يوم البين تأويل

أى عاقبة ، وقال غيره التأويل غير التفسير وإنما التفسير ما ترويه العامة عن التفسير ، وقالوا هذا تفسير القرآن ولم يقولوا هذا تأويل القرآن ، وإنما التأويل معان غامضة لا يعلمها إلا العلماء المتقون ، قال وتأويل كل شيء ما يبدو فى آخره وما يكون من عواقبه ، هكذا هو فى لغة العرب قال الأعشى :

على أنها كانت تأول حبها   تأول ربعى السقاب فأصحبا

قال أبو عبيدة: تأول حبها أى عاقبة حبها أى عاقبته وترجعه أى كان صغيرا فى قلبه فلم يزل يتمنى حتى أصحب السقب إذا سعى حتى يصير مثل أمه فلم يزل يتربى مع أمه حتى أصحب ، كأنه أراد أنه مأخوذ من آل يئول إليه فالتأويل على ثلاثة أوجه هو أثر الشيء مفيد منتهاه ، وهو تفسير الشيء الذى يراد به وما يصير إليه أمره ، وتأويل الرؤيا من ذلك وهو من الأعمال العقوبات ، وهو آخر أمرها والأصل واحد ، وعن مجاهد فى قوله تعالى عز وجل « هل ينظرون إلا تأويله » أى هل ينظرون إلا بيانه ومعانيه وتفسيره ، وقال آخر أمره ومنتهاه ، يقال تأول تأولا وآل يؤول أولا إذا انتهى ، وعن مجاهد فى قوله تعالى « نبئنا بتأويله » ، قال به ، وقال أبو عبيدة تأويل الرؤيا هو الشيء الذى يئول إليه . وأنشد غيره لحميد بن ثور :

فقلت على الله لاتدعونها   وقد أوليا أن اللقاء قريب

وقوله يصف ظبيتين مرتا به فتيمن بهما فنهى صاحبه عن رميهما ، وقوله

أولياء أى فسرتا لنا العاقبة وإنما اعتاف بمرهما فزجرهما وتيمن بهما فصار عاقبة يدل على أن اللقاء قريب ، فكان التأويل هو الشيء الذى يرجع إليه الإنسان من معنى التنزيل ، فيكون فيه نجاته من الشك والتشبيه ، ويصير ملجأ وموئلا ، قد آل إليه ، والتأويل هو التفعيل من الأول يقال تأول أى تفعل من الأول كأن الناظر فى الشيء والمناوله يعتبر به فيعرف حقيقته كيف كان أوله أو إلى ما يعود آخره، قال الله عزّ وجل ﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ أى أوله إلى مآله خلق وعودة إلى مأمنه بدءا، لأن العواقب تعود إلى الأوائل ، قال الله عزّ وجل ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ والكلام فى هذا يطول ، والتفسير والفسر واحد وهو بيان وتفصيل الكتب والتفسير ، اسم للبول الذى ينظر إليه الأطباء يستدل به على مرض البدن ، وكل شيء يعرف به تفسير الشيء فهو تفسير ، وفى التفسير أيضا عنِ ابن عباس قال: تفسير القرآن على أربعة وجوه ، تفسير يعلمه العلماء وتفسير يعرفه العرب وتفسير لايعذر أحد بجهالته وتفسير لا يعلمه إلا الله عز وجل ، فمن ادعى علما فهو كاذب .

والقرآن هو من علم الله وعلم الله لم يزل وهو غير محدث ، قال سليمان بن الحكم أبو مروان وأبو زياد الوضاح بن عقبة وهاشم ومعلى بن منير وغيرهم لا تقول القرآن مخلوق وتقول هو كلام وتقف عمّن يقول إن القرآن مخلوق وقوف مسألة.

* مسألة : وقال محمد بن محبوب : من قال القرآن مخلوق ، وقد تقدمت له ولاية لم يقطع ما لم يبرأ ممن لا يقول أن القرآن مخلوق فإذا برىء ممن لا يقول أن القرآن مخلوق برأى برينا منه بدين ، وإذا قال أن القرآن مخلوق ولم يبرأ ممن لم يقل بقوله فإنه يجفى، وقال هذا مما يسع جهله ، وقال قوم من أصحابنا أن القرآن كلام الله وأنه غير مخلوق وبهذا تقول الأشعرية ، ووقف من وقف من الناس عن

ذلك الاختلاف كثير .

* **مسألة** : فإن قال قائل : لم قلتم أن كلام الله تعالى صفة من صفاته وأنه غير مخلوق ولا محدث ؟ قيل له قلنا ذلك لأنه قال تعالى فى كتابه ، إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ، فخبر تعالى أنه يكون الأشياء بقوله كونى فلو كان قوله تبارك وتعالى مخلوقا لكان يحتاج إلى قول آخر ، وكل قول يحتاج إلى قول ، وفى ذلك إيجاب أقوال لا تتناهى ، وإذا استحال ذلك من قولنا وقول مخالفينا كان قوله تعالى للأشياء كونى غير مخلوق فهذا دليل على أن كلام الله تعالى غير مخلوق .

* **مسألة** :فإن قال إذا كان الكلام أمراً ونهياً ووعدا ووعيدا وخبرا ودعاء وما أشبه ذلك ثم زعمتم أن كلام الله غير مخلوق ، وأنه قد تم فلم يزل الله تعالى آمراً ناهيا مخبراً قالوا هذا يجب أن يكون المأمور والمنهى والموعد والمتوعد لم يزل الله قائلا لهم ، وإذا استحال ذلك وجب أن يكون الله تعالى قال بعد أن لم يكن قائلا ومتكلما بعد أن لكم يكن متكلما، قالوا: وهذا أدل دليل فى خلقه .

والجواب عن هذا من الأشعرية أنهم قالوا إن الكلام يكون كلاماً لنفسه لعلّة نهيا لعلة وكلام الله تعالى هو غير مخلوق يسمى أمراً لعلة وجود المأمور وورود الإفهام له وهو كلام لنفسه ، وقد قال تعالى ، مايكون من نجوى ثلاثة إلاّ هو رابعهم ولا خمسة إلاّ هو سادسهم ، فقد أخبر عن نفسه جلّ وعزّ ، أنه سادس ستّة من أجل وجود الخمسة ، وكذلك هو ثالث ثلاثة من أجل حدوث النّفسين اللذين خلقهما ، وكذلك كلامه أمراً لعلّه وجود الإفهام ووجود المأمور فنحن نقول لم يزل الله تعالى

متكلما آمراً إذا كان المأمور وورود الإفهام له وإلزام الفرض له عند وجوده ، ومثله ما نحن وهم عليه أن الله تعالى لم يزل عالما لأنه سيخلق الدنيا فإذا أوجدها قيل أنه عالم لأنها مخلوقة والعلم لأنها مخلوقة هو العلم لأنها ستخلق والمعلوم متغاير . وعلم البارى تبارك وتعالى لا يتغير، وكذلك كلامه غير متغاير وما تحته من المأمور والمنهى يتغاير ، وهذا جواب الأشعرية .

* **مسألة** : فإن قال أليس قال الله تعالى « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث » الآية . أليس قد سمى محدثا وكل محدث مخلوق ؟ قيل له : فى هذا أجوبة كلها مبطلة لفاسد تأويلكم ، منها أن بعض أهل التّفسير : ذكر أن معنى الذكر هو محمّد ﷺ . وهو محدث مخلوق فلا حجّة لكم فى هذا ، ومنها أن معنى الذكر هو العبارة والتلاوة عن الشيء ، والعبارة عن الشيء هو غيره كما أن الله تعالى معبود مذكور فعبادته مخلوقة ، والمعبود غير مخلوق. وذكره ودعاؤه مخلوق والمدعو أو المذكور غير مخلوق ، ومنها أن معنى محدث هو محدث تنزيلا وقراءة وتلاوة فكلام الله تعالى لا يختلف وإنما يختلف ويتغاير قراءته وتلاوته فالإحداث لتلاوته المتغايرة والحروف المكتوبة إلى الأنبياء نبيا بعد نبيّ فإنما هو محدث إليهم لا أنه خلق كلامه فى ذاته ثم أنزله بعد خلقه لأنه ليس بمحل تعالى عن ذلك علّوا كبيرا .

* **مسألة** :فإن قال أليس القرآن فى مصاحفنا ونتلوه بألسنتنا فإن قلتم لا حرفتم الإجماع وإن قلتم نعم فكيف يكون ما هو فى ألسنتنا ومصاحفنا غير مخلوق، قيل له إن الله تعالى فى مصاحفنا وألسنتنا متلوة ومقروءة غير مخلوق كما أنكم تقولون إنه تعالى معبود فى قلوبنا ومذكور بقلوبنا ، والمعبود ليس كمثله شيء ،

كذلك القرآن متلو بألسنتنا والمتلوّ هو كلام الله غير مخلوق .

* **مسألة :** فإن قال قائل أليس القرآن سطورا معدودة له نصف وربع وسبع فكيف لا يكون مخلوقا . قيل له : أما علمتم أن القرآن غير المقروء ، والمقروء كلام الله تعالى ، فأما قراءته فضم بعض الآى إلى بعض ، وهذا من قولنا وقولكم إنما هو على المجاز لأن القراءة التى هى كلام القارئ عرض والأعراض غير منضم بعضها إلى بعض ، ولكن إذا كانت القراءة على هذا الضرب من الترتيب فقد تقول العرب مضموماً والمقروء غير مضموم ، وهو كلام الله تعالى كما أنا وإياكم، فقد اتفقنا أن عبادة اللّه مخلوقة والمعبود مخلوق .

فصل

المعتزلة وأهل البدع فى كلام البارى تعالى ضربان فمنهم من يقول أن الذى يسمع من الإنسان شيئان ، يسمع كلام اللّه عزّ وجل ويسمع قراءته ، وكلام الله عندكم يؤخذ بالتلاوة والحفظ والكتابة ليس هو حفظه ولا تلاوته ولا كتابته ، قال الأشعرية، يقال فإذا وجد كلام اللّه الذى هو صفة له بعد أن لم يكن موجودا إلا بمعنى انتقل ولا حدث بعد أن لم يكن فما أنكرتم من وجود سائر الأعراض بعد أن لم يوجد لا بمعنى النقلة ولا الحدوث، وأن تكون الأعراض كلها قديمة وإن تكن كامنة ثم ظهرت لا بمعنى الحدوث ولا النقلة وهذا قول الدهرية كفر بالله العظيم ، وإن كانت التلاوة والحفظ والكتابة له هى غيره كما تقول ويقولون ثم لم يجب أن تظهر بعد أن لم تكن لها كما ظهرت تلاوته وحدثت بعد أن لم تكن فهو قولنا ، وقد

صح أنه صفة لله تعالى قائمة به كعلمه وقدرته وسمعه وبصره ، فهذا اللازم للبصريين أهل القدر ، وأما البغداديون فيقولون أن كلام الله قائم باللوح المحفوظ وفي صدور الملائكة ، وهذا باطل من قبل أن كان القرآن عرضا من قولهم قائم فى اللوح والأعراض غير باقية فالبارى يخلق مثله فى كل وقت ، ولم يقل بذلك مسلم ، وإذا بطل ذلك بطلت المسألة من كل وجه ، ومن كل مذهب يذهب أهل القدر إليه.

احتجاج : احتجّ بعض من نفى خلق القرآن بقوله عز وجل « الم تنزيل الكتاب لاريب فيه من ربّ العالمين » فهذا يدل على أن القرآن غير مخلوق ، وشيء يكون منه كيف يكون مخلوقا .

* **مسألة** : الدليل على أن كلام الله تعالى غير محدث ولا مخلوق أنه لو كان محدثا لكان لا يخلو أن يحدثه فى نفسه أو فى غيره أو لا فى نفسه أو لا فى غيره ، فلما لم يجز أن يحدثه فى نفسه لأن نفسه ليست محلا للحوادث ولا المخلوقات ، ولأن ما قامت به الحوادث فهو محدث. ولم يجز أن يخلقه فى غيره فيكون كلام غيره هو كلامه أو يكون المتكلم بكلامه غيره ، ولم يجز أن يخلقه لا فى نفسه ولا فى غيره لأن الصفة لا تقوم بنفسها والقرآن صفة ، فلما فسدت هذه الوجوه ولم تجز وجب أن كلامه عز وجل موجود أنه سبحانه وتعالى غير مخلوق ، وأيضا فلا يكون خلاف بين أحد أن اللّه تعالى المتكلم كما أنه هو العالم ، وإذا كان اللّه تعالى العالم لذاته ، وإذا كان الإجماع على أنه العالم المتكلم صح أنه لم يزل العالم المتكلم ، وعلى من ادعى الفرق بين الكلام والعلم الدليل على حدوث أحدهما ، وباللّه التوفيق.

باب
فى أحكام القرآن

طعن قوم من الملحدين فى القرآن لاختلاف القراءة واختلاف أهل العلم فى قول الرسول ﷺ : أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف ، فلا معنى لطعن الملحدين فى هذا الوجه لأنهم ذهبوا من الاختلاف إلى التناقض فلم يجدوا ذلك بحمد اللّه، وليس بمستحيل أن ينزل الحكيم كلاما لحفظه ودرسه ويبيح فى قراءته الوجوه الصّحيحه ، وتفسير قول النبّى ﷺ أنزل القرآن على سبعة أحرف ، قال بعض أهل العلم بالقرآن ذهب إلى أن سبعة الأحرف وعد ووعيد وحرام وحلال ومواعظ وأمثال واحتجاج ، وقال بعضهم حلال وحرام وأمر ونهى وخبر ما كان قبل وخبر ما كان بعد وأمثال ، وقال قوم : هى سبعة أوجه من اللغات متفرقة فى القرآن لأنه لا يوجد فيه حرف قرئ على سبعة أحرف ، وقال بعضهم هى سبع لغات فى الكلمة ، وقد تكلم أهل العلم فى هذا المعنى وأكثروا وبينوا معانى قولهم بالاحتجاج الصحيح ، وهو معروف فى آثارهم ، وكل قد قال فيه بما يحتمل جوازه ، ألا ترى أن الألفاظ قد تختلف ولا يختلف المعنى لاختلاف الألفاظ والاختلاف فرعان ، اختلاف تغاير واختلاف تضاد لا يجوز وليست واحدة والحمد للّه فى شىء من كتاب الله تعالى إلا فى الأمر والنهى من النسخ والمنسوخ واختلاف التغاير جائز فى ذلك .

قوله تعالى : وادكر بعد أمة ، بضم الألف والتشديد أى بعد حين ، وبعد أمه بفتح الألف والتخفيف أى بعد نسيان وأشباه لهذا كثير .

فى الناسخ والمنسوخ: الناسخ على ثلاثة أوجه وجهانِ منها عند العامة فأحدهما انتساخ الشيء من كتاب كان قبله إلى كتاب آخر ، والآخر نسخ الشيء وتحويله ، والثالث أن تحصى الشيء على عامله ، ونحو قوله عز وجل : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » يريد والله أعلم إنا كنا نحصيه عليكم ، فأما انتساخ الكتاب كان قبله إلى كتاب آخر بعده فقد أخبرنا الله تعالى عز وجل أن القرآن فى لوح محفوظ ، بقوله تعالى : « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » ، وبقوله عز وجل : « يمحو اللّه ما يشاء ويثبت وعنده أمّ الكتاب » وإذا كان القرآن فى أم الكتاب ، ثم أنزله على محمّد ﷺ . فإنما أنزل نسخة ما فى ذلك اللّوح المحفوظ وذلك عند اللّه في موضعه ، وقد روى عن النبّى ﷺ أنه ذكر يوما حديث أوان نسخ القرآن، فقال رجل كالأعرابى: يا رسول اللّه ما ينسخ أو كيف ينسخ فقال عليه السلام يذهب بأهله ويبقى رجال كأنهم النعام يعنى حلة الطير ، قال اللّه تعالى «ما ننسخ من آية أو ننسها» الآية ، يعنى خيرا منها لكم أو مثلها فى العمل والفضل أو ننسها فيتركها على حالها. والله أعلم ، وقال قوم أو ننسها فلا تقرأ على وجه الدهر أى ننهى عن قراءتها فلا تقرأ حتى ننسى .

فصل

النسخ لا يقع إلا فى الأمر والنهى ولن يجوز ذلك فى الخبر لأنه لا يجوز أن يقول الصادق جل ذكره لشيء أنه يكون ثم يقول أنه لا يكون ، وكذلك فى الماضى للأن هذا ما لا يجوز على الله سبحانه وتعالى والأخبار ثابتة بهيئتها والنسخ لها غير

جائز عليها لأن الحكيم لا يخبر إلا وهو عالم بما أخبر عنه وعلى المخبر به منه فمخبرات الله تعالى صحيحة وأخباره صادقه فصيحة ولا نسخ له ولا بداء، مع علم العواقب، كان الوعد والوعيد من الله تعالى واجباً كذلك ، والناسخ ما قام حجته في المأمور به المنهي عنه ، فقيام حجة منسوخة قبل ناسخة لأن الحكيم من صفته تعالى أن لا يلزم أمره إلا بحجة تقطع بها عذر المأمور به ولا حجة على الله تعالى لخلقه ، وقال جابر بن زيد من زعم أن الوعيد منسوخ بقوله تعالى ، إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، فقد كذب لأن الناسخ والمنسوخ في الأمر والنهي أن يأمر عباده بأمر ثم يخفف عنهم أو ينهى عن أمر ثم يرخص لهم فيه ، فالله عز وجل لم ينسخ الأخبار وإنما نسخ الأحكام ، واختلف في هذا الباب اختلافا كثيرا ، قال قوم إن المنسوخ ما رفع تلاوته وتنزيله كما رفع العمل به ، وقال آخرون إن النسخ لا يقع في قرآن قد تلي وحكم بتأويله النبيّ ﷺ . ولكن ما أنزل الله تعالى منه في حكمه من التفسير الذي أزاح عنهم ما قد كان يجوز أن يمتحنهم به من الأمور العظام والأمور الشداد التي تعبد بها من كان قبلهم من الأمم. وهرب هؤلاء من أن يقولوا أن الله تعالى ينسخ شيئا بعد نزوله والعمل به ، وزعموا أن من وصف الله تعالى بذلك فقد وصفه بالبداء، وقال آخرون إنما الناسخ والمنسوخ هو نسخ من اللوح المحفوظ الذي هو أم الكتاب والنسخ لا يكون من أصل ، وقال آخرون : بل يجوز أن ينسخ قرآنا أنزله بأن يبدل به آية أخرى بضد ما نزلت به الأولى فتتلى الآية كما كانت تتلى ويكون العمل على الأخرى ، وقد يجوز أن يرفع الله تعالى تلاوة الأولى كما رفع العمل بها. واختلفوا في وجه آخر قال قوم لا ينسخ القرآن إلا بقرآن مثله ، وقال آخرون بل السنة تنسخ القرآن ، والقرآن لا ينسخ السنة ،

وقال آخرون: بل السنة إذا كانت من طريق الوحى وإن لم يكن ما أوحى به فيها قرآنا فإنها تنسخ القرآن ، وإذا كانت على طريق الاجتهاد والرأى فإنها لا تنسخ بل لم يكن النبّى ﷺ ليجتهد فى أمر فيحكم بخلاف ما فى القرآن ، قالوا والقرآن ينسخ السنة عن أمر الله أو باجتهاد من النبّى ﷺ . وهو التفسير من السّنة إنما يحتاج إليه من يجيز الاجتهاد ، فأما من أبى ذلك فإن السّنة عنده لا تكون إلا بأمر الله جل ذكره ، والسنة عنده تنسخ القرآن والقرآن ينسخ السنة .

قال أبو محمّد رحمه اللّه: والنظر يوجب أن القرآن والسنة حكمان لله تعالى ينسخ كل واحد منهما بالآخر ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى* إن هو إلاّ وحىٌ يوحى ﴾ ، فأخبر جلّ ذكره أن الكل من عنده وبأمره ، واختلفوا فى ذلك من وجوه أخر فزعم قوم إلا الآيتين إذا أوحيتا حكمين مختلفين وكانت إحداهما متقدمة للأخرى فالمتأخرة ناسخة للأولى كقوله تعالى ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين ﴾ نسخه قوله عزّ وجلّ بعد ذلك ﴿ فلأبويه لكل واحد منهما السدس ﴾ وقال تعالى ﴿ فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمّه الثلث ﴾ فالآخرة ناسخة للأولى ، ولن يجوز أن يكون لهما الوصية والميراث ، وقال آخرون بل ذلك جائز وليس فى الآيتين ناسخ ولا منسوخ وإنما نسخ الوصية للوارث بسنة الرّسول ﷺ . قالوا فالناسخ لا يكون إلا ما يجوز اجتماعه والمنسوخ فلا يحكم بهما فى حال واحدة على إنسان واحد ، والنظر يوجب عندى أن الوصية للوالدين والأقربين غير منسوخ وقول النبّى ﷺ : لا وصية لوارث، ليست بنسخ لها وإنما هو بيان لحكمها لأنه من ليس بوارث من والدين وأقربين فالوصية لهم واجبة. ومن لم يقل أنها واجبة فعنده أنها جائزة فهذا يدل على أن النبى ﷺ

بين أن الوصية لا يجب لمن كان وارثا . والله أعلم .

واختلفوا فى ذلك من وجه آخر فقال قوم الناسخ والمنسوخ قد يكون فى وصف الله تعالى والثناء عليه ، وفيما ليس بأمر ولا نهى من الخبر وغيره ، وقال قوم ممن لا يلتفت إلى قولهم إلا أنهم على حال ينسبون إلى أهل القبلة أن الأئمة المنصوص عليها مفوض إليها بزعمهم نسخ القرآن وتبديله. وتجاوز بعض وأفرط حتى خرج من الدين بقوله أن النسخ يجوز على البداء ، وهو أن يأمر الله بالشّىء ، وهو لا يريد فى وقت أمره أن يغيره ولا يبدله ثم يبدو له فيغير ذلك ويبدله وينسخه جل ذكره ، فتعالى عما قالوا ، وعندهم أنه لا يعلم الشىء حتى يكون ما بقدره فيعلمه على تقديره، وزعم قوم ممن يدعى علم القرآن أن ما أنزل بالمدينة ناسخ لما نزل بمكة ، وهذا غلط عندى كما ذكرنا من أن النسخ لا يكون إلا فى الأمر والنهى لأنه قد يجوز أن يكون مانزل بمكة ناسخا فى تقدمه فى النزول بها ، كذلك القول فيما نزل بالمدينة وعلى هذه الأقاويل واختلافها احتجاجات تركتها للاختصار. والذى عليه جل فقهاء أصحابنا أن القرآن ينسخ القرآن وينسخ بالسنة كما أن السنة تنسخ بالسنة ، وقد وجدت لبعض أصحابما أن السنة لا تنسخ بالقرآن ، ولعل هذا مذهب البصريين ، وحجة هؤلاء أن القرآن لا يعلم نسخه إلا بخبر من الله تعالى عز وجل أو الرسول ﷺ أو يقوم إجماع الأمة على النسخ أو تقوم دلالة من نفس الخطاب ولم تقم دلالة من هذه الوجوه .

والحجة لمن أجاز نسخ القرآن بالسنة أن القرآن حكم الله تعالى والسنة حكمه ينسخ أحدهما بالآخر، واحتجوا بقوله تعالى « وما ينطق عن الهوى * إن هؤلاء وحى يوحى » والكتاب دل على أنه يخبر عن الله جل ذكره فهو ينسخ أحكامه

بعضه ببعض مرة بالكتاب ومرة على لسان رسوله ﷺ والله أعلم بالأعدل من القولين .

فصـــل

أصل النسخ فى اللغة هو النقل. نسخ الكتاب إذا نقل ما فيه إلى كتاب آخر وكأن المنسوخ من القرآن هو ما نقل حكمه من آية إلى آية فصارت الأولى منسوخة والآخرة ناسخة فالمنسوخة مفعول بها والناسخة الفاعلة لأن الآية ناقلة للحكم إلى نفسها وقال السيد بن محمد فى بنى هاشم :

ولم تزالوا بعين الله ينسخكم   فى مستكنات أصلاب الأبرينا

ينسخكم معناه ينقلكم من صلب إلى صلب، ومنه قيل لقوم من أصحاب التناسخ لأنهم زعموا أن الأرواح تنقل من جسم إلى جسم، فهذا هو التناسخ. وعن بعض الهاشميين أن الناسخ والمنسوخ على ضربين: منسوخ هو منسوخ لا يعمل به،وهو ما كان عليه أهل الجاهلية مثل الجمع بين الأختين ونكاح نساء الآباء وغير ذلك نزل القرآن بتحريمه ونسخه، فهو منسوخ لايعمل به. ومنسوخ على جهة التخفيف مثل قوله تعالى « اتقوا الله حق تقاته » فهو جائز له وما أشبهه فهو مثله. والمسلمون يعملون بالمحكم الناسخ ويؤمنون بالمنسوخ ، ولا يعملون « ويقولون كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب» ومن كان على ناسخ من القرآن أو السنة ثم نسخ ولم يعلم فهو على ما كان عليه من التعبد حتى يقوم له الدليل أنه منسوخ ، وعن بعض قومنا وهو الحسن بن محمد الحدى: النسخ وهو النهى عن امتثال ما ورد الأمر به أو الأمر بامتثال ما ورد النهى عنه، وقيل التخصيص بيان الأعيان والنسخ بيان الأزمان. ما نسخ من البقرة أول ما نسخ فيما يذكر من أمر القبلة كان النبى ﷺ

يصلى هو وأصحابه قبل الكعبة ركعتين بالغداة وركعتين بالعشى فلما عرج به إلى السماء وهو بمكة أمر بالصلوات الخمس وكان يستقبل الكعبة ووجهه نحو بيت المقدس، وذلك قبل مخرجه بسنتين فصارت الركعتان للمسافر وصار للمقيم أربع ركعات فلما هاجر ﷺ إلى المدينة لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يصلى نحو بيت المقدس لئلا يكذبه أهل الكتاب إذا صلى إلى قبلتهم مع ما يجدون من نعته فى التوراة فصلى ﷺ وأصحابه أول مقدمه إلى المدينة نحو بيت المقدس سبعة عشر شهرا، وصلت الأنصار سنتين قبل هجرته ﷺ وذلك قوله عز وجل « ولله المشرق والمغرب » الآية فصارت الكعبة أحب القبلتين إليه ﷺ فنسخ القبلة الأولى «قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلةً ترضاها » فصارت القبلة إلى بيت المقدس منسوخة بهذه الآية، ونزلت فى رجب قيل قبل بدر بشهرين وصارت الكعبة قبلة المسلمين إلى يوم تقوم الساعة، وقال تعالى « ودّ كثير من أهل الكتاب » إلى قوله عز وجل « فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره » نسختها الآية التى فى براءة « قاتلوا الذين لايؤمنون بالله » الآية وقيل كل شىء فى القرآن فتول عنهم وأعرض عنهم واصفح عنهم وما أنت عليهم بحفيظ ، ولست عليهم بمسيطر وما أنت عليهم بجبار، وما جعلناك عليهم حفيظا، وكل ما أشبه هذا فهو منسوخ نسخته آية السيف فى براءة « اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » وقال ابن عباس نسخ نقض المواثيق كلها سورة براءة، وكل شىء فى القرآن« قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم » نسخه الآية التىْ فى الفتح « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » وقال عز وجل «ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » نزلت قبل إقبال بدر بشهرين يعنى فرض عليكم كما فرض على أهل

الإنجيل أمة عيسى ﷺ وكان الصوم الأول من صلى العشاء الآخرة حرم عليه ما يحرم على الصائم بالنهار إلى مثلها من القابلة بعد غروب الشمس ، فاشتد ذلك الصوم على المسلمين فنسخ ذلك « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » الآية ونزلت الرخصة فى الجماع بعد الصلاة وبعد النوم فى عمر بن الخطاب رحمه الله ، ونزلت الرخصة فى الطعام والشراب بعد الصلاة وبعد النوم فى صرمة بن أنس الأنصارى، وذلك أن عمر جامع أهله بعد صلاة العشاء فلما فرغ ندم وبكى فلما أصبح أتى النبى ﷺ فأخبره وقال يارسول الله إنى أعتذر إليك من نفسى هذه الخاطئة واقعت أهلى بعد الصلاة فهل تجد لى من رخصة؟ قال: لم يكن جديراً بذلك ياعمر ، فرجع عمر حزيناً وأتى النبى ﷺ صرمة بن أنس عند المساء قد أجهده الصوم فقال يا أبا قيس مالك أمسيت طليحا؟ قال يارسول الله ظللت نهارى أمس فى حديقتى فلما أمسيت أتيت أهلى فأرادت المرأة أن تطعمنى شيئا سخنا فأبطأت على بالطعام فأيقظتنى وقد حرم على الطعام فأمسيت وقد جهدنى الصوم واعترف رجال من المسلمين بما كانوا يصنعون بعد صلاة العشاء وبعد النوم فقالوا للنبى ﷺ ما يؤتينا ومخرجنا مما صنعناه ، فأنزل الله عز وجل « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب » فأعلمهم يامحمد أنى قريب منهم فى الاستجابة فليستجيبوا لى بالطاعة وليؤمنوا بى وليصدقوا أنى قريب أجيبهم لعلهم يرشدون أى يهتدون. ثم نزلت فى عمر «أحل لكم ليلة الصيام» الآية، وأنزل فى صرمة بن أنس « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود » الآية فصار ما كنا محرماً من الطعام والشراب والجماع بعد صلاة العشاء وبعد النوم محللاً لهم الليل كله. وأتى لبيد من بنى عبد الأشهل الأنصارى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله ما

على من عجز عن الصوم؟ وكان شيخا قد كبر فنزلت ، وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ، لرجل نصف صاع من حنطة كل يوم ، ثم قال تعالى ، فمن تطوع خيراً فهو خير له ، فزاد على مسكين واحد فأطعم مسكينين أو ثلاثة مكان يوم فهو خير له من أن يطعم مسكينا واحدا ، وأن تصوموا خير لكم، من الطعام إن كنتم تعلمون، وكان هذا فى الصوم الأول كانوا بالخيار من الطعام المسكين أو الصوم ثم حولهم عن الخيار وأثبت الصوم على من يطيق الصوم ، وليس بمريض ويشهد شهر رمضان فى أهله. فصارت فدية طعام مسكين منسوخة نسختها ، شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، فأوجب الصوم على من يطيقه وشهد شهر رمضان فى أهله وثبتت الرخصة للمريض والمسافر فقال عز وجل ، فمن كان منكم مريضاً أو على سفر ، فلم يصم فإذا برئ المريض من مرضه ورجع المسافر من سفره فليصم عدة من أيام أخر. وقال عز وجل ، يسألونك ماذا ينفقون ، نزلت هذه الآية قبل أن تنزل الزكاة فصارت منسوخة نسختها آية الصدقات فى براءة ، إنما الصدقات ، يقول زكاة الأموال المفروضة للفقراء والمساكين الآية. وقال عز وجل ،يسألونك عن الخمر والميسر، الآية فأما المنافع فالتجارة والفضل الذى يغنمه المقامر فى الميسر قدمهما ولم يجزهما ، وكان المسلمون يشربونها ثم نسختها ، ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر ، وصار كل آية من المسكر والخمر منسوخة بهاتين الآيتين فى المائدة، وقال عز وجل ، ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ، فكن حراما كلهن على كل مسلم واستثنى منهن نساء أهل الكتاب وثبت تحريم المشركات من غير أهل الكتاب وقال عز وجل ، إن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ، الآية وصارت منسوخة بالآية التى بعدها ، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، فقال النبى ﷺ فيما زعموا عند

ذلك إن الله تجاوز عن أمتى ماحدثوا به أنفسهم ما لم يعملوا أو يتكلموا به. ومن آل عمران قوله عز وجل « يأأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته » وحق تقاته أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، وقال تعالى فى سورة الحج «وجاهدوا فى سبيل الله حق جهاده » فاشتد ذلك على المسلمين ثم صارتا منسوختين بالآية التى فى التغابن « فاتقوا الله ما استطعتم » أى أطقتم، الآية، ومن النساء قوله عز وجل « وإذا حضر القسمة أولوا القربى » وذلك فى قسمة المواريث هؤلاء الأقرباء من ليس له نصيب فى الميراث نسختها آية الميراث. وعن ابن عباس أنها محكمة وليست منسوخة وقال تعالى « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم » الآية نسختها الآية التى فى النور « الزانية والزانى » وزعموا أن النبى ﷺ قال : الله أكبر الله أكبر جاء الله بالسبيل، ثلاث مرات، وقال تعالى « فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة » وهذا أمر المتعة فصارت منسوخة بآية الطلاق ، والمواريث. ومن قال إن السنة تنسخ الكتاب يقول نسخها قول النبى ﷺ «ولا نكاح إلا بولى وشاهدين» وقال تعالى « ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون » فصارت منسوخة بالآية التى فى آخر الأنفال بعد غزوة الأحزاب «وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض» الآية ومن المائدة قوله عز وجل « لا تحلوا شعائر الله » لا تحلوا أمر المناسك ولا الشهر الحرام ولاتستحلوا فيه القتال ولا الهدى ، ولا تستحلوا أخذه ولا القلائد ، ولا تخيفوا من قلد بعيرا ولاتستحلوا قتل آمين البيت الحرام من حجاج مشركى العرب ، يعنى شريحاً وأصحابه ، يبتغون بتجارتهم فضلا من الله ورزقا فى التجارة ، ثم صارت هذه الآية منسوخة بآية السيف فى براءة، قال أبو ميسرة ليس فى المائدة نسخ وقيل للحسن: نسخ فى المائدة شيء؟ قال لا. وقد وجدت فيها آيات منسوخة

والله أعلم. ومن الأنعام كل ما فى الأنعام من العفو والإمساك عن المشركين فهو منسوخ بآية السيف فى براءة وقوله تعالى « كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده » فكان المسلمون يعطون الزكاة من ثمارهم شيئاً غير معروف فنسختها آية الصدقات فى براءة، ومن الأعراف قوله تعالى « خذ العفو » فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يأخذ الصدقة من فضل أموالهم، قال ما أعطوا من فضل أموالهم وأمر بالعرف وأمرهم بالمعروف وأعرض عن الجاهلين وهو عدو الله الذى جهل على النبى ﷺ بمكة فنسخت آية الصدقات التى فى براءة العفو الذى ذكر الله تعالى. ونسخت آية السيف فى براءة الإعراض عن المشركين ومن الأنفال قوله عز وجل « ومن يولهم يومئذ دبره » الآية إنما كان ذلك يوم بدر وحده ثم نسخت نسختها « إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان » الآية وقوله تعالى « ياأيها النبى حرض المؤمنين على القتال » الآية وهو أول قتال. كان النبى ﷺ بمكة فلم يطق المؤمنون يقاتل الرجل الواحد من المؤمنين عشرة من المشركين فصارت منسوخة نسختها « الآن خفف الله عنكم » الآية. ومن براءة لما أسلمت العرب طوعاً وكرهاً فصارت آية السيف منسوخة نسختها الآية التى فى البقرة « لا إكراه فى الدين » بعد إسلام العرب، الآية فرفع السيف عن المشركين إذا أقروا بالخراج وقوله عز وجل « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » فصارت لم أذنت لهم منسوخة الآية التى فى النور « فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم » الآية وقوله تعالى «لايستأذنك الذين يؤمنون بالله » إلى قوله تعالى « فهم فى ريبهم يترددون » فصارتا منسوختين نسختهما التى فى النور « إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله » نزلت فى عمر رحمه الله وقوله تعالى «إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً »

نسختها الآية التى فى آخر براءة « وما كان المؤنون لينفروا كافة » الآية ومن هود قوله تعالى « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها » من كان يريد بعمله الصالح ثواب الدنيا وزينتها نزلت فى المشركين «نوف إليهم أعمالهم فيها» جزاء أعمالهم فى الدنيا ثم صارت منسوخة نسختها « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها »فى الدنيا ما نشاء لمن نريد المشيئة إلى نفسه «ثم جعلنا له جهنم » الآية «ومن النحل ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا» نزلت هذه الآية والخمر يومئذ حلال ، ثم صارت آية السكر منسوخة بالآية التى فى المائدة « إنما الخمر والميسر » الآية وقوله تعالى « من كفر بالله من بعد إيمانه » نزلت فى عبدالله بن سعد بن أبى سرح ونفر معه ثم استثنى فقال تعالى إلا من أكره الآية فصارت منسوخة نسختها «ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا » من بعد ما عذبوا بمكة ثم جاهدوا العدو بالمدينة وصبروا على الهجرة الآية. وإنما ارتد عبدالله بن سعد عن الإسلام لأنه كان يكتب لرسول الله ﷺ فإذا أملى عليه غفورا رحيما كتب عليم حكيم ، وإذا أملى عليه سميع عليم كتب سميع بصير ، ونحوه والنبى ﷺ ينظر إليه لا يغيره لأنه ﷺ أمى لايحسن الكتابة فشك عبدالله بن سعد فى الإسلام، فقال كتبت غير الذى قال فلم يغير على فأزاله الشيطان فألحقه بالكفر فأمر به النبى ﷺ يوم فتح مكة أن يقتل فاستجار له عثمان بن عفان وكان أخاه من الرضاعة فأجاره النبى ﷺ فلم يقتله.

ومن سورة بنى إسرائيل قوله عز وجل « إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما » الآية نزلت فى سعد بن أبى وقاص وكان قد أسلم وأمه مشركه قال تعالى « وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً » ثم صارت قل رب ارحمهما منسوخة إذا كان أبواه كافرين نسختها الآية التى فى براءة « ما كان للنبى» أى ما كان ينبغى للنبى

والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ، الآية فلا ينبغى لمسلم أن يستغفر لوالديه إذا كانا مشركين وقوله عز وجل ، ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا ، بين الخفض والرفع ، صارت منسوخة بالآية التى فى الأعراف ، اذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفةً ودن الجهر ، الآية ومن الأنبياء ، إنكم وما تعبدون من دون اللّه حصب جهنم ، الآية ثم استثنى مما يعبد هؤلاء الأربعة الملائكة ، ومريم وعيسى وعزيرا. فقال ، إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ، الآية ومن العنكبوت ، ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ، لا تجادلوهم ألبتة ثم استثنى فقال فى التقديم إلا الذين ظلموا منهم، كفار اليهود يجادلونهم بالقرآن نسختها آية السيف فى براءة. ومن الأحزاب ،إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ، الآية وكانت المتعة فريضة لكل مطلقة فصارت المتعة منسوخة إن كان فرض لها صداقاً نسختها الآية التى فى البقرة ، وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة ، ومن الجاثية ، قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام اللّه ، نزلت فى عمر رحمه الله وذلك أنه كان بمكة فشتمه رجل من المشركين فهم به عمر فنزلت ، قل للذين آمنوا، عمر يغفروا للذين لايرجون لايخشون أيام الله ، عقوبات الأمم الخالية فصارت منسوخة بآيات السيف فى براءة، اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، ومن الأحقاف ، قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ، نزلت هذه الآية بمكة ففرح كفار مكة فقالوا واللات والعزى ما أمرنا وأمره ، عبد إلهه الذى نعته إلا واحد، ولولا أنه ابتدع هذا الأمر من هواه لكان الذى بعثه يخبره بما يفعل به وبمن اتبعه ، كما فعل لسليمان وعيسى والحواريين ، وكيف أخبرهم بمصيرهم ، فأما محمد فلا علم له بما يفعل به ولابنا إن هذا من الضلال كل الضلال ، وشق

على المسلمين نزول هذه الآية فقال أبو بكر وعمر رحمهما الله: ألا تخبرنا يارسول الله ما الله فاعل بك وبنا فقال ﷺ ما أحدث إلى أمر بعد. فلما قدم النبى ﷺ المدينة قال عبدالله بن أبى رأس المنافقين كيف تتبعون رجلا لايدرى ما يفعل به ولا بمن اتبعه، هذا والله الخلاف المبين، فعلم الله عز وجل ما فى قلوب المؤمنين من الحزن، وعلم فرح المشركين من أهل مكة والمنافقين من أهل المدينة فبين الله عز وجل للنبى ﷺ ما يفعل به ومن اتبعه ، فصارت قوله « ما أدرى ما يفعل بى ولابكم» منسوخة نسختها آية « إنا فتحنا لك فتحاً مبينا » قضينا لك قضاء بينا بالإسلام نزلت بالمدينة بعد ما رجع من الحديبية « ليغفر لك الله » لكى يغفر الله بالسلام» ما تقدم من ذنبك ، ما كان فى الجاهلية وما تأخر ، وبعد النبوة وأخبره الله تعالى بما يفعل به فخرج ﷺ إلى أصحابه فقال لقد أنزلت على آية لهى أحب إلى مما بين السماء والأرض، فقرأ عليهم إنا فتحنا لك فتحا مبينا إلى آخرها فقال أصحابه هنيئا لك يارسول الله قد علمنا الآن مالك عند الله وما يفعل بك ، فما لنا نحن عندالله تعالى ، وما يفعل بنا، «فنزلت ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار» الآية فانطلق عبدالله بن أبى رأس المنافقين فى نفر من قومه إلى النبى ﷺ فقال فمالنا عندالله وما يفعل بنا؟ ونزلت «ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات» فلما سمع عبدالله بذلك قال لأصحابه يزعم محمد أن الله قد غفر له ذنبه وأن يفتح له على عدوه هيهات هيهات فإن أهل فارس والروم ، والله أشد بأساً وأكثر عدداً أن يظهر محمد عليهم ، يظن أنهم مثل العصائب التى قد نزل بين ظهرانيهم قد غلبهم بكذبه وباطله ، فنزلت فى قوله فأين فارس والروم «ولله جنود السموات والأرض » يعنى جنود السموات الملائكة والأرض المؤمنين

هؤلاء أشد بأساً وأكثر عدداً من فارس والروم، وكان الله عزيزاً حكيماً ، النصر للنبى ﷺ وأصحابه ومن سورة محمد ﷺ ، إذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم ، بالسيف فظهرتم عليهم وأسرتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد. عتق بعد الأسر وإما فداء فيفدى نفسه بماله فصارت آية المن والفدا منسوخة بآية السيف فى براءة، ومن الذاريات قوله عز وجل ، وفى أموالهم حق للسائل والمحروم ، والسائل المسكين والمحروم الذى لا سهم له فقرأ أصحاب الصفة كانوا أربعمائة رجل لم يجعل الله تعالى لهم سهما فى الخمس ولا فى الفىء يوم النضير ، فصارت المحروم منسوخة بآية الصدقات فى براءة «إنما الصدقات للفقراء» فبدأ بهؤلاء الفقراء قبل كل أحد الآية وقوله تعالى فتول عنهم فأعرض عنهم فما أنت بملوم فقد بلغت وأعذرت فلا تلام فحزن ﷺ لما نزلت هذه الآية مخافة أن ينزل بقومه العذاب فصارت منسوخة نسختها ، وذكر فإن الذكرى تنفع المؤنين ، ومن المجادلة ، ياأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ، نزلت فى الأغنياء من أصحابه ﷺ وذلك أنهم كانوا يكثرون مناجاته ﷺ ويغلبون الفقراء على مجالسته وكان يكره طول مجالستهم ، ويكره نجواهم فنزلت فى الأغنياء هذه الآية ثم قال فإن لم تجدوا الصدقة فإن الله غفور رحيم. فلما أمر الأغنياء بالصدقة عند المناجاة انتهوا عند ذلك، وقدر الفقراء على كلام النبى ﷺ ومجلسه فلم يقدم أحد من أهل الميسرة غير على بن أبى طالب قدم دينارا وكلم النبى ﷺ عشر كلمات ، وقدم رجل من الأنصار تمرات فلم يلبث إلا يسيرا حتى صارت الصدقة عند المناجاة منسوخة نسختها الزكاة المفروضة فى الآية التى تليها فقال تعالى ، أأشفقتم، أى أشق عليكم أهل اليسر أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات فلو فعلتم لكان خيرا لكم فإذا

لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فثبتت الزكاة وذهبت الصدقة عند المناجاة، ومن الممتحنة «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين » نزلت فى خزاعة منهم هليل بن عويمر وبنى جذيمة وبنى مدلج كان بينهم وبين النبى ﷺ عهد إلى أجل فنزلت لاينهاكم الله عن صلة الذين لم يقاتلوكم فى الدين فصارت منسوخة نسختها «براءة من الله ورسوله» وقوله تعالى « إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن » الآية فصارت هذه الآية كلها منسوخة غير حرفين « لاهن حل لهم ولاهم يحلون لهن » نسختها آية السيف فى براءة ، وبقيت لاتحل مؤمنة لكافر ولا كافرة لمؤمن، وقوله تعالى وإن فاتكم شىء من أزواجكم إلى الكفار إن لحقت امرأة مؤمن بكفار أهل الحرب الذين ليس بينكم وبينهم عهد، أم الحكم بنت أبى سفيان تركت زوجها عياض بن أبى عثمان القرشى وهو مسلم وأتت الطائف فتزوجت رجلاً من ثقيف مشركا، فعاقبتم، أعقبكم الله مالا فأتوا الذين ذهبت أزواجهم اعطوا هذا المسلم الذى ذهبت امرأته إلى الطائف مثل ما أنفقوا من المهر ومما أصبتم من الغنيمة قبل أن يخمس ثم تقسم الغنيمة بعد ذلك بين المسلمين ، فاتقوا الله ولاتعصوه فيما أمرتم الذى أنتم به مؤمنون ، صارت منسوخة نسختها آية السيف فى براءة ومن المزمل قوله تعالى « ياأيها المزمل قم الليل إلا قليلاً » ثم صارت قيام الليل الذى كان على المسلمين منسوخة نسختها الصلوات الخمس فثبت الصلوات الخمس على المسلمين وثبت القيام على النبى ﷺ فريضتان واجبتان إلى آخر الآية، وقوله تعالى «واصبر على ما يقولون» من تكذيبهم إياك «واهجرهم هجراً جميلا » وكذلك قوله تعالى «وذرنى والمكذبين أولى النعمة» خل بينى وبين بنى المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم فأنا أنفرد بهلاكهم نسخ هذا آية السيف،

ومن هل أتى «ويطعمون الطعام على حبه ، حب الطعام مسكيناً ويتيماً من المسلمين وأسيرا من المشركين ، فصارت إطعام المسكين واليتيم منسوخة بآية الزكاة المفروضة، ونسخ إطعام الأسير من المشركين آية السيف، وكل شيء فى القرآن قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم نسختها الآية « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر» .

فصل

قوله عز وجل « الذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم ، الآية كان الرجل إذا حضره الموت يوصى لزوجته بسكنها ومئونتها سنة كاملة ثم نسختها الآية التى قبلها « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً، وبطلت الوصية لها بقول النبى ﷺ لا وصية لوارث ، وصار المفروض لها الربع والثمن من مال زوجها، وقوله تعالى « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ، الآية كان الرجل إذا طلق زوجته واحدة أو اثنتين كان أملك بردها ما لم تتزوج حتى تكون ثلاث تطليقات فتصير أملك بنفسها وقال قوم ولو طلقها ثلاثاً ما لم تتزوج نسختها الآية فى سورة الطلاق «إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن» الآية.

فصل

من الحجة على من أبطل النسخ ورأى القول به كالقول بالبداء ما وجدناه من أفعال الله جل ذكره وهو أن يحيى الإنسان ما كانت الحياة أصلح له فى التدبير ثم يميته ويصحه ما دامت الصحة أصوب من تدبيره ثم يسقمه.

أيضا اختلاف شرائع الأنبياء صلوات اللّه عليهم فى الأحكام لا فى التوحيد والوعد والوعيد ونسخ بعضها لبعض فإن أنكر ذلك منكر وزعم أن شرائع الأنبياء صلوات اللّه عليهم كانت متفقة فالحجة عليهم قوله تعالى حكاية عن المسيح صلى الله عليه حين يقول «ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم» وتحريم صيد السمك فى يوم السبت على من حرم ذلك عليه وتحليله لنا ، وبالكف عن العمل يوم السبت وما أمر به بنو إسرائيل من ذلك وإباحته لنا، ودليل آخر وهو قوله تعالى «فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم» والحجة على من زعم أن النسخ لا يكون حتى ترفع تلاوته ما نسخ الله تعالى من التوراة بالقرآن ، وهما متلوان جميعا، فأما نسخ القرآن بالسنةفقد قال به أكثر أصحابنا واحتجوا بأن الله تعالى فرض علينا سبعة عشر ركعة فى كل يوم وليلة ثم إن النبى ﷺ سن أن على المسافر بعض ذلك دون جميعه. وإن احتج محتج ممن قال إن القرآن لا ينسخه إلا قرآن وإن نسخ فرض صلاة المقيم بقوله جل ذكره «وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا» فإن الآية إنما أوجبت القصر مع الخوف وقد أجمع المسلمون على أن نبيهم ﷺ كان يقصر فى حال الأمن دون الخوف ، وهذا يدل على أن الآية ليست بناسخه . واللّه أعلم .

وأما من زعم أن السنة تنسخ القرآن والقرآن لا ينسخ السنة فإن من الحجة عليه أن النبى ﷺ لم يزل يصلى إلى بيت المقدس بغير قرآن نزل إن الله تبارك وتعالى نسخ ذلك بقرآن أنزله ، وحول القبلة إلى الكعبة. وأما من قال إن نسخ القرآن مفوض إلى الأئمة فإنهم احتجوا بأن الرسول ﷺ كان يجتهد رأيه فى الأحكام ، قالوا إذا كانت السنة اجتهاداً منه ﷺ فقد يجوز أن ينسخ القرآن السنة فإذا جاز ذلك من

طريق الأحكام قالوا فجائز للإمام بعده الذى قص عليه أن يجتهد فيما فوض إليه فالحجة عليهم غير قليل من ذلك ، قوله جل ذكره « قال الذين لايرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلى » وقوله عز وجل « وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحي » وأما من زعم أن الله جل ذكره لا يعلم الشيء حتى يكون وأجاز البداء على الله تعالى كما أجاز غيره النسخ على إخبار الله تعالى وتبارك وصفاته فالحجة عليه قوله عز وجل « ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد » الآية ثم قال « ولو ردوا لعادوا » الآية فأخبر بما يقولون قبل أن يقولوا فقد علم ما يكون من قولهم قبل أن يكون وعلم ما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون سبحانه وتعالى ، ونظائر هذا كثير فى القرآن . وبالله التوفيق .

بـاب
فـى المحكـم والمتشابـه

اختلف الناس فى المحكم والمتشابه فقال قوم المحكم هو الناسخ وإن المتشابه هو المنسوخ، وقال قوم المحكم هو الفرائض والوعد والوعيد وإن المتشابه هو القصص والأمثال. وقال قوم المتشابه هو قوله تعالى آلم والمص وكهيعص وحم وما يحتمل تأويلين متساويين فى اللغة ، والمحكم هو الذى تأويله تنزيله تجب فى القلب معرفته عند سماعه ، والمحكم عندنا والله أعلم ما كان حكمه معلقا بظاهره ولا يحتمل وجهين مختلفين كقوله تعالى « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » وقوله عز وجل « حرمت عليكم أمهاتكم » الآية ونحو هذا . والمتشابه هو مالايعلم المراد به فى ظاهر تنزيله وإنما يرجع فى حقيقة ذلك من وجوه التأويل المحكم له كقوله عز وجل « ياحسرتا على ما فرطت فى جنب الله » وقوله تعالى « تجرى بأعيننا » «وخلقت بيدى » وعملت أيدينا ومثله، ويدل على ما قلنا قوله تعالى « وأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » تقول والله أعلم إن الذين فى قلوبهم مرض وهم المبطلون إنما يبتغون ما يتعلقون به ويرونه حجة إن كانوا متأولين من أهل الملة أو يظنون أن فيه مطعنا إن كانوا ملحدين فيما يحتمل تأويله فى ظاهره . وبالله التوفيق .

* **مسألة :** القول فى المتشابه، وأما المعنى فى متشابه الكتاب فإن الله تعالى خلق عباده ليمتحنهم فينبئهم كما قال عز وجل « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده

ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ، فعوضهم بخلقه إياهم بأعلى المنازل وأشرفها وهو الثواب الذى لاخلاف بين أهل العقول فى أنه أشرف من التفضل والله تعالى عز وجل جواد كريم لا يقتصر لعباده على ما غيره أعلى وأشرف إذا كان ذلك حكمة وصواباً ، ولو كان القرآن كله محكما لا يحتمل التأويل ولا يمكن الاختلاف فيه لسقطت المحنة فيه وسارت العقول وبطل التفاضل والاجتهاد فى السبق إلى الفضل، واستوت منازل العباد، والله يتعالى لا يفعل ما هذا سبيله، بل الواجب فى حكمته ورحمته ما صنع وقد أراد فعل بعضه محكماً ليكون أصلاً يرجع إليه وبعضه متشابها يرجع فيه إلى الاستنجاح والاستنباط ورده إلى المحكم وإعمال العقول والفكر ليستحق بذلك الثواب الذى هو العوض .

* **مسألة :** فإن قال قائل أفما كان الله عز وجل قادرا على أن يوصل العباد إلى الثواب من غير محنة ، قيل له بلى إن اللّه تعالى قادر على ذلك وعلى ما يشاء قدير وليس كل ما يقدر عليه يفعله جل عن ذلك وتعالى، بل لن يفعل الحكمة والصواب من التدبير ولو كان يعطى منزلة المجتهد العامل من لا عمل له وأن يساوى أدون المؤمنين فى الجنة بنبى اللّه عليه السلام فى منزلته ودرجته إذ كان الله تعالى على ذلك قادرا والذى أفسد هذا هو الذى أفسد ما سأل عنه السائل ولله المنة .

فى الخاص والعام : معنى العام التكثير ومعنى الخاص التقليل ، يقال غيث عام إذا طبق الأرض ولم يخص موضعا . قال العجاج :

وهو الذى أنعم نعما عمت   على الذين أسلموا وسمت

سمت خصت والسامة الخاصة، وقال أبو رياش قال الفرزدق لراويته عبدالله ابن زالان أخبرنى عن رواة شعرى وعن رواة شعر جرير فقال عبدالله: الخاصة معك والعامة مع جرير فقال غلبنا ورب الكعبة، يريد أن التكثير هناك. قال الأعشى : *

ولست بالأكثر منهم حصاً وإنمـا العـزة للكـاثـر

والعام مثل قول النبى ﷺ الصلاة خير مصنوع فمن شاء فليقلل ومن شاء فليكثر ، هذا عموم فى كل وقت والخاص المعترض عليه لاصلاة بعد صلاة العصر حتى تغرب الشمس ولا صلاة بعد صلاة الصبح حتى تطلع الشمس والخاص يعترض على العام والعام يعترض على الخاص وليس مثل هذا يكون نسخا لأن النسخ حقيقة أن ترفع الكل . والله أعلم .

وقال الله عز وجل ، ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ، فحرم جميع المشركات بعموم هذه الآية ثم خص من جملة ما حرم نكاح المشركات الكتابيات من قبلكم ، فخص المشركات الكتابيات من سائر ما حرم من المشركات ، ونحو ذلك قوله تعالى ولاتأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه فكان هذا الخطاب يوجب تحريم كل طعام لم يذكر اسم الله عليه من حيوان وغيره ، إذ ليس فى نفس الآية تفصيل طعام من طعام فلما اتفق أهل الإسلام علي أن المقصود بالتحريم فى هذه الآية هو الحيوان دون غيره صح أن الآية خاصة، وإن كانت فى الظاهر عامة ، ونحو ذلك ما نهى النبى ﷺ عن بيع ما ليس معك ، فكان تحريما عاما لا يجوز للإنسان أن يبيع شيئاً ليس فى ملكه ثم خص عليه السلام من جملته السلم وهو بيع ما ليس معه ، ونحو قوله ﷺ حيث أدركتك الصلاة فصل، هذا عموم يوجب جواز الصلاة

فى كل موضع وروى عنه ﷺ أنه نهى عن الصلاة فى المقبرة والمنحرة والمزبلة والحمام وقارعة الطريق ، ومعاطن الإبل، وكان هذا خبرا خص بعض ما اشتمل عليه عموم الخبر الآخر .

* **مسألة** : الدليل على ما قال أن العموم لا يستغرق الجنس قول الله جل ذكره « وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض » وقوله تعالى «وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » لا يدخل فى هذا الخصوص والله أعلم . والاستثناء كالتخصيص بمخصوص من الشىء إخراج بعض المذكور ، والخبر إذا ورد فالواجب إجراؤه على عمومه ولا يخص إلا بحجة .

* **مسألة** : أما ما يجرى ظاهره من الأخبار مجرى الخصوص وصحته دليل يرد حكمه إلى معنى العموم فمنه قوله جل وعز « فلينظر الإنسان مم خلق » وإنا خلقنا الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين، وبدأ خلق الإنسان من طين، والعصر إن الإنسان لفى خسر، فهذه الآيات كلها فى لفظ الخصوص فى الظاهر إذ الذكر فيها وقع باسم الإنسان ولم يقع باسم الناس ومتيقن حكمها فى معنى العموم. الدلالة على خروج أحكام جميعها عن الخصوص إلى العموم أن دخول الألف واللام فى الإنسان دال على التعريف والمعرف إذا لم يكن قبل التعريف مذكوراً بنفسه فيكون التعريف إشارة إلى شخصه. صح أن التعريف راجع إلى الجنس كله وأما قوله جل ذكره « وبدأ خلق الإنسان من طين » فآدم عليه السلام، وإذا خلق آدم من طين فالناس كلهم مبتدون من طين لأنهم ذريته إلا حواء وحدها فإنا لاندرى ما اسمها تسمى ذرية له أم لا. غير أنا نعلم أنها خلقت منه ، ويدل على ما قلنا أن هذا اسم الجنس إلا الاستثناء لا يكون إلا فى جملة كثيرة ، وقوله تعالى خلقنا الإنسان من

نطفة فخرج مخرج الخصوص والمعنى للعموم ، وخرج آدم عليه السلام بدليل عن بعض قومنا وهو الحسن بن محمد الحل أى حد العموم مساواة بعض ما ساواه اللفظ لبعض من غير فرية. وكل عموم ظاهر وليس كل ظاهر عموما ، وهو مأخوذ من الاشتمال والإحاطة. يقال عمهم الحق أى شملهم وأقل العموم ما يتناول شيئين ، وأقل الخصوص ما يتناول واحداً والأسماء المنفردة على ثلاثة أقسام عام لا خاص فيه وهو مثل قولهم شيء وشيت، وخاص لا عام فيه وهو مثل قولهم زيد وعمر ، وخاص من وجه عام من وجه، وهو مثل قولهم الحيوان خاص فى تناوله الحيوان دون غيره وعام فى تناوله الحيوان ، هذه ناطقة ومبهمة، وحدالمجمل مالا يفعل المراد منه بذاته وحدا لمفسر ما يفعل المراد منه بذاته .

فصــل

وأما ما ادعاه المبطلون فى القرآن من الزيادة والنقصان وطعن فيه الطاعنون من تكرار القصص والقول وليس لطاعن فى ذلك مطعن والحمد لله ، وقد أوضح العلماء فى ذلك من البيان والحجج ما يبطل قول كل معاند وكافر جاحد ، فأغنانا عن إيراده فى هذا الموضع إن شاء الله .

وأما الإضمار فمثل قوله تعالى « حرمت عليكم أمهاتكم يعنى تزويج أمهاتكم » فأضمر تزويج . قال الشاعر :

وأنت صاحبها المذكور قد علمت   ذاك العمائم يوم الخندق السود

يريد أصحاب العمائم السود وأما الكناية مثل قوله تعالى : « هن لباس لكم

وأنتم لباس لهن وكنى عن المعنى كقوله تعالى ‹ ليسكنوا إليها › فما كان على هذا ويجرى مجراه فهو الكناية . والقرآن نزل بلغة العرب ولغة العرب فيها الحقيقة والمجاز والإطالة والإيجاز والتوكيد والاختصار والحذف والتكرار والكناية والإضمار والحكاية والاتساع والاستعارة والاتباع والاشمام والإشباع والاشتقاق والترخيم والإغراء والإدغام والأضداد والمقلوب والجواب والمنقول والإبدال والمعدول والمعاريض والنقص والزيادة والتقديم والتأخير والتعظيم والتصغير ومخاطبة الواحد بلفظ الاثنين والاثنين بلفظ الواحد ، ومخاطبة الغائب بلفظ الشاهد والشاهد بلفظ الغائب ، وذكر الشيء بسببه وذكر سببه به ، وكل ذلك قد جاء به القرآن ، وقد ذكرته في كتاب الإبانة فلم أعده هاهنا للاختصار.

بـاب
فـى الأوامـر والمنـاهـى

صورة الأمر فى اللغة أن يقول الآمر افعل مثل قوله تعالى «أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة» ويأيها الناس اتقوا ربكم ويأأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين. وصورة النهى أن يقول الآمر لا تفعل مثل قوله عز وجل « يأأيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » إلى قوله « ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً » و«يأأيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله » فإذا ورد الخطاب معرى من القرائن المقيدات والمقدمات فهو أمر أو نهى واللفظة قد ترد مقرونة بصلة أو بمقدمة فيدل على التخيير والندب، أو على قدرة الآمر وعجز المأمور أو على التهدد والزجر وإطلاق بعد حظر أو على التكوين دون الامتثال للأمر. والذى بلا مجموعه التخيير والندب مثل قوله عز وجل « فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير »« فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر » وقد أجمع الجميع أن الأكل منها غير واجب وأنا فيه مخيرون فالآية لم ترد إلا مقرونة بالتوقيف .

وأما الذى يدل على قدرة الآمر وعجز المأمور فمثل قوله عز وجل « قل كونوا حجارة أو حديداً * أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم » ومعلوم أن اللّه تعالى لم يرد منهم أن يجعلوا أنفسهم حجارة أو حديداً إذ ليس ذلك فى طاقتهم وقدرتهم وإنما أراد تعالى أن يبين عجزهم، وأما الذى يدل على التهدد والزجر فمثل قوله تعالى «اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير » « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون »

الآية « وقل للذين لايؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون » .

وهذه الآيات لم يردن على مقدمات قبلهن وقرائن بعدهن تدل على التهدد والزجر. وأما الذى يدل على الإطلاق بعد الحظر فمثل قوله عز وجل « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض » الآية لقوله تعالى «فإذا حللتم فاصطادوا» وقد أجمعوا جميعاً أن الانتشار والاصطياد غير واجبين وأما الذى يدل على التكوين دون امتثال الأمر فمثل قوله جل وعز « كونوا قردةً خاسئين » فقد تقدمت المعرفة أنهم غير قادرين على تكوين أنفسهم قردة فدلت المقدمة على التكوين دون امتثال الأمر. والله تعالى خاطبنا بما تعقل العرب فى خطابها والعرب تسمى افعل أمراً أو نهياً فإذا أمر من تجب طاعته والانقياد لأمره كان على المأمور إتيان ما أمر.. وبالله التوفيق .

* **مسألة** : زعم قوم أن الخطاب إذا ورد بصيغة الأمر كان علينا التوقف لما يحتمل من الحكم حتى نعلم أن المراد به أمر أو نهى أو ندب أو تخيير أو غير ذلك. يقال لهم لو كان الخطاب إذا ورد بصيغة الأمر يوجب التوقف علينا عند وروده لم يكن فى وروده فائدة لأنا قبل وروده متوقفون ، وبعد وروده متوقفون ، فلا فائدة فى وروده. فلما كان الأمر يقتضى الفعل وكان صيغة تعرف فى اللغة التى خوطبنا بها علمنا أن من قال بالتوقف غالط . وبالله التوفيق .

والذى يذهب إليه شيوخنا والأشبه بأصول أمتنا أن الأمر إذا ورد بفعل قد حظر بوقت فللمأمور اتباعه فى أوله أو وسطه أو آخره ، وتعجيل الفعل فى أول الوقت أفضل، وإذا ورد الأمر بفعل غير محظور بوقت فإن تأخيره غير جائز عندهم إلى آخر أيام الحياة .

وقال أبو محمد رحمه الله: والنظر يوجب عندى أن ما لم يكن محظوراً بوقت فالواجب تعجيله أول وقت وإلا لكان الدليل على ذلك أن الأمر إذا ورد مطلقا ولم يقيد بوقت أو أن وروده يخلو من أن يلزم على الفور مع القدرة أو يجوز للمأمور تأخيره إلى آخر أيام حياته أو إلى وسائط بين الفور وآخر العمر ، فآخر العمر مجهول والوسائط أيضا مجهولة الأوقات ولا سبيل إلى علم ذلك، وإذا كان مجهولاً لم يصح تعلق العبادة به ، وما كان آخره مجهولاً لا يعرف وسائطه لم يلزم فعله وإذا بطل هذان الوجهان صح إيجابه على الفور والله أعلم؛ لأن الآمر إذا أمر من تجب له الطاعة عليه وأراح عنه العلل وكان الآمر يريد تعجيل الفعل المأمور به لم يكن للمأمور تأخير الفعل عن أول أوقات الإمكان ، ويدل على هذا قول الله عز وجل «سارعوا إلى مغفرة من ربكم » الآية، فأوجب علينا المسارعة إلى الأفعال التى تؤدينا إلى الجنة والغفران ، والله أعلم .

* **مسألة :** جعل الله تبارك وتعالى الخطاب للفائدة والإفهام وليعلم المأمور غرض الآمر ومراد المخاطب. والحكيم تعالى لايخاطب بما لا فائدة فيه ، ولا يأمر إلا بما يفهم عنه ألا ترى أنه غير جائز أن يأمر أحدا بالقعود وهو يريد منه القيام لأنه إنما يأمر لتمثيل أمره فإذا لم يبين مراده لم يكن أن يمتثل أمره ولا أن يعتقد طاعته فيما كلفه إياه ، وإذا كان ذلك كذلك لم يجز أن يتأخر البيان عن وقت الخطاب ، وتمام فصل الكلام لأن تأخيره يوجب اعتقاد غير ما ظهر لأنه إذا خاطب بظاهر الإطلاق والعموم وهو يريد التقييد والخصوص ثم لم يقر به بدلالة يبين عنه أنه قد ألزم عباده أن يعتقدوا خلاف ما أراد منهم ، وتعالى الله عن ذلك علوا كبيراً. والخطاب إذا ورد فلعمومه صيغة كما أن للخصوص صيغة وللأمر صيغة وللنهى

صيغة ولكل وجه من وجوه الخطاب صيغة يعرف بها حكمه ، ويدل المخاطب به على معناه، ولم يجهل ذلك أو شيئا منه أحد من أهل اللسان والمعرفة من أهل اللغة والبيان، غير أن العرب لسعة لغتها وكثرة معانى كلامها تعبر عن الخصوص بلفظ العموم ، وعن العموم بلفظ الخصوص، وعن الحقيقة بلفظ المجاز وعن المجاز بلفظ الحقيقة ، وهذا معروف بينهم ومنسوب عنهم وعليه أدلة موضوعة من مقدمة الكلام وصلته بالإشارة المعهودة عندهم ، وعلى ما يتعارفون بينهم، فما فرق به الدليل نقل عن موضعه وصيغته. على هذا النحو جرت المخاطبة من اللّه تعالى فى محكم كتابه خاطبهم باللسان العربى المبين فيجب أن يعتبر الخطاب إذا ورد من الله جل ذكره أو من رسوله ﷺ فما ورد بلفظ العموم أجرى على عمومه مالم يخصه دليل على الخصوص. وما جاء بلفظ الخصوص وقف على خصوصه مالم يطلقه دليل العموم ، وفى هذا المقدار كفاية لمن أراد الله تعالى إرشاده ، والخطاب إنما من الله عز وجل بلغة من يخاطبهم لأنه مريده لإفهاهم بقوله عز وجل ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ فالقرآن نزل بلغة القوم الذين بعث فيهم الرسول ﷺ وهو مشتمل على ضربين من الخطاب فمنه المفسر الذى يستغنى بلفظه عن بيان غيره، ومنه المجمل الذى لايستغنى عن معرفة بيانه ، ومنه المحكم الذى يعرفه السامع ، ومنه المتشابه الذى يفكر فى تأويله العالم، ومنه ما يحتمل الوجوه التى لايجوز القطع على شىء منها إلا بدليل يعلم به المراد منها، ومنه الإيجاب والإلزام ، ومنه الترغيب والإرشاد ، ومنه الفرض والندب ، ومنه الإباحة والحظر ومنه الكناية والتصريح ومنه التعريض والإفصاح ومنه الحقيقة والمجاز ومنه الإطالة والإيجاز ومنه الخصوص والعموم ، ومنه التكرير والحذف ومنه الإشارة والتلويح

ومنه التأكيد والترديد ، وكل ذلك معروف في لغة العرب، وعلى حسب اختلاف هذه الضرورة تختلف معانى أحكامها، ولكل ضرب منها صورة يعرف بها وصيغة وضعت لها يعرف السامع بذلك قصد المخاطب وغرض المتكلم فمن عرف ذلك وضع الخطاب موضعه ولم يعد به إلى غير جهته ومن قصر علمه عن شيء من ذلك التبس عليه ما قصر علمه عنه، ولن يدرك ذلك من لم يكن عاقلاً مميزا وبالله التوفيق .

فالواجب أن يعتبر كل خطاب بحسب المعروف فى اللسان لأن منه ما يفترق ومنه ما يتفق ولايفترق ، ومنه ما يتفق لفظه ويختلف معناه وما يفترق لفظه ويتفق معناه ، وكل ذلك معروف عند أهل اللسان والله الموفق للصواب .

* **مسألة** : الخطاب إذا ورد مطلقا فظاهره خطاب معروف وهو على إطلاقه، وإذا ورد مقيدا فهو على تقييده ألا ترى أنه لو قال قائل فلان كافر كان ظاهره أنه كافر بالله تعالى وإن كان يحتمل أنه أراد الطاغوت. وكذلك لو قال فلان مؤمن فالظاهر أنه مؤمن بالله وإن كان يحتمل أن يكون أراد أنه مؤمن بالطاغوت .

* **مسألة** : وإذا ورد الأمر بفعل لم يجب إلا فعلا واحداً إلا أن يقوم دلالة بتكريره . الدليل على ذلك قول النبى ﷺ إذا نهيتكم عن شيء فانتهوا وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، ففى هذا دليل على ما قلنا . والله أعلم .

* **مسألة** : وما نزل من الأحكام فى القرآن وكان محتاجا من الرسول عليه السلام إلى بيان فهو غير منفك من ثلاثة أقسام إما أن يكون لو ترك الناس مع ما يحتمله القرآن لم يصلوا إلى حكمه إلا ببيان. أو يكون مما لو تركوا مع ظاهر لفظه بلا توقيف على حكمه لوجب عليهم إنفاذ الحكم به على كل ما دخل فى حمله

ظاهره .. أو يكون مما لو دخلوا مع ظاهر لفظه لوجب عليهم أن يأتوا من حكمه بما إذا أتى بمثله كان مؤذنا لفرضه إذ فعل ما ندب فى الظاهر إلى فعله، وإن لم يكن مستوعيا لجميع ما يحتمله ظاهر لفظه ، فأما ما كان الناس قبل وجوبه يفعلونه ويعرفونه فنزل القرآن موجبا له باسمه منفردا فالواجب عليهم أن يأتوا بالفعل الذى يتعارفونه مجردا ما لم يردهم فيه النبّى ﷺ ، حكما مجردا أو ينقصهم مما يحتمله ظاهره حكما منفردا ، ومحال أن يدعوهم النبّى ﷺ ، فما كانت هذه صفته بلا بيان إذ كان جل ذكره فيه مراد غير ما يظهر تلاوة القرآن ، وأما ما كان الناس فيه لا يعرفونه قبل أن ينزل القرآن بوجوبه ولم يكن فى صفتهم أن يأتوا بكل ما دخل تحت اسمه على كمال حقه لعجز بينهم عن القيام بكل شرطه وبين لهم أنّهم لم يؤمروا إلا ببعضه إذ محال أن يتعرض من الأحكام بما لا طاقة لهم به ، ولم يعلموا ما البعض الذى يجب عليهم المسارعة إلى فعله ، ولم يكن فى القرآن توقيف على حدة فمحال أن يدعوهم النبّى ﷺ ، مع ظاهر القرآن حتى يتبعه بيان .

* **مسألة** : والأمر أمرانِ أمر إلزام وأمر تخيير فأمر الإلزام كقوله عزّ وجل اتّقوا الله وأقيموا الصّلاة وآتوا الزكاة وما أشبه هذا من القرآن ، وأمر التخيير كقوله عز وجل «فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير» . «فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض» ومثله فى القرآن كثير وقد مرّ هذا فى أوّل الكتاب .

* **مسألة** : العرب تسمى افعل أمرا ولا تفعل أمرا ونهياً والله خاطبنا بما تعقل العرب فى خطابها فإذا أمر من يجب طاعته وجب على المأمور إتيان ما أمر به فى أول أوقات الإمكان إذا لم يضرب الأمر لذلك وقتا معلوما ولازماً مفهوماً ، وكذلك إذا نهى عن شىء وجب عليه أن ينهى عنه أوّل أوقات الإمكان ، ألا ترى إلى قول

ضمرة بن ضمرة حيث حبسه النّعمان ثم أمر بإطلاقه فأخروا إطلاقه .

فلو كنت ذا أمر مطاع لما بدا   توانٍ مع الإمكان فى حال أمركا

وعن النبّى ﷺ . أنه قال: حكمى على الواحد حكمى على الكل قولى للواحد قولى للكل ، وقولى لامرأة مثل قولى لمائة امرأة ، فإن قال قائل فإن النبى ﷺ قد كان ينزل عليه الوحى باللّيل فى فراشه فلا يبلغ ما أوحى إليه حتى يصبح وتجتمع الناس عنده ، وفى هذا دلالة أنه كان ﷺ يؤخر ذلك ، قيل له: هذا غلط ، وذلك أن النبّى ﷺ ، لم يؤمر أن يبلغ ما أوحى إليه كلّ الناس ولم يوجب عليه أن يطوف عليهم وإنما أمر بالتبليغ فإذا بلغ واحداً من أمته فقد فعل ما أوجب عليه ، وكان بتبليغه ذلك واحدا واضعاً للبلاغ موضعه فإذا أنزل القرآن وهو فى مضجعه بلغ زوجته وفى تبليغه إياها ذلك امتثال ما أمر به ﷺ .

* **مسألة :** ومعنى البيان هو إيضاح المشكل ولا يكون إلا نطقا أو فعلا يقارعه النطق . والدليل على ذلك ما حدث به أبو إسحاق القاسم بن وهب بإسناد إلى عبد الله بن مسعود قال: صلّى بنا رسول اللّه ﷺ ، فزاد فيها أو نقص شك فيها إبراهيم أو علقمة ثم أقبل علينا بوجهه ، فقيل: يا رسول اللّه أحدث فى الصلاة شىء قال وما ذلك فأخبرنا بالذى صنع فثنى رجله واستقبل القبلة وسجد سجدتين ، وهو خاشع ثم أقبل بوجهه ﷺ ، ثم قال لو أنه أحدث فى الصّلاة شىء أخبرتكم ولكنى أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكرونى ، وأيكم شك فى الصلاة فليتحر أقرب ذلك فليتم عليه ويسجد سجدتين وهو جالس ، فأخبرهم ﷺ ، أنه لا يكلهم إلى الفعل ولا يدعوهم إلى وقت الفعل ، إذ هو ﷺ ، من أسرع الناس إلى الطاعات وأبعدهم من

التفريطات ، ويدل على ذلك أيضا ما روى عن ابن سيرين قال لما نزلت « قل الله يفتيكم » والنبّى ﷺ ، فى مسير له وإلى جنبه حذيفة بن اليمان فبلغها النبّى ﷺ ، حذيفة وبلغها حذيفة عمر وهو يسير خلفه فلما استخلف عمر سأله عنها ورجا أن يكون تفسيرها عنده ، فقال حذيفة: والله إنك لجاهل، أو غير ذلك إن ظننت أن إمارتك تحملنى أن أحدثك فيها ما لم أحدثك يومئذ .قال لم أرد هذا رحمك الله ، ومن غير طريق ابن سيرين عن حذيفة أن الله تعالى أنزل عليه يستفتونك وهو ﷺ، يسير وأنا معه فمسح عينيه من العرق بكم جبته وبلغنيها فقلت: يا رسول اللّه ما نزلت وجمعت الناس وبلغت ولم يسمعها منه غيرى فقال أترانى لا أفعل غير أنى ذكرت قول الله تعالى « وما تدرى نفسٌ ماذا تكسب غداً وما تدرى نفسٌ بأى أرض تموت إنّ اللّه عليمٌ خبير » .

* **مسألة** : أبو هريرة بإسناد قال أدخلت على رسول الله ﷺ ، وهو قد كظه العطش وهو صائم يوم رابع عشر من الشّهر ودخل أعرابى فلما رأى رسول اللّه ﷺ، قال يا رسول اللّه صلّى اللّه عليك هذا اليوم واجب صومه فنصومه من كل شهر فغضب رسول اللّه ﷺ ، ثم قال ذرونى ما تركتم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، قوله كظه العطش قال متمم بن نويرة :

يوم إذا ما كظك الخصم إن يكن نصيرك منهم لا تكن أنت أضيعا

كظك غلبك وقهرك ، قال والكضيض المهلى من كل شيء، وفى الحديث إن للجنة ثمانية أبواب ما من باب إلا وهو كضيض من النّاس عند دخولها .

* **مسألة** : والأمر بالشيء نهى عن كل أضداده ، قال اللّه تعالى « إذا نودى

للصّلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر اللّه وذروا البيع ، فأمر جل ذكره بإيجاب السّعى يعقل النهى عن منع ما يضاده من القعود والانضجاع وغير ذلك من الأشياء التى تضاد السعى، وليس البيع والترويح والمأكل والشراب بأضداد للسعى إذ جائز أن يسعى ويبيع فى حال ولا جائز أن يمشى ويجلس فى حال ، وجائز أن تسعى وتأكل فى حال ولا جائز أن ينضجع ويجلس فى حال ، فلما تنافى الأمر بالجلوس والانضجاع والسعى فى حال عقل المخاطبون أن فى أمره تعالى بالسعى للصلاة دليلا على النهى عن جميع ما يضاد السعى من الجلوس والانضجاع ، والنهى عن الشيء أمر بضده أو ببعض أضداده ، فإذا كان الإنسان جالساً فقيل له لا تقم فله قبل هذا القول أن يقوم ويقعد وينضجع ، فإذا نهى عن واحد منها وهو القيام فهو على ما كان عليه من تصرفه فى حاله، فإذا امتنع عن القيام فله كل فعل غير القيام وإذا كان ما ذكرنا على ما وصفنا كان إذا أمر بشيء فهو نهى عن كل ضد له وإذا نهى عن شيء فله فعل كل ضد له .

* **مسألة :** والأوامر على الوجوب مما أمر الله تعالى ورسوله ﷺ ، أو من أمره أمرهما إلا أن تقوم دلالة على أنه غير واجب وتخصيص ما أمر بفعله ، فإن قال قائل قال النبّى ﷺ ، قيلوا فإن الشياطين لا تقيل، فيجب أن يكون هذا القول يوجب المقيل على النّاس كلهم وأنّهم لو تركوا ذلك أو تركه منهم تارك كان عاصياً، قيل له قد شرطنا فى صدر كلامنا أن الأوامر على الوجوب إلا ما قام دليله ، وقد دلنا الإجماع على أن من ترك المقيل متعمدا أو ناسياً ولم يرد بذلك مخالفة للرّسول ﷺ ولا تركا لأدبه أنه غير عاص بذلك ، وهذا يدل على أن الأمر بذلك أدب لهم وترغيب فيما يعود بصلاح أبدانهم ، فصح ما قلنا أنه وإن كان أمراً فليس بأمر

واجب لقيام الدلالة على ذلك ، وبالله التّوفيق .

* **مسألة** : وإذا وقع الخطاب بالأمر من الكتاب للسّامعين العقلاء البالغين بنظمه الذى بان من سائر الكلام به لزمهم ما وقعت به اللغة من الأسماء على مسمياتها لهم، وعند ذلك ما هم محجوجون فى العلم له واعتقاد معانيه والعمل بما فيه، فذلك. وإن لم يعقلوا معنى الخطاب ولا كانوا من أهل اللغة فعليهم فى حجة عقولهم الكف عما قد جاز عندهم التعبد بالكف عنه لهم مما يجوز مع بحثهم عنه أن لا يخفى عليهم لأن ذلك ما هم ممكنون منه إلى حال تثبتهم لما هو من ذلك فرض عليهم أو مباح لهم، وذلك على من انقطع عذره فى دعوة النبّى ﷺ له إلى ما جاء به مجملا عن اللّه تعالى ، والمسلمون شهداء بمعانى ذلك فيفسرون له إذا لم يكن من أهل اللغة وتلك بينة واضحة وحجة قاهرة بقوله عز وجل « وأوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ » فإذا سمعوا بعد كمال الدّين الأوامر مع معرفة معانيها أو جاز أن تكون عندهم مخصوصة فى بعض معانى ما وقعت عليه أو منسوخ منها فعليه أن يعلم فيما يجوز من النسخ أن ذلك فرض قد كان الله تعالى فرضه ولا يدرى أثبته أم نسخه، فما كان من ذلك أمر بفعل محظور بحجة عقلية أو لغة متبينة لا يمتحن بها إلا مالك التعريض والعالم بمقادير المصلحة. فأعدل ذلك، إن شاء اللّه، الوقوف بالتبين له والسؤال عنه وعن مبلغ حد الحكم فيه قبل الإقدام عليه ، قال الله عز وجل « أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها » فأما ما أمر الرّسول ﷺ ، مفسراً فلا وقوف معه ولو جاز أن يخاطبوا بما ليس فى حجج عقولهم مبلغه لجاز ذلك بما يجهله من جهة اللغة ولما دخل العجم فى الأمر بالكتاب الذى هو الحجة البالغة ، ولو وقع الخطاب للكل بأسماء لا معانى لها معهم ولا دلالة عليها عندهم

لكان لا معنى لها ولا سبيل إلى علم مأمور به بها، ولو وقفوا جميعا على معانى ما خاطبوا به ما احتاج أحد منهم إلى تفسير الرّسول ذلك له وللشهداء عنه به ولا اختلفوا فيه لكن المحنة وقعت بهم فى ذلك على لزوم التكليف لهم فى معارفهم لمعانى أوامر الله تعالى إياهم ونواهيه لهم وما يحصلون من ذلك مقاييسهم وحجج عقولهم من معانى آيه وأسماء وصفات ذاته سبحانه وتعالى .

* **مسألة :** والأمر قد يخرج فى الكلام ترغيباً وإطلاقاً وتأديباً والأصل فيه الفرض لأن ما لم يكن منه فرضا فمجاز الكلام ، فالفرض منه كقوله عزّ وجل «فمن شهد منكم الشهر فليصمه » والإطلاق كقوله تعالى « فإذا قضيتم الصلاة فانتشروا فى الأرض» «وإذا حللتم فأصطادوا » والتأديب كقوله عزّ وجل « وأشهدوا وإذا تبايعتم » والله أعلم .

* **مسألة :** احتج قوم بأن الله تعالى لا ينقل العباد من تخفيف إلى تثقيل يقال لهم إن الله تعالى قد نقل المؤمنين من تخفيف إلى تثقيل بأمره تعالى إياهم بقتال المشركين بعد أن كانوا بذلك غير متعبدين ، فقال تعالى « إلا تنفروا يعذّبكم عذاباً إليماً » فقد صاروا بالتخلف عن القتال متوعدين بعد أن كانوا به غير مأمورين، ولله تعالى فى عباده ما يشاء من أمر ونهى وتخفيف وتثقيل له الخلق والأمر ، كما قال تعالى « ألا له الخلق والأمر تبارك اللّه ربّ العالمين » وقد خفف الله تعالى عن عباده أشياء بعد التثقيل عليهم فيها كقوله تعالى « الآن خفّف اللّه عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً » الآية .

* **مسألة :** فإن قال قائل ما معنى قولــه عزّ وجــلّ « الآن خفّف اللّه عنكم

وعلم أن فيكم ضعفا ، أتقول أنه لم يكن علم قبل ذلك عندما ألزمهم الفرض الأول قيل له هو عالم بما كان وما يكون ولا يخفى عليه شيء ، ولكن خفف الله عنهم وألزمهم هذا الفرض الثّانى ، واللّه أعلم وأحكم .

ولما كان المسلمون أقلاء فى صدر الإسلام وكانت نياتهم أقوى فرض عليهم الفرض الأول لقوة نياتهم ، ولو كثر المسلمون وكان الحرص منهم على قتال العدوّ ضعف خفف عليهم للمحنة عنهم وألزمهم الفرض الثّانى ، واللّه أعلم .

* **مسألة :** كلّ من أوجب الله عز وجل عليه أمرا فهو أبدا واجب عليه حتى يعلم زواله عنه، فالوجه الذى ألزمه الله تعالى إزالته به عن نفسه ، وكل قادر على فعل ما أمر به فلا عذر له فى ترك فعله ، وكل عاجز عن فعل ما أمر به فمعذور فى تركه ومخاطب بالانتقال عن الهيئة المأمور بفعله عليها إلى حالة أنقص منها ولا عذر له فى الترك إلا أن يعدم وجوه القيام بذلك أصلاً فهو معذور ، وذلك مثل المأمور بالصلاة قائما لا عذر له فى القيام إلا بالعجز عنه فإذا عجز عن القيام كان عليه الصلاة قاعداً فإذا عجز عن القعود كان عليه الصلاة نائماً فهو موسع له بالانتقال بالعجز عن حالٍ إلى حال ، لا أنه بالعجز عن الفرض الأول سقط عنه ما وراء ذلك من الفروض مع القدرة عليها والتوصل . واللّه أعلم .

* **مسألة :** اختلف العلماء فى الأوامر فمنهم يقول نهى على الوجوب ، ومنهم من يقول على الندب ، ومنهم يقول الأوامر إذا وردت كانت على الوقت لا حكم لها حتى يرد بيان يدفع الشبهة عن المأمورين ويزيح العلل عنهم . وبالقول الأول يقول أصحابنا رحمهم الله ، وقد مرّ الاحتجاج عليه . واللّه الموفّق للصّواب .

* **مسألة :** قال أبو محمّد رحمه الله : صيغة الأمر إذا وردت معراة من القرائن والمقدمات والدلائل ووردت مطلقه كانت على الإيجاب وقد ترد تلك الصيغة مع قرينة تنقلها إلى الندب وقرينة ترى عجز المأمور وقرينة تدل على إطلاق بعد حظر ، وقرينة يراد بها التكوين لامتثال الأمر ، وقرينة ترى رفع منزلة المأمور وتكريما له ، وقرينة ترى الوضع من المأمور به ، وقرينة تنقلها إلى النهى ، ومنه ما يراد به التهديد والزجر، فالصيغة التى ترد مطلقة كقوله عزّ وجل « كونوا قوّامين بالقسط » توجب امتثال المأمور به لأنها وردت مطلقه لا قرينة معها ولا دليل ينقلها، والذى يدل لتكوين دون امتثال الأمر قوله عز وجل « كونوا قردَة خاسئين » لم يرد منهم أن يكونوا أنفسهم قردة لعلمنا أن النظر يعجز عن ذلك ، والذى أريد به الإطلاق دون الأمر قوله جل ذكره « يا أيّها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله » ثم قال تعالى « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض » وهذا إطلاق بعد حظر غير موجب على الناس به أن ينتشروا ، كقوله تعالى « حرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً » ثم قال تعالى «فإذا حللتم فاصطادوا » ولم يرد بذلك إيجاب الاصطياد وإنما أراد الإطلاق بعد الحظر ، وأما الذى أريد به الندب دون الفرض فقوله تعالى « كلوا منها وأطعموا » والأكل غير واجب باتفاق الأمة ، وأما الذى أريد به التهدّد والزجر فكقوله جل ثناؤه « وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » وكقوله تعالى « اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير » وأما الذى يدل على رفع المأمور فقوله جل ذكره « ادخلوها بسلام آمنين » وأما الذى يدل على وضع المأمور وإهانته كقوله عز وجل « ادخلوا

أبواب جهنم خالدين فيها ، والخطاب إذا ورد مطلقا فهو على إطلاقه وإذا ورد مقيدا فهو على تقييده إلا أن يخص ذلك دليل . والله أعلم .

* **مسألة :** الخطاب قد يرد بذكر شيء فيكون المسكوت عنه من جنس المنطوق به داخلا فى حكمه وإن كان الذكر خص المنطوق به دون المسكوت عنه وقد تثبت السنة ذلك ، يقول النبى ﷺ ، من أعتق شقصاً له فى عبد قوّم عليه معا. وكانت الأمة فى معناه بإجماع ، وإن كان الذكر فى العبد دون الأمة ، وكذلك ما روت عائشة عنه ﷺ ، أنه قال إذا مست المرأة فرجها انتقضت طهارتها ، وكان الرجال مع النساء ، ويدل على صحة هذا التأويل قول الله ، والّذين يرمون المحصنات ، الآية ، وكان المحصنون فى معناهن . ويجب على قاذف المحصنين ما يجب على قاذف المحصنات من الحكم ، وإن كان الذكر خص به المحصنات دون المحصنين . وكذلك قال عزّ وجل ، فإذا أحصنّ فان أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ، وكان العبد فى حكم الأمة باتفاق وإن كان الذكر خص به الأمة دون العبد .

فصل

عن قومنا حدّ الأمر ما يكون المأمور بامتثاله طائعاً وبتركه عاصياً وقيل ما لا يجوز تركه بحالٍ. وحد النهى ما يكون المنهى عنه بفعله عاصياً وبتركه طائعاً، وقيل ما لا يجوز فعله بحال، وحد الوجوب ما لا يجوز تركه إلى بدل والفرض والحتم واللازم فى معناه ، والمندوب إليه ما فعله أفضل من تركه ، والجائز ما ليس فى العقل

ولا فى السمع المنع منه ، وقيل أن الجائز ما فعله وتركه سواء ، وهذا فيه نظر لأن المندوب إليه جائز وفعله أفضل من تركه ، والواجب جائز ولا يجوز تركه ، والمباح ما لا يثاب على فعله ولا يعاقب على تركه ، وقيل ما يجوز فعله وتركه وفيه نظر لأن اللّه تعالى له أن يفعل الإصلاح وله أن لا يفعل ولا يقال لفعله مباح .

باب

فى الإخبار عن النبى ﷺ

فمنها أخبار المراسيل ، وأخبار المقاطيع ، والأخبار الموقوفة ، وأخبار المتن ، وخبر الصّحيفة ، والخبر الزائد على الخبر النّاقص والخبر المعارض لغيره من الأخبار، والخبران يردان من طريق أو طريقين يكون أحدهما خاصاً والآخر عاماً . والخبران يكون أحدهما ناسخا والآخر منسوخاً ، فأما الخبر المرسل فهو أن يروى التابع الخبر عن النبّى ﷺ ، ولم يشاهد النبّى ﷺ ، ويجب أن يكون بينه وبين النبّى ﷺ صحابى فلا يذكره إما أن يكون قد سمع من الصّحابى فاقتصر على ما روى له ولم يحتج إلى ذكر من أخبره ، أو أن يكون صح عنده بالخبر عن النبّى ﷺ ، بالإخبار عن ذلك الصحابى وبسنده إلى النبّى ﷺ ، وأما أخبار المقاطيع فهو أن يروى الرجل الخبر عن النبّى ﷺ ، فيسقط فى الوسط رجلا فلا يذكره فى إسناده فإذا ترك الرجل انقطع إلى حيث ترك الرجل ، وأما الخبر الموقوف فهو أن يروى عن الصحابى أو التابعى فيوقف الخبر عليهما ، وأما أخبار المتن فهى التى تروى عن النبّى ﷺ ، ولا يذكر من رواها عنه من الصحابة ويعتمد على صحتها وتسمى مثل هذه الأخبار أخبار المتن ، وأما خبر الصحيفة فهو أن يروى الراوى الخبر إلى أن ينتهى به إلى رجل فيقول عن أبيه عن جدّه ولم يدرك ذلك المذكور النبّى ﷺ ، فإذا كان الخبر على هذا الوصف ونحوه سمى خبر الصحيفة. وأما الخبر الزائد على الخبر الناقص فإنه إذا ورد خبر عن النبّى ﷺ ، من وجه وروى ذلك الخبر أيضاً من

وجه آخر إلا أن أحد الخبرين فيه زيادة لفظة استعمل الزائدة من الخبرين لأنه فيه فائدة لم تذكر فى الآخر ولم يوردها الرّاوى الثانى معه لما قد يجوز أن يكون أحدهما شاهد القصّه إلى الموضع الذى أخبر به والآخر شاهد القصّه إلى آخر ما لم يسمع الآخر، وشاهد ما لم يشاهد الآخر فلذلك استعمل الزوائد من الأخبار المعارضة. فمثل ذلك أن يروى عن النبّى ﷺ خبر بإباحة شىء وخبر آخر بحظر شىء فيوقفان جميعا وينظر المتقدّم منهما من المتأخّر بالتاريخ ليعلم الناسخ منهما من المنسوخ نحو ما روى عن النبّى ﷺ ، أنه سها فى صلاته فسجد قبل التسليم ، وروى أنه سجد بعد التسليم ، فتنازع الناس فى ذلك واختلفوا فى الناسخ منهما من المنسوخ والمتقدم من المتأخر ، وأما الخاص والعام فنحو قوله ﷺ ، حيث ما أدركتك الصلاة فصلّ، فهذا عموم يوجب جواز الصلاة فى كل موضع ، وروى عنه ﷺ ، أنه نهى عن الصلاة فى المقبرة والمنحرة والمزبلة والحمام وقارعة الطريق ومعاطن الإبل كان هذا خبرا خص بعض ما اشتمل عليه عموم الخبر الآخر فالخاص يعترض على العام ولا يعترض العام على الخاص ، وكذلك الخبر المفسر يقضى على المجمل ولا يقضى المجمل على المفسر، وأما الناسخ والمنسوخ فهو نحو ما روى عن النبّى ﷺ ، أنه قال كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها ولا تقولوا هجرا ، وأما الأخبار التى تنازع الناس فى تأويلاتها عند مبايعاتهم إذا عقدوها على شروط بينهم فإنها تأتى فى باب الشروط فى البيع إن شاء الله ، ومن الأخبار الموقوفة لتعارضها وطلب الدلالة على المتقدم منها من المتأخر أو ما أريد ببعضها دون بعض ، نحو ما روى عن النبّى ﷺ ، أنه نهى عن الشرب قائما وروى أنه شرب من زمزم قائما فوجب اتفاق الخبرين وكان المرجوع إلى قول الله تعالى « كلوا وشربوا » فهذه الآية تبيح الآكل والشرب

على أي حـال كـان عليـهـا الآكل والشّارب إلا أن تـخص دلالة فـي بعض الأوقـات وبعض الأحـوال ، وروى عنه ﷺ ، أنّه نـهى عن الشرب من فم السقـاء، وروى أنّه خنّث السقاء فشرب منه أي عطفه ، وأمـا الشرب من فم السقاء المنهي عنه فقيل عنه للإشفاق أن تكون فيه دابة ، وباقي هذه المسألة تأتي في باب الأكل والشرب إن شاء الله .

* **مسألة :** وإذا ورد الخبران أحدهما عام والآخر خاص أو مفسرٌ كان الخاص والمفسر قاضياً على العام ، وإذا ورد الخبران وثبت صحتهما عند أهل العلم ولم يعلم المتقدم منهما من المتأخّر ولا النّاسخ من المنسوخ ، قال أبو محمّد رحمه الله: فالواجب عندي استعمالهما إذا أمكن ذلك ، ولم يعارضهما أو يعارض واحدا منهما دلالة تمنع من استعمالهما أو استعمال واحد منهما ولا يطرح منهما شيء ، وإذا ورد خبر فالواجب إجراؤه على عمومه ولا يخص إلا بحجة ، وإذا ورد الخبر بوجوب علم في غير وقت المحظور فالواجب إجراؤه على عمومه والمدعي لتخصيصه عليه إقامة الدّليل ، وإذا ورد خبران أحدهما نفي لفعل والآخر يوجب إثباته كان الإثبات أولى إذا لم يعلم المتقدم منهما ولا المتأخر ولا الناسخ من المنسوخ.

قال أبو محمّد رحمه الله: فالواجب عندي استعمالهما إذا أمكن ذلك ولم يعارضهما أو يعارض واحداً منهما دلالة تمنع من استعمالهما أو واحد منهما ولا يطرح منهما شيء .

وإذا ورد خبر فالواجب إجراؤه على عمومه ولا يخص إلا بحجة ، وإذا ورد الخبر بوجوب عمل في غير وقت محظور فالواجب إجراؤه على عمومه والمدعي

لتخصيصه عليه إقامة الدليل ، وإذا ورد الخبران أحدهما بنفى الفعل والآخر بوجوب إثباته كان الإثبات أولى إذا لم يعلم المتقدم منهما من المتأخر ولا الناسخ من المنسوخ، وهذا على أصول اصحابنا يصح على ما يذهبون إليه فى الحظر والإباحة والأوامر ، وقد وافقنا الشّافعى فى هذا المعنى .

وإذا رفع الصّحابىّ خبراً عن رسول اللّه ﷺ ، بإيجاب فعل وجب العمل به على من بلغه من المكلفين إلى أن يلقى خبرا آخر غيره ينسخه، فإذا لقيه كان على من عمل بالخبر الأول الرجوع إلى الثانى وترك العمل بالأول ، وكذلك الحاكم يعمل بما قام عليه الدليل عنده من أقاويل العلماء فإذا قام له دليل بعد ذلك على قول آخر هو أرجح عنده من الأول عمل بالثانى وترك العمل بالأول الذى حكم به واستعمله. واللّه أعلم .

فصل

وإذا رفع الرافع الخبر وهو عدل فإن كان الخبر مما يلزم العمل به مما سنّه رسول اللّه ﷺ ، وأوجب العمل به أو حكم يجب الحكم به أو نهى يجب الانتهاء عما نهى عنه فإن العدل فى هذا حجّة وغير العدل لا يكون حجّة ، فإن كان خبرا مما يكون التعبد به علما له وليس فيه عمل وهو التّوحيد وغيره من صفات اللّه تبارك وتعالى فلا يكون الواحد فيه حجة ولا الاثنان إذا كان العقل يدفعه فإن قبله العقل جاز العمل به والتدين به إلا أن يكون خبرا قد قبلته الأمة فإذا قبلته الأمة فعليه أن يتدين به جاز فى العقل أو لم يجز، فإن ردته بعض الأمة وقبله بعضها قال فإن

قبله العقل قبله. وإن لم يقبله العقل فعليه البحث والنظر حتى يقبله أو يصح فى عقله من طريق الكتاب أو السّنة والمقبولة مما يجوز فى العقل فعليه البحث والنّظر كما قلنا، وهذا المتعبد بعلمه إنما هو ما كان من صفات الله عزّ وجل من توحيده وغير ذلك من أمر القدر والخبر ، فلا تكون العدول فيه حجة وإنما حجة ذلك من العقل إلا ما قبلته الأمة بأسرها .

قال أبو محمّد رحمه الله: ولسنا ننكر أخبار مخالفينا فيما انفردوا به دون أصحابنا من غير أن نعلم فسادها إلا بما قد علمنا فساد بعضها، ويجوز أن يكون ما لم نعلم فساده صحيحا وإن لم ينقلها معهم أصحابنا ، وقد تختلف الأخبار بيننا وبينهم لتأويلها أو لانقطاع بعض الأخبار واتّصالها أو قلة ضبط ناقليها ، وقد كان بعض الصحابة يصل إلى النبّى ﷺ ، أو الرجل إلى الصّحابىّ وقد ذكر بعض الخبر ومنهم من ينسى من الخبر شيئا فيعتبر معناه أو يزيد فيه، ومنها ما ينتقل على جهة القصص أو لفائدة أدب أو غيره ، والصّحيح منها ما أيده العمل ووقع عليه الإجماع، ولذلك اختلفت الأخبار وأحكامها . والله أعلم .

وقد روى أن عائشة بلغها أن أبا هريرة روى عن النبّى ﷺ ، أنّه قال: الشؤم فى ثلاثة فى الدّار والدابة والخادم فقالت غلط أبو هريرة، دخل على النبّى ﷺ ، وهو يقول لعن الله اليهود تقول بأن الشؤم فى ثلاثة فسمع آخر الخبر ، ووجدت عن ابن قتيبة فقال دخل رجلان على عائشة فقالا إن أبا هريرة يحدث عن النبّى ﷺ أنه قال إنما الطيرة فى المرأة والدابة والدار ، فقالت عائشة: كذب والذى أنزل القرآن على محمّد من حدث بهذا عن رسول الله ﷺ ، إنما قال ﷺ ، كان أهل الجاهلية يقولون الطيرة فى الدابة والمرأة والدار ، ثم قرأت « ما أصاب من مصيبة فى

الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها ».

فصل

وقد ترد الأخبار بألفاظ يقع الغلط فى تأويلها لقلة المعرفة باللغة فيها مثال ذلك ما روى عنه ﷺ ، أنه قال ذات يوم لأن أزنى سبعين مرة أحب لى أن آكل لقمة ربا ، فظاهر هذا الحديث غير جائز تأويله على رسول اللّه ﷺ ، وحاشاه وإنّما يجوز عند عوام النّاس وجهالهم ومن لا علم له بتأويل اللغة ، والمعنى فيه أنه أراد ﷺ ، لأن أصعد فى الجبل سبعين مرّة لأن الزنا فى اللغه الصعود فى الجبل قال المقدام الجراعى :

رب ركب وهم مشاة إلينا وزنا للزانيين حلال

أراد الركب الرجال إذا لبست النعال والزنا الصعود فى الجبل وقال آخر :

وغـلام زنا بمكـة ليـلا مع رجال زنوا بغير حلال

وقال زيد الخيل يوصى ابنه :

لا تـكونـنّ كلهوف وكـل وارق إلى الخير زناء فى الجبل

فصل

روى عن النبى ﷺ ، أنه قال: رحم الله امرءا سمع منا صفة فأدّاها كما سمعها ، وفى خبر رحم الله امرءا سمع مقالتى فأداها كما سمعها فربّ حامل فقه إلى من لا فقه له ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، وقال ﷺ ، من كذب على

متعمداً فليتبوأ مقعده من فى النار ، وأما الزبير فإنه قال : واللّه ما سمعت النبى ﷺ ، يقول متعمدا أو إنما قال من كذب على يتبوأ مقعده من النار ، يقال كل منزل ينزله القوم تبوأ منزلا ، والبأو والمباءة واحد وهى منزل القوم . قال :

وبوئت فى صميم معشرها فتم فى قومها مبوأها

وقال المفضل فى قوله عز وجل « وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت » ، أى هيأنا. وقال ابن قتيبة فى قوله تعالى « يتبوأ من الجنة حيث يشاء » ، أى ينزل ، وعن ابن عمر قال إن الذى يكذب على نبيّنا له بيت فى النار ، ابن عباس قال سمعت رسول اللّه ﷺ ، يقول إنى تلوت اليهود فعرفت كذبهم على موسى ، وتلوت النّصارى فعرفت كذبهم على عيسى بن مريم ، وإنه سيكون بعدى أناس يكذبون على فما بلغكم منى من حديث فقيسوه بالقرآن وما وافق القرآن فخذوه وما خالف القرآن فدعوه ، ألا فإذا سمعتم الحديث عنى فضعوه على الحسن وضعوها على أحسن معانيها وأجملها ولا تصفوا أنى قلت ولا أقول ما يخالف القرآن . ثم قال وكيف يخالف رسول اللّه ﷺ ، كتاب الله. وإنما هدى اللّه ورسوله بكتابه ، وعنه ﷺ ، حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج وحدثوا عنى ولا تكذبوا على. من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار. سمرة بن جندب قال قال رسول اللّه ﷺ ، من روى عنى حديثا وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين. واثلة بن الأسقع عنه ﷺ ، إن أفرى الفرى من قولنى ما لم أقل ومن أرى عينيه فى المنام ما لم يريا ومن ادعى إلى غير أبيه ، وعنه ﷺ ، أنه قال : من قال خبرا قلته أنا أو لم أقله فأنا قلته ، قال ابن عباس فما سمعت حديثا قط أحب إلى منه ، وعنه ﷺ ، قال من بلغه عن اللّه تعالى فضيلة فعمل بها رجاء ثوابها أعطاه اللهّ ثوابها وإن لم يكن كما بلغه ، عن

ابن سلام عن رجل خدم النبّى ﷺ أنه كان عليه السّلام إذا حدث الحديث أعاده ثلاث مراتّ ، وعن أبى الدّرداء قال ما رأيت النبّى ﷺ ، يحدث حديثا إلا وهو مبتسم فى حديثه ، وعن أم أسيد قالت قلت لأبى قتادة مالك لا تحدث عن رسول اللّه ﷺ ، كما يحدث عنه النّاس ، قال : سمعت رسول اللّه ﷺ ، يقول: من كذب على فليلتمس لجنبه مضجعا فى النار ، فجعل رسول اللّه ﷺ ، يقول ذلك، ويمسح الأرض بيده. قال المختار لرجل من أصحاب الحديث : ضع لى حديثاً عن النبّى ﷺ ، أنى صائر بعده خليفة وطالب له بترة ولده، وهذه عشرة آلاف درهم ومركوب وخادم ، فقال الرجل: أما عن النبّى ﷺ ، فلا. ولكن اختر من شئت، من أصحابه وأعط من الثمن ما شئت قال عن النبّى ﷺ أوكد قال فالعذاب عليه أشد ، فالكذب على رسول اللّه ﷺ ، أشنع الكذب وأقبحه وأشيعه وأفضحه. والكذب عليه عليه السّلام، هو الإخبار عنه ﷺ بخلاف ما هو به، فالواجب على المسلم أن يتورع عند رفع الأخبار عنه عليه السّلام، عند الأخبار عن أفعاله وأن ينقل كل شىء منه إلى صيغته ولفظته ، وقد كان بعض اتّهم أبا هريرة فى أحاديثه لكثرة ما كان يروى منها عنه ﷺ ، حتى أنه قال : لو حدثتكم بكل ما أعلم لرميتمونى بالقشع . القشع الجلود اليابسة ، والقشع بيت من أدم والجمع القشوع ، وقال متمم بن نويرة :

ولا برم تهدى النساء لعرسه إذا القشع عن حسن الشتاء تقعقعا

البرم واحد الأبرام وهم الذين لا يخرج لهم فى القدح نصيب، تهدى النساء لعرسه أى امرأته من اللحم الذى أخذه رجالهنّ من أنصباء الجزور والقعقعة الصوت وذلك فى شدة الزمان، والشتاء أيضا عندهم شدة الزمان ، وفى حديث أبى هريرة: لم يكن يشغلنى عن رسول اللّه ﷺ ، غرس الوذى ولا بصفق الأسواق والودى صغار

النخل واحدها وذية قال الشاعر :

نحن بغرس الوذى أعلمنا   منابركض الجياد فى السدف

السدف ظلام اللّيل ، وعن عثمان بن عفان أنه قال: رحمك الله يا أبا هريرة حفظت علينا ديننا. وقال ابن عمر : كنا مشاغيل بالسوق وأبو هريرة ملازم لرسول اللّه ﷺ .

خبر : روى عن النبّى ﷺ ، من طريق ابن مسعود قال: نضر اللّه عبدا سمع مقالتى فحفظها ووعاها وأداها فرب حامل فقه إلى غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل للّه والنصيحة للمسلمين ولزوم جماعتهم ، فإن دعوتهم تحيط بمن وراءهم . فلما ندب ﷺ ، إلى استماع مقالته وحفظها وأدائها دل على أنه لا يأمر أن يروى عنه إلا ما تقوم به الحجة إلى من أدى إليه ، وحديث الرّجل الّذى قبّل امرأته وهو صائم فأرسل امرأته تسأل عن ذلك ، فقالت لها أمّ سلمة إنّ النبّى ﷺ ، يقبل وهو صائم ، ورجوعها إلى زوجها بذلك ورده لها ثانية فرجعت المرأة إلى أم سلمة فوجدت رسول اللّه ﷺ ، عندها فقال عليه السّلام: ما بال هذه المرأة فأخبرته أمّ سلمه فقال ألا أخبرتيها أنى أفعل ذلك ، دلالة على أن خبر أم سلمة عنه مما يجوز قبوله لأنه لم يأمرها أن تخبر عنه إلا وفى خبرها كون الحجة، وهكذا خبر المرأة لزوجها إن كانت من أهل الصدق ، وكذلك ما روى عن ابن عمر قال: بينما الناس بقباء فى صلاة الصّبح إذ أتاهم آت فقال إن رسول اللّه ﷺ ، قد أنزل عليه أو قد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة ، وهو خبر واحد فلزم قبوله والعمل به. وأهل قباء أهل سابقة من الأنصار وفقه ، وقد كانوا على قبلةٍ

فرض عليهم استقبالها فانتقلوا عنها بخبر واحد إذ كان عندهم من أهل الصدق عن فرض كان إلى ما أخبرهم به عن النبى ﷺ ، فى تحويل القبلة ولم يكونوا يفعلون ذلك إلا عن علم وحّجة ثبتت لهم ، ولو كان ما فعلوه غير جائز لأنكر ذلك عليهم رسول الله ﷺ، فلما لم ينكر ذلك وثبت ما فعلوه كان حجة ودليلا على قول الواحد ، وما روى عن أنس كنت أسقى أبا عبيدة بن الجراح وأبا طلحة الأنصارى وأبى بن كعب شرابا من فضيخ لهم وتمر فجاءهم آت فقال لهم إن الخمر قد حرمت فقال طلحة قم يا أنس إلى هذه الجرار فاكسرها، فقمت إلى مهراش لنا فضربتها بأسفله حتى تكسرت. فقد قبلوا خبر الواحد وحرموا ما كان حلالاً ، وأتلفوا ما أتلفوا بخبره ولولا أن ذلك مما يجوز ويثبت بمثله الحجة لما فعلوا ذلك ولا قبلوه ، وقد أمر النبّى ﷺ ، أنيسا أن يغدو على امرأة رجل ذكر أنها زنت فإن اعترفت فارجمها فاعترفت فرجمها ، وحديث على بن أبى طالب أنه أتى على جمل يقول أن رسول الله ﷺ يقول أن هذه أيام طعم وشرب فلا يصومن أحد ، ورسول الله ﷺ ، لا يبعث بنهيه واحداً صادقاً إلا لزم خبره ، وقد بعث ﷺ ، أبا بكر واليًا على الحج فى سنة تسع وحضر الحّج من أهل بلدان مختلفة وشعوب متفرقة فأقام لهم مناسكهم فأخبرهم عن النبى ﷺ ، بما لهم وبما عليهم ، وبعث على بن أبى طالب فى تلك السنة فقرأ عليهم فى مجمعهم يوم النحر آيات من سورة براءة ونبذ إلى قوم على سواء فجعل لقوم مرداً ونهاهم عن أمور وما كان رسول الله ﷺ ، يبعث واحداً إلا والحجة قائمة لخبره على ما يبعثه إليه ، وقد كان ﷺ ، يبعث عمّالاً على النواحى منهم قيس بن عاصم والزبرقان بن بدر وابن نويرة وكل واحد ممن يوليه فقد أمره بما أوجب الله تعالى عليه ، ووجب طاعته. ولم يعلم أن أحدا منهم عصاه أحد احتج عليك بأنك

واحد وليس لك أن تأخذ منا ما لم تسمعه من رسول الله ﷺ . ولا لنا دفع ذلك إليك، وما فعل ذلك رسول الله ﷺ ، إلا والحجة قائمة والأمر لازم لخبر الواحد لمن يبعث إليه ، وقد رجع عمر رحمه الله عن حكم بخبر الواحد ، وهو ما روى من طريق سعيد بن المسيّب أن عمر. كان يقول الدية للعاقلة ولا ترث المرأة من دية زوجها شيئا حتى أخبره الضحاك بن سفيان أن النبّى ﷺ كتب إليه أن يورث امرأة أشيم الضّابىء فى ديته فرجع إليه عمر وعنه أيضا أنه قال: أذكر الله امرءا سمع النبّى ﷺ قال فى الجنين شيئا فقام حمل بن مالك بن النابغة فقال كنت بين جاريتين يعنى ضرتين فضربت إحداهما الأخرى بمسطح فألقت جنينا ميتا فقضى فيه رسول اللّه ﷺ بغرة، فقال عمر : لو لم أسمع هذا لقضينا فيه بغير هذا ، وقال غيره إن كدنا لنقضى فيه برأينا ، وعنه أيضا أنه قال فى المجوس ما أدرى كيف أصنع فى أمرهم ، فقال له عبد الرحمن بن عوف: أشهد لسمعت رسول اللّه ﷺ ، يقول سنوا بهم سنة أهل الكتاب ، وروى عن بجال أنه قال لم يكن عمر يذكر أحدا بجزية من المجوس حتى أخبره عبد الرحمن بن عوف أنّ النبّى ﷺ أخذها من مجوس هجر ، وفى كتاب الله عز وجل الدلالة على قبول خبر الواحد، قوله تعالى «إنّا أرسلنا نوحاً إلى قومه ، وقوله عز وجل «وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل »، وإلى عاد أخاهم هوداً ، وإلى ثمود أخاهم صالحاً ، وإلى مدين أخاهم شعيباً ، وقال تعالى «كذبت قوم لوط المرسلين * إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتّقون * فاتّقوا اللّه وأطيعون ، وقال لنبيّه ﷺ ، إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح» وقال تعالى « وما محمّد إلا رسول قد خلت من قبله الرسّل ، فأقام الله عز وجل حجّته على خلقه بواحد والواحد فى ذلك وأكثر منهم سواء تقوم الحجة بالواحد منهم قيامها بالأكثر ، قال تعالى « واضرب لهم مثلا

أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون * إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذّبوهما فعززنا بثالث ، الآية ، وليس الزيادة فى التأكيد مانعة أن تقوم الحجة بالواحد ، ولا يجوز لأحد رد ما أتى عن النبّى ﷺ ، من الأخبار بنص الكتاب ، وبما ورد عنه ﷺ ، من التضييق فى ذلك ، أما الكتاب فقوله عزّ وجل « فليحذر الذين يخالفون » الآية ، وقوله تعالى « ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » وما روى عنه ﷺ ، من طريق عبد الله بن رافع عن أبيه أنه قال ﷺ ، لألقين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمرى ممّا أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا أدرى ما وجدنا فى كتاب اللّه اتبعناه . فقد ضيق ﷺ ، على أحد أتاه عنه أمر مخالفته وترك العمل به ، والأريكة ، قال أبو عبيدة : والجمع الأرائك، وهى الفرش فى الحجال ، قال ذو الرمة :

كأنما تباشر بالمعراء مس الأرائك

وقال الخليل: الأريكة ستر فى حجلة والجمع الأرائك ، ومنه قوله عز وجل «على الأرائك ينظرون » وقال المفضل: الأرائك السرر ذوات الحجال واحدها أريكة .

فصل

وإذا كان الرّاوى للخبر ثقة فقال أنه صحيح أو قال حفظته أو هو يقين أو أخبرنى ثقة أو رواه ثقة وهو صحيح .

باب
فى شىء من الأخبار

روى عن النبى ﷺ أنه قال: أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم. وقال ﷺ من طريق : مثل أصحابى فى أمتى كمثل الملح من الطعام ولا يصلح الطعام إلا بالملح، وقال الحسن: فذهب ملحنا فكيف نصلح. وعنه ﷺ واثلة بن الأسقع: لاتزالون بخير ما دام فيكم من رآنى وصاحبنى. وعنه ﷺ أنا خير النبيين ولا فخر وقال ﷺ أنا أفصح العرب ولا فخر وفى خبر أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش. ومعنى بيد غير، ومعنى غير أنى إلا أنى فلما وضعت غير فى موضع إلا نصبت على الاستثناء وفتحت الراء لاجتماع الساكنين، وقال ﷺ لا تفضلونى على إبراهيم ولا على أخى يحيى عليهم السلام، وقال النبى ﷺ بعثت بكسر الصليب وقتل الخنزير وإراقة الخمر. وعنه من طريق أبى هريرة أنه قال ﷺ إنما أنا رحمة مهداة، وقال النبى ﷺ لانبى بعدى ولا أمة بعد أمتى فالحلال ما أحل الله على لسانى إلى يوم القيامة والحرام ما حرم الله على لسانى إلى يوم القيامة، وقال ﷺ إنا معاشر الأنبياء نضمر غير ما نظهر. وقال ﷺ يأتى زمان لا يسلم إلا من هرب بدينه من شاهق إلى شاهق، ويروى من بلد إلى بلد. أبو حكيمة قال: بكى النبى ﷺ ذات يوم فقالوا يارسول الله ما أبكاك قال ذكرت آخر أمتى وما يلقون من البلاء والصابر منهم يجىء يوم القيامة وله أجر شهيدين. وقال عليه السلام : سيكون بعدى فيكم أمراء يعذبونكم ويعذبهم الله بنار جهنم. وقال عليه السلام:عزت قريش. فاختلف

المسلمون في ذلك فقال بعضهم: قوله عزت قلت كما أن الشيء إذا قل عز لقلته وقال بعضهم عزت إذ كان النبي ﷺ منهم وذكره فيهم، وعنه ﷺ نعمت العمة لكم النخلة. وفي خبر: النخلة عمتكم فأكرموها. وفي خبر استوصوا بعمتكم خيرا يعني النخلة فإنها خلقت من الطينة التي خلق منها آدم عليه السلام أما رأيتم شجركم كلها لا يحتاج إلى اللقاح إلا النخلة فإنها تحتاج إلى اللقاح. قال الله عز وجل « ما قطعتم من لينة » قيل النخلة وجمعها لين غير العجوة فإنها كون .

ابن عمر قال أن رسول الله ﷺ قال: من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وهي مثل المسلم حدثوني ما هي قال عبدالله فوقع الناس في شجر البادية ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت. قال ابن عمر فحدثت عمر بالذي وقع في نفسي من ذلك فقال : لأن تكون قلتها أحب إلي من كذا وكذا ، وقال مالك: وهي النخلة .

عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: ياعائشة إذا جاء الرطب فهنيني، وفي الحديث كان رسول الله ﷺ إذا رأى باكورة وضعها على عينه ودعا فيها بالبركة. الباكورة ما يعجل إدراكه من الفواكه والثمار. والبواكر من النخل وغيرها من الأشجار المثمرة التي تقدم حملها .

أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ: لا حليم إلا ذو عبرة ولا حكيم إلا ذو تجربة. وعنه ﷺ أنه مر بهوازن فقال: لو كان يحل على أحد من العرب سبي لحل على هوازن ثم قال عليه السلام: لارق على عربي. وعنه ﷺ جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وإن كان كافرا ، وعلى بغض من أساء إليها وإن كان مؤمناً. وفي خبر على حب من يحسن إليها وعلى بغض من يسيء إليها. الأول على الماضي والثاني على المستقبل. يقال جبل زيد على خلق كريم وزيد مجبول على الشيء أي

مطيوع عليه. وعنه عليه السلام من رآنى فى المنام فقد رآنى فإن الشيطان لا يكونن بى ، ومن رآنى فى المنام فسيرانى فى اليقظة أو فكأنما رآنى فى اليقظة ولا يتمثل الشيطان . بى وعنه ﷺ أنه قال: الأناة من الله تعالى والعجلة من الشيطان لعنه اللّه . قال الشاعر :

الرفق يمن والأناة سعادة   فتأن فى رفق تلاق نجاحا

قال الأصمعى: بينا أسير فى سكك المدينة إذ خطر بقلبى قول الشاعر فأنشدته:

قد يدرك المتأنى بعض حاجته   وقد يكون مع المستعجل الزلل

فإذا بقائل يقول من خلفى فأنشدته :

وربما فات بعض القوم أمرهم   مع التأنى وكان الحزم لو عجلوا

قال: فالتفت خلفى فلم أر أحدا. وقال ﷺ لا تمحوا السيىء ولكن تمحوا السيىء بالحسن فإن الخبيث لايمحوه الخبيث. وقال ﷺ: أقبح السيئات بعد الحسنات وأحسن الحسنات بعد السيئات .

فصـــل

وعنه ﷺ: خير الناس أنفعهم للناس. بيان الخط يزيد فى الحق وضوحا. حسن الملك نماء. سوء الخلق شؤم. وفى نسخة أحسن الملكة. أشأم الشؤم اغتشاش الناصح. طاعة المرأة ندامة. الهم نصف الهرم والرفق نصف العيش. الداعى بلا عمل كالرامي بلا وتر. صدقة رغيف خير من نسك. مهزول الشيب نور فلا تنتفوه. الشعر من كسوة الله فأكرموه. من لايرحم لايرحم. كل قلب إذا قسا لايبالى إذا أساء

أشعر كلمة تكلمت بها العرب كلمة أمية بن أبى الصلت ، ألا كل شىء ما خلا الله باطل ، وكاد ابن أبى الصلت أن يسلم. من دعى إلى طعام فلم يجب فكأنه قد عصى الله . من عشق فعف فكتم ومات فهو شهيد. لا يدخل الجنة قتات، وهو الساعى بالناس ، ويقال النمام . والقت الكذب والنميمة . قال العجاج :

قلت وقولى عندهم مقتوت

أى يكذب. من آذى ذميا كنت أنا خصمه يوم القيامة. لاتقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول ياليتنى مكانه. ما ظفر من ظفر بإثم. توق وتنق. وروى توقه وتنقه، وأظن فيما وجدت والله أعلم توق الذنوب وتنق منها. التحدث بالنعمة شكر. انتظار الفرج عبادة. ومن طريق أنس عنه: أفضل العبادة انتظار الفرج. حسن الظن من العبادة. أما بعد تخيروا لنطفكم. أبو هريرة عنه ﷺ والذى نفسى بيده لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده. أنس عنه ﷺ لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين. ومن كلامه ﷺ لم سبقه إليه أحد : ياخيل الله اركبى، لاينتطح فيها عنزان. الحرب خدعة. هدنة على دخل. وروى على دخن. الناس كأسنان المشط ، لايجنى المرء إلا على يده . ليس الخبر كالمعاينة. لايلدغ المؤمن من جحر مرتين. الآن حمى الوطيس. ابدأ بمن تعول. السديد من غلب نفسه. الشاهد يرى ما لا يرى الغائب. المجالس بالأمانة. ساقى القوم آخرهم ، المسلم مرآة أخيه. ترك الشر صدقة. البلاء موكل بالمنطق. الغنى غنى النفس. لا داء أدوى من البخل. الأعمال بالنيات. الحياء شعبة من الإيمان. الحياء خير كله ، سيد القوم خادمهم. أعجل الشر عقوبة البغى. اليمين "فاجرة تدع الديار بلاقع. إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه. ويروى كريمة قوم. كل ذى

نعمة محسود. ابغ الرفيق قبل الطريق. الجار قبل الدار. الخيل فى نواصيها الخير. العدة دين. عدة المؤمن كالأخذ باليد. ليس منا من غشنا. المرء ذو الخديعة فى النار. المرء مع من أحب. من شبه بقوم فهو منهم. المرء كبير بأخيه. رب مبلغ أوعى من سامع. شر الأمور محدثاتها. كلكم لآدم وآدم من تراب. الندم توبة. كل معروف صدقة. مطل الغنى ظلم. الولد للفراش وللعاهر الحجر. الدال على الخير كفاعله. حبك للشىء يعمى ويصم. لايأوى الضالة إلا ضال. اتقوا النار ولو بشق تمرة. مداراة الناس صدقة. السفر قطعة من العذاب. الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكرمنها اختلف. من تمام التحية المصافحة. الصحة والفراغ نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس. الرجل أحق بصدر مجلسه. احثوا فى وجوه المداحين التراب. ما نقص مال من صدقة. المسلمون عند شروطهم. لو تكاشفتم ماتدافنتم. الجنة تحت أقدام الأمهات. انصر أخاك ظالما أو مظلوما. ويسروا ولا تعسروا. لا إيمان لمن لا أمانة له. المعتدى فى الصدقة كمانعها. الرؤيا أول عابر. كفى بالموت واعظا. لانذر فى معصية الله. على المرء رد ما أخذ حتى يؤديه. اتقوا دعوة المظلوم فليس من دونها حجاب. المستشير معان والمستشار مؤتمن. سيب النفس من النعيم. احترسوا من الناس بسوء الظن. الولد محبته مبخلة. لايدخل الجنة قاطع رحم. سبقك بها عكاشة. اعقلها وتوكل. الولاء لمن عتق. المرء كثير بأخيه. كل بدعة ضلالة. لا طاعة فى معصية الله. أزنى الزنا شتم الأعراض. دع ما يريبك إلى ما لا يريبك. إذا غضبت فاسكت. الظلم ظلمات يوم القيامة. كل ما هو آت قريب. دفن البنات من المكرمات. زر غبا تزدد حبا. طلب العلم فريضة على كل مسلم. أنفق يابلال ولا تخش من ذى العرش إقلالا. الخير أسرع إلى المنبت.

خياركم أحسنكم أخلاقا. ما قل وكفى خير مما كثر وألهى. كل الصيد فى جوف الفرا، وفى بطن الفرا ، إياكم وخضر الدمن. إن مما ينبت الربيع لما يصل خيطا أو يلم. الأنصار كريمتى وعيتى. اليد العليا خير من اليد السفلى. فضل العلم خير من فضل العبادة. إن من الشعر حكما، وإن من البيان سحرا. نية المؤمن خير من عمله وعمل الكافر خير من نيته. استعينوا على الحاجات بالكتمان. لا تحقرن من المعروف شيئاً فإنما المعروف كاسمه. قل خيرا تغنم أو اسكت تسلم. من صمت نجا. الصمت حكم وقليل فاعله. فى المعاريض مندوحة من الكذب. من صدق لسانه زكى عمله. الكذب مجانب الإيمان. ذو الوجهين لا يكون وجيهاً. الخير عادة والشر لجاجة. الخير كثير وقليل فاعله. الصبر ضياء. رأس العقل التودد. إذا تبينت أصبت أو كدت تصيب. الدين النصيحة. ليس الواصل بالمكافىء. القناعة مال لا ينفد. المعونة على قدر المونة. من كثر كثر له. حصن المال زكاته. كاد الفقر يكون كفرا. العبد أخوك. كرم الرجل دينه ومرءوته عقله. من قصر به عمله لم يبلغ به حسبه. من بلا جفا. وقول الجفا من النار. ومن اتبع الصيد عقل. ومن كثر كلامه كثرت ذنوبه. ومن كثر ماله اشتد حسابه. ومن تقرب من السلطان تباعد من الله عز وجل. المرء على دين خليله. لا خير فى صحبة من لا يرى لك من الحق مثل ما يرى له. لاتظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك. أحبب حبيبك هونا ما. المؤمن ينظر بنور الله. الوحدة خير من جليس السوء. لا تصلح الرياضة إلا فى النجيب. الحق ثقيل مرى والباطل خفيف وبى. الأمر إلى آخره وملاكه خواتمه. اسخِ من فضل ولاتلم على الكفاف. الرجل الصالح يأتى بالخبر الصالح. والناس معادن ، الناس كالإبل المائة لا يوجد منها راحلة. نسخة: كإبل مائة. الناس بأزمنتهم أشبه.

وفي نسخة: الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم. ليس شيء خيرا من ألف مثله إلا الإنسان. وفي نسخة: وعمر خير من ألف مثله. المال عارية. كن في الدنيا كأنك غريب. إياك وما يسوء الأذن. أخذنا فألك من فيك. العلم خزائن ومفاتيحه السؤال. حسن المسألة نصف العلم. لا غم إلا غم الدين. تهادوا تحابوا. أخير نقلة المال مفرجة. لا تطرحوا الدر في أفواه الكلاب. العلم في الصغر كالنقش في الحجر. إذا لم تستح فافعل ما شئت. الصبر معول المؤمن. الصبر شعار الكرام. الصبر عند الصدمة الأولى. العفو عز. الود والعداوة يتوارثان. المؤمن مألف. المؤمن غر كريم والفاجر خب لئيم. السعيد من وعظ بغيره، المستابان شيطانان. المنتعل راكب. الشيب نور المؤمن. للداخل دهشة .نعم الشيء الهدية أمام الحاجة. ترك العشاء مهرمة. كما تدين تدان. التصافح يذهب السخيمة. ما أملق تاجر صدوق. ماعيل مقتصد ولا يعيل. لاتزال أمتى بخير مالم تر الأمانة مغنما والصدقة مغرما. استعينوا على الشيء بالسعي، وذلك أن الرجل إذا أكثر المشي ينقص عصبه فإذا سعى انطلق. ومنه حديث عمر ابن معدى كرب إذ شكا إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه المغص فقال كذب عليك العسل، والمغص وجع العصب من طول المشي، والعسل من عسلان الذيب، وهو عدو فيه اهتزاز قال الجعدى :

عسلان الذيب أمسى قارباً   يرد الليل عليه فيسل

وقول عمر رحمه الله: كذب عليك العسل . معناه الإغراء أى عليك به، قال الشاعر:

كذبت عليك و لاتزال تقوفني   كما قاف آثار الوسيقة قايف

إنما أغراه بنفسه أى عليك بى ، والغر، تقول للمريض كذب عليك كذا ، أى
عليك به ، ولجميع ما مضى من كلام النبى ﷺ تفسير شواهد الأشعار وهو شيء
كثير موجود فى الكتب تركته اختصاراً .

باب
ما لا يسع جهله

الذى لا يسع جهله على كل عاقل بالغ معرفة الله عز وجل أنه واحد ليس كمثله شيء، ومعرفة توحيده والإقرار به وبرسوله محمد ﷺ، وبجميع ما جاء به عن الله تعالى أنه حق من عند الله كما قال، وأنه صادق فيما أمر به ونهى عنه، فمن أقر بهذه الجملة وصدق بها فقد أقر بدين محمد ﷺ ، وقد آمن بما جاء من الله عز وجل .وإن هو رد شيئا منها أو أنكره أو شك فيه كان مشركا ولم يسعه ذلك، ولا يسع الناس جهل الشك بالله تعالى فما دونه ، مما حرم فى كتابه ، أو رسوله ﷺ فى سنته أو أجمع المسلمون على تحريمه، فما لم يفعله فاعل أو يتولى من فعله أو يبرأ ممن برأ ممن فعله فهو سالم فإن فعله بجهالة أو برئ ممن برئ ممن فعله فهو كافر، والكفر الذى لا يسع جهله نصب الحرام دينا بالكذب على الله تعالى فى تحريم ما أحل واستحلال ما حرم، ولا يسع جهل معرفة السؤال المتصل بمعرفة الله تعالى ولا عذر لأحد فى التفريط فيه. ولا يسع جهل الوضوء للصلاة عند حضور وقتها فإذا حضر ودخل فيها بلا وضوء أو ناقض الوضوء كفر إذا جهل الوضوء وقال لا أعرفه، وكذلك الصلاة لا يعذر بجهلها وإن حضرت ولم يصلها وفات وقتها كفر. وكذلك الاغتسال من الجنابة، وأما الزكاة فلا يسعه جهلها إذا لزمته، ويكفر بتأخيرها فإن جهلها ولم يؤدها حتى مات كفر، وكذلك الصيام لشهر رمضان والحج لا يسع جهلهما فإن لم يعلم وجوب الصيام وجهله قبل دخوله ومات لم يكفر فإن دخل ولم

يصمه وجهله فلا عذر له وهو كافر حتى يتوب ويتعلم، فإن مات ولم يصمه ولو يوماً واحدا منه كفر، فإن مات بعد انقضاء الشهر صام لكل يوم شهراً وكفارة شهرين. والحج إذا لزم فلا عذر له ولا يسع جهله ولا يكفره ذلك حتى يموت، فإن مات ولم يحج ولم يوص بحجة مات كافراً ،وإذا حضرت الصلاة وهو يتعلم فلم يفهم من معلمه حتى فاتت أبدل، وأرجو أنه معذور إن شاء الله، ولا يسع جعل تحريم الخمر والميتة والخنزير، ومن عرف ذلك فشرب الخمر وظنه طلاً وأكل لحم الخنزير أو ميتة وظنه شاة فالخطأ والنسيان أهون، فإذا علم تاب من ذلك، ولا يسع جهل القصر ومن جمع بين العصر والمغرب والعتمة والفجر جهلا فلا عذر له وعليه الكفارة، ويسع جهل الجمع. ولا يسع جهل الجنة والنار فى قول أبى معاوية، وقال غيره يسع جهلهما مالم يعلمه أحد فإذا علمه لم يسع .

* **مسألة :** قال ابن محبوب رحمه الله: الجنة والنار مخلوقتان وهى الجنة التى أسكنها الله تعالى آدم عليه السلام وأخرجه منها ووعده لما تاب أن يرده إليها. وقال غيره: ويدل على ذلك قوله تعالى « قلنا اهبطوا منها جميعا » فالهبوط من السماء. قال أبو عبدالله: ووجدنا فى الكتب أنهما تفنيان عند فناء الخلق، وتعادان عند إعادة الخلق. قال أبو عبدالله وهذا مما يسع جهله. وفى الجنة والنار اختلاف ، ولعل من يثبتهما أنهما مخلوقتان، نقول الجنة فى السماء السابعة والنار فى الأرض السادسة. قال النقاش فى قوله تعالى « واتقوا النار التى أعدت للكافرين » قال فى الآية دلالة على أنها مخلوقة بقوله أعدت والمعد المهيأ قال الأعشى :

وأعددت للحرب أوزارها   رماحاً طوالاً وخيلاً ذكورا

قال الحسن :الجنة مخلوقة فى أنها فى السماء، وقيل لعمر رضى الله عنه كيف تكون الجنة مخلوقة فى السماء وهي أوسع من السموات والأرضين فقال تكون كذلك كما شاء الله عز وجل .

* **مسألة :** ولايسع جهل يوم القيامة إذا ذكر، ويسع مالم يذكر. فإذا ذكر لزم الإيمان به فمن شك فيه بعد العلم به أو قيام الحجة عليه كان مشركاً يقتل إن لم يتب، وكذلك القول فى البعث والثواب والعقاب مثل القول فى يوم القيامة، ومن كان يؤمن بجملة البعث إلا أنه كان يعتقد ويظن أن الله تعالى يحشر الجن والإنس دون كل الخلق فقال إن كان لم يسمع بذلك ولا قامت عليه الحجة من الكتاب ولا من خاطر قلبه ففيه اختلاف، وإذا تليت عليه الآية ﴿ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه ﴾ الآية، فقد قامت عليه الحجة فإن شك بعد أن تليت عليه الآية أو خطر بقلبه فلم يعلمه كفر .

فصـــل

قوله تعالى ﴿ ولا طائر يطير بجناحيه ﴾ توكيد وقرأ ابن هرمز ولا طير يطير بجناحيه ، على التوكيد لأن الطيران يكون بالجناحين وبالرجلين. وجميع ما خلق الله عز وجل فليس يخلو من هاتين المنزلتين إما يدب وإما يطير. يقول الرجل للرجل طر فى حاجتى أى أسرع، ويقول: الفرس يطير والسفينة تطير. والفائدة فى قوله تعالى يطير بجناحيه دون مالا يطير بجناحيه العلم بأنه قصد إلى جنس ما يطير بجناحيه دون سائر ما يطير لما كان الطيران يقع على الطير وغيرهن. وعن

ابن عباس: يحشر كل شيء حتى أن الذباب ليحشر .

* **مسألة :** ومن شك فى آية من القرآن لم يكن يعلمها وهو مؤمن بالقرآن فلا يكون مشركاً حتى تقوم عليه الحجة، فإذا قامت فشك كان مشركاً يقتل إن لم يتب. وعن أبى محمد أن من شك فى القرآن أو فى ثلاث آيات منه أو فى النبى ﷺ فإنه يستتاب من ذلك، وإلا قتل. وقال أبو معاوية من شك فى النبى ﷺ بعد علمه أو فى القرآن أو فى آية بعد علمه فهو مشرك يقتل إن لم يتب. وروى عن النبى ﷺ أنه قال من بلغه آية من كتاب اللّه فقد بلغه أمر الله كله قبله أو رده. وفى رواية : يأيها الناس بلغوا ولو آية من كتاب الله، فإنه من بلغه آية فقد بلغه أمر اللّه أخذه أم تركه. ومن شك فى السماء والأرض والجبال والناس والدواب والشمس والقمر والنجوم بعد العلم بذلك أو كان جاهلاً فقامت عليه الحجة به فشك فقال لا أدرى أهى السماء التى ذكرها اللّه تعالى فى كتابه وجميع ذلك أم لا فلا يكون بذلك مشركاً ولا كافراً إذا كان مقراً بأن اللّه الذى خلق هذا الذى شك فيه ولا يدرى هذه سماء أو غير سماء وهذه أرض أو غير أرض. وإن قال فى التوراة والإنجيل والزبور لا أدرى هو من عندالله أو من عند غيره بعد العلم وقيام الحجة عليه كان مشركاً يقتل إن لم يتب. فإن قال لا أدرى ما فى أيدى اليهود ولا النصارى أهو ما أنزله الله تعالى على موسى وعيسى أم لا إلا أنى لا أشك فى التوراة والإنجيل أنهما من عند اللّه أنزلهما عليهما فلا يكون مشركاً ولا كافراً ، وإذا كانت المرأة حائضاً فلم تعلم زوجها حتى وطئها فلا إثم عليها ، لعله أراد فلا إثم عليهما وإن لم تعلم أن ذلك لا يجوز فلا يعذر بجهله .

فصــل

ومن عاين ممن يدين لله تعالى بما لا يسعه جهله فعليه أن يعلم أنه هالك، وإما أن يعلم أن المطيع مثاب وهذا العاصى معاقب ففيه اختلاف ، منهم من يقول هو سالم حتى يقوم عليه الحجة ومنهم من يقول إذا جن فى عقله فعليه أن يعلم ذلك. ومن عاين مرتكبا لكبيرة أو صغيرة مستحلا لذلك مما يسع جهل علمه ولا يسع ركوبه والمعاين لا يعلم حرمة ذلك فهو سالم مالم يتوله حتى تقوم عليه الحجة بتضليله فيردها هنالك. وأما إن علم حرمة حدثه فهو هالك إن لم يعلم ضلالته. وقد قيل أيضا أن من عاين مستحلا والمعاين لا يدرى حرمة الحدث أنه لا يسعه جهل ضلالته، ومن علم بحرمة من المحارم بعد إقراره بالجملة فرأى من يستحل ذلك فلا يكون موسعاً عليه أن يضلله ، وفيه قول آخر مضيق. وأما من لم يعلم حرمته فواسع تضليله ، وفيه قول آخر قال أبو محمد اختلفوا فيمن عاين مستحلا يركب حراماً على استحلال منه لذلك أو محرما يركب حراما وهو محرم لذلك والمعاين لا يعلم حرمة ما ركبا فقال بعض يسع من رآهما جهل ضلالتهما وغير مضيق عليه ما لم يتولهما، ومنهم من قال يسعه الوقوف عن المحرم والمستحل لا يسعه الوقوف عنه. ولعله لمن قال بذلك أن المستحل يضلل من خالفه فى ذلك ، فإذا ضلل من خالفه فيه ونصبه دينا لم يسع جهل ضلالته، ومنهم من قال يسعه مالم يتوله ويبرأ ممن برئ منه أو يقف عنه ، ومن صلى فى ثوب يشف لم يسعه جهل صلاته فيه ليلاً كان أو نهاراً ويلزمه البدل ولا كفارة عليه .

فصـل

ولا يسع جهل ما جاء عن الله عز وجل ولا يسع جهل ضلالة من رد ذلك ونقضه ولا جهل تفسيره إذا ذكر وعرفوا معناه، كما لم يسعهم جهل تفسير التوحيد إذا ذكر، ومن ركب مالايسع جهله متعمدا لفعله من ركوب أو تضييع مما يلزمه فى تعمده الكفارات لم يعذر بجهله فى الإثم ولا فى الكفارة والتوبة ، وعلى كل تعليم مالا يسع جهله وقد روى عن بشير أنه مر على رجل نجار فقال له محمد بن مهزم وهو حامل قدوماً فقال له لا تعمل بقدومك هذا شيئاً حتى تعلم ما يسعك جهله فيجب العلم لما لا يسع جهله ويلزم التعبد به . وروى عن بعض الفقهاء أنه قال على الكل تعليم العلم لأنه ليس لأحد أن يعمل عملاً إلا بعلم ولا يأكل ويشرب ويسمع ويبصر ويمشى ، وينكح إلا بعلم ، فإن عمل بغير علم كان مخطئا ولا يسعه ركوب ذلك وإنما وسعوا له ما لم يركب إذا كان بعض المسلمين قائما بنقل الشرع .

باب
ما يسع جهله

ويسع جهل أداء الفرائض مالم يبتل بالعمل بها فإذا وجب العمل وحضر وقتها لم يسعه ذلك مثل الوضوء والصلاة والزكاة والصيام والحج وكل ما حرم الله تعالى فعله وأكله وشربه من جميع المحارم فواسع جهل ذلك كله ما لم يفعل ويركب شيئا منه كذلك سائر الطاعات والمعاصى يسع جهلها ما لم يبتل لعملها ويركب شيئاً منها ويفعلها. ويسع جهل معرفة قسم المواريث والحدود والقصاص وسائر الأحكام التى تشبه هذا ما لم يقم الحجة أو يحكم بغير ما أنزل الله أو عطل شيئاً من حدود اللّه أو يعين على ذلك. فإذا قامت عليه الحجة بمعرفة ذلك وجبت عليه ، وضاق الشك فيه وإن حكم فيه بغير ما أنزل اللّه أو عطل شيئاً من حدود اللّه أو أعان على ذلك هلك. ويسع جهل ما دان بتحريمه ما لم يركب مثله ويتولى من ركبه أو يبرأ ممن برأ منه من الفقهاء أو يقف عنه، وقال ابن محبوب: القول فى خلق القرآن مما يسع جهله. وقال: الجنة والنار مخلوقتان ويسع جهل خلقهما ، وقال: كل ما لم يكن فى كتاب اللّه تعالى بيانه ولا فى سنة رسول اللّه ﷺ ولا فى إجماع العلماء فواسع جهله. وقال أصحابنا إن المحرم واسع جهل كفره والمستحل لا يسع جهل كفره، وكثرة الآثار بهذا إلا بشير فإنه قال المستحل يسع جهل معرفة كفره لمن علمه وما لم يتوله. قال أبو محمد: وهذا أنظر معى فى باب الحجة لأنه لورأى رجلا ارتكب فعلا لم يعلم ما هو لم يكن له أن يحكم فيه بشيء صواب ولا خطأ إلا أن يعلم صوابه أو خطأه. وكذلك

لو رأى رجلين مرتكبين لفعل لا يعلم هو إباحته ولا حرمته فقال أحدهما أن الله تعالى حرم على هذا الذى أرتكبه وقال الآخر إن الله تعالى أباح الذى ارتكبت والسامع لا يعلم حكم الفعل لكان الواجب أن يبرأ ممن ارتكب ما يقر أنه حرام عليه ولا يبرأ ممن ارتكب ما لا يعلم هو ما يبلغ به إذا لم يعلم حرمته وإن علم حرمة ما ركب كان عليه أن يبرأ ممن ركب الحرام . والله أعلم .

وقال أبو الحسن: من ركب معصية أو أحدث حدثا لا يدرى ما هو مستحل له أو محرم، ولا ما يبلغ به فاعله ولم يسمعه يدعى على الله فيه شيئاً فإنه يسعه الإمساك عنه ولا يتولاه ولا يبرأ منه إذا لم يكن له وليا من قبل. فإن قامت عليه حجة أن ذلك الشيء حرام فعليه البراءة منه. فإن علم أن ذلك حرام ولم يعلم أن من ركب مثل ذلك يبرأ منه وسعه الوقوف إذا كان واقفا سائلا عن حكم ما يلزمه فيما قد صح معه من ذلك، فإن أفتاه مفت بعد السؤال أو قامت عليه الحجة بأن ذلك الشيء مكفر لراكبه وأن البراءة واجبة عليه فعليه البراءة من فعله ولا يسعه الشك بعد قيام الحجة .

* **مسألة :** والذى يسع الناس جهله فعليهم إذا سمعوا به وعرفوا معناه أن يعتقدوا تعليمه ولا شيء عليهم إن لم يعلموه، وإن اعتقدوا ترك التعلم أثموا. وأما ما لم يسعهم جهله فعليهم فعله إذا بلوا به ووجب عليهم فعله فى حالة تعلموه أو جهلوه، وإن اعتقدوا ترك تعلمه قبل مجيء وقته أثموا وإن لم يتعلموه ولا اعتقدوا الترك ولا حضر وقت العمل به فلا شيء عليهم كأنه عليهم إن اعتقدوا بعد العلم إذا عرفوا معناه وإن اعتقدوا ترك تعلمه هلكوا . والسؤال لا يلزمهم وإنما يلزم العمل بما يجب به إذا حضر وقته والاعتقاد لتعلم مالايعلمونه من العلم إذا علموا أن العلم فرض

تعلمه على الكافة فقد وجب الاعتقاد لتعلمه. وجهلهم بفرض تعلمه هو وقت له. فأما ما لم يلزم فعله فى وقته من الأعمال فيجب الفعل علموه أو لم يعلموه ، والسؤال إنما هو آلة التعليم فإن علموه بسؤال فجائز وإن علموه بغير سؤال فجائز مجز لهم .

* **مسألة :** ويسع الوقوف فى الأطفال لأنه مما يسع جهله حتى يصح أمرهم، والدجال مختلف فيه ثبته قوم وأنكره آخرون وهو مما يسع جهله، وقولنا فيه قول المسلمين. ويسع جهل معرفة الصلاة فرائضها وسننها من تحريمها إلى تحليلها والوضوء ما لم يحضر الوقت فإذا حضر لم يسع، وكذلك يسع جهل معرفة الطهارة وغسل الأنجاس وما يفسد الوضوء مالم يركب شيئاً يفسد عليه. ويسع جهل معرفة القبلة ولبس الثياب الطاهرة فى الصلاة والصلاة على البقعة الطاهرة ، والنية للصلاة وكذلك الغسل من الجنابة والحيض والاستحاضة ، وما يجتنب فى الصوم ويفسده ، وكذلك الكفارات فى العتق والطعم والصوم، وكذلك علم ما يجب فيه الجراح والدم فى الإحرام وصلة الأرحام وحق الجار والزوجات والأولاد والمماليك والجهاد فى سبيل الله والزنا وشرب الخمر ، وقذف المحصنات وتحريم الدماء والأموال وتحريم الأمهات والبنات والأخوات والجدات والعمات والخالات وذوات المحارم من الرضاع والنسب. وكذلك الميتة والدم ولحم الخنزير وجميع المحارم كلها والربا والسلف ووفاء المكيال والميزان وغير ذلك مما هو فى معناه مما حرمه الله تعالى فى كتابه ورسوله ﷺ ، كل ذلك واسع جهل معرفته مالم يحضر وقته ويجب العمل به أو يركب شيء منه . فإن حضر وقته ولزم وجوبه أو ركب محظور منه لم يسع جهله ولا فعله على علم ولا بخطأ، ولزم العمل به على ما أمر به إلا الميتة والدم ولحم الخنزير وشرب الخمر فإنه معذور فاعله فى حال الاضطرار غير باغ ولاعادٍ وهذه جملة تدل على

غيرها من تدبر معانيها وأمعن النظر فيها ، والتوفيق بالله عز وجل والسلام ختام والحمد لله.

تم الجزء الثانى
من كتاب الضياء
* * * * *

